قبول الآخر

من أجل تواصل حوار الحضارات

د. ميلاد حنا

سبتمبر الدامي..
وتعليق على ما حدث

طبعة رابعة بها إضافات وإعادة ترتيب

الإعلامية للنشر

اهداءات ٢٠٠٢

د/ميلاد حنا

القاهرة

قبــول الآخـر

د. ميلاد حنا

قبــول الآخــر



فى ٢٥ يناير ١٩٩٩ حصل "قبول الآخر" على جائزة أفضل كتاب لعام ٩٨

د. ميــلاد حنــا



The United Nations Educational,
Scientific and Cultural Organization

hereby attests that the

1998 International Simón Bolívar Prize

has been awarded to

Milad Hanna

in recognition of his outstanding contribution
to the promotion of tolerance
within a pluralistic society and to strengthening
the bonds of good citizenship in keeping
with the ideals and message of Simón Bolívar

Paris, 19 October 1998

Federico Mayor
Director-General

حصل المؤلف د. ميلاد حنا على جائزة سيمون بوليفار الدولية من اليونسكو عام ١٩٩٨

مناصفة مع الرئيس ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال



صدر هذا الكتاب فى أول يناير عام ٢٠٠٢

واللوحة كانت مهداة من الفنان الكبير الراحل "يوسف فرنسيس"

2002

من أجل عالم يحتضن كل المستضعفين فى الأرض

مع ثقافة "قبول الآخر"

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٢/٢٨٧٨

الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5769-30-2

التنفيذ والطباعة: Stampa
11 ميدان سفنكس - المهندسين
تليفون: 3448824 - 3034408

الإعلامية



إهداء الطبعة الرابعة

إلـــى ..

الجمعية العامة للأمم المتحدة التى اتخذت قرارات تنفذها اليونسكو بأن يكون:

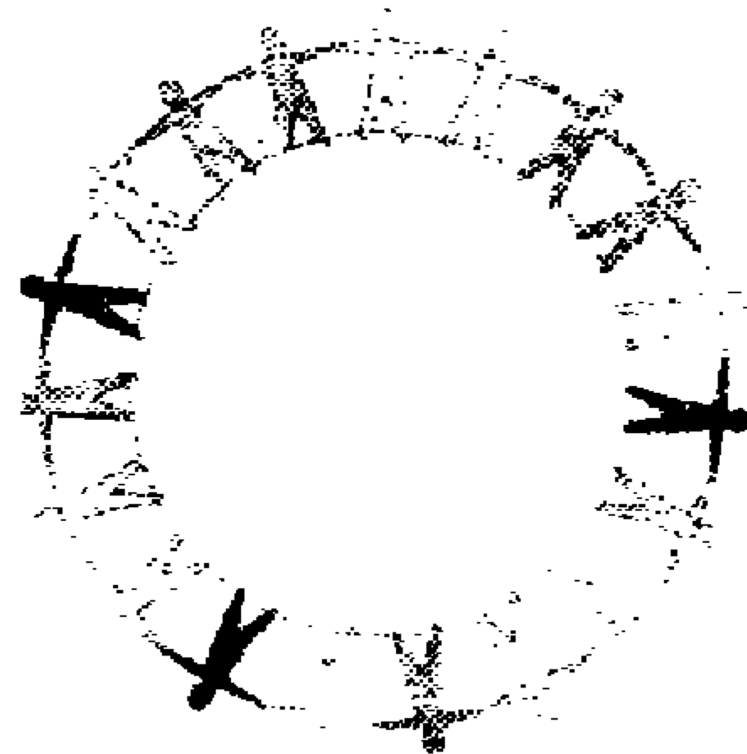
- عام ٢٠٠٠ هو عام لثقافة السلام.
- عام ٢٠٠١ هو عام للحوار بين الحضارات ..

ولكن .. الحوار بين الحضارات لم يستكمل بل أجهض بما حدث فى أمريكا من انفجارات عصر الثلاثاء الدامى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ثم راح فى غيبوبة بعد إعلان الحرب على أفغانستان يوم الأحد ٧ أكتوبر ٢٠٠١

فأصبحنا فى حاجة أشد إلى
ثقافة "قبول الآخر"
فإلى المنتمين إلى هذه الفكرة الخيرة
أهدى هذا الكتاب

د. ميلاد حنا

٣١ ديسمبر عام ٢٠٠١



مقدمة الطبعة الرابعة

الفارق بين المفكر والسياسي هي أن الأول يضع أفكاره ورؤيته على ورق ثم يمضي، أما السياسي إذا أستهوته الأفكار أو النظرية التي صاغها المفكر ومضى فإنه -أي السياسي- وجهازه التنفيذي يخطط كيف يحول الأفكار العامة للنظرية إلى استراتيچيات وسياسات ثم يناور بالتصريحات والقرارات حتى يحقق رؤية المفكر حسب الواقع الموجود في الحياة والمجتمع، ولكن الفضل التاريخي غالبًا ما ينسب إلى السياسي، وقد يختلف الأمر -ولو قليلاً- أي يعترف بفضل المفكر مع العولمة والشفافية وآليات القرن ٢١.

عندما صاغ **صموئيل هانتجتون** رؤيته في بحث -أو ورقة- نشرها في مجلة متخصصة معروفة لدى الدارسين للشئون الخارجية في أمريكا واسمها "فورن أفيرز" عام ١٩٩٣، استهوت فكرة "صدام الحضارات" كثيراً من سياسيي أمريكا واختزنوها في عقولهم، وتعمقت الفكرة عندما توسع في شرح نظريته في كتابه **"صدام الحضارات واعادة صنع النظام العالمي"** وقد نشر عام ١٩٩٦.

لم يكن أمام المفكرين إلا الحوار بكلمة أو فكرة أو نظرية تؤيد أو تقدم البديل، وهكذا صدر مؤلفي هذا "قبول الآخر" في ثلاث طبعات، الأولى صدرت عام ١٩٩٨ وحصل الكتاب على تقدير "أفضل كتاب في معرض القاهرة الدولي لعام ٩٨" في محاولة لتقديم فكر إنساني يستند إلى خواص الإنسان التي لا فضل له في اكتسابها، وبعدها أصدرته "مكتبة الأسرة" التي تدعمها السيدة **سوزان مبارك**، بسعر مدعم قدره **١٢٥قرشًا** أي حوالي **٢٥ سنتًا** من الدولار الأمريكي، وتم إصدار وطبع وبيع ٥٠ **ألف** نسخة منه في صيف عام ١٩٩٩، ثم صدرت الطبعة الثالثة عن "الاعلامية للنشر" منقحة ومزيدة في أوائل عام ٢٠٠٠ ونفدت من السوق حاليًا.

أقول ذلك، لأوضح أن هذا الكتاب قد "وجد" قبولاً لدى جمهور مصر من القراء، وكنت متصوراً أنني -وغيري من كتاب ومفكري العالم الثالث وأوروبا- قادر على إيقاف أو تأجيل ومنع تأثير رؤية ونظرية "صدام الحضارات" حتى لا

تصل إلى "صدام حقيقي وفعلي" فما أبشع الحرب والاقتتال، وكنت متوهما أن العالم قد تجاوز الحروب العالمية ولم تبقَ إلا الحروب الصغيرة التي نتمنى أن تتوقف كذلك، غير أن توازن القوى السياسي والعسكري والقيمي والمجتمعي على مستوى العالم كان أكثر فاعلية على حركة الحياة ذاتها، والتي تتفوق غالبًا على أي فكر أو رؤية أو نظرية.

وهكذا جاءت أحداث الهجوم على مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك وعلى مبنى البنتاجون في واشنطن، في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لتؤكد أن نوعا من أشكال "صدام الحضارات" قد تم بالفعل، وبعدها تم إعلان الحرب على أفغانستان في ٧ أكتوبر عام ٢٠٠١.

وتصادف أن كان ذلك مع الحاجة لإصدار طبعة رابعة باللغة العربية لكتاب "قبول الآخر" وخلال عام ٢٠٠١، صدر عن **مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية للأهرام** الطبعة الأولى **باللغة الإنجليزية** وقبل نهاية العام صار مطلوبا عمل طبعة ثانية إنجليزية، فكان لازمًا أن أجرى بعض التعديلات على النصوص السابقة.

كان لازما بعد هذه الأحداث الجسام والتي صارت محطات لها أثرها على *تاريخ العالم السياسي والمجتمعي، لذلك كله آثرت أن أقسم الكتاب إلى أربعة* أجزاء على النحو التالي:

الجزء الأول: ويشمل ذات فصول الكتاب للطبعة الثالثة، وبدلاً من أن عدد الفصول سبعة صار ستة بسبب نقل الفصل الثالث وكان بعنوان: "الماركسية والكاثوليكية معا من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحياة"، فقد رُئى أن ينقل إلى **الجزء الثاني** من هذه الطبعة والذى صار عنوانه **"عن الاديان والايديولوچيات"** ويتكون من فصلين: أحدهما بعنوان «دور الديانات الإبراهيمية والايديولوچيات الغربية في صياغة قبول الآخر» وهو فصل مستحدث تماماً ومتأثر بما جرى في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والآخر بعنوان «الماركسية والكاثوليكية معًا.. من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحياة»، وهو ما كان محتوى الفصل الثالث في الطبعة الثالثة بعد تعديله ليناسب الظرف الجديد.

ويأتى الجزء الثالث مشتملاً على بعض مقالات للمؤلف نشرت مؤخراً فى جريدتى الأهرام القاهرية والحياة اللندنية وهى معبرة عن رؤى وانفعالات تبلورت بعد صدمة ١١ سبتمبر وما تلاها، ومن أهمها تقديم اقتراح بأن يرتب من الآن على مستوى العالم ليكون **"عام ٢٠٠٣ هو عام تواصل وتتالى الحضارات"**، حيث تنظم أسابيع متتالية تعرض فى كل منها حضارة قديمة من خلال آثارها وتراثها، وما أخذته من حضارة سابقة وما تعطيه وتقدمه لحضارة تالية، ثم يجمع كل ذلك من خلال اليونسكو ويعاد صياغته وربطه وتجهيزه للنشر الالكترونى بطريقة شيقة وباللغات الأساسية فى العالم ليناسب الأطفال والشباب؛ المتعلم والأمى، ثم ينشر ويوزع على مستوى العالم فى المدارس ومحطات التليفزيون والإنترنت وغيرها، لسنوات طويلة بعد ذلك، فيتولد **رأى عام عالمى بأن ما وصلنا إليه اليوم من حضارة هو حصيلة وتراكم إنجازات تمت عبر حضارات كثيرة سابقة.**

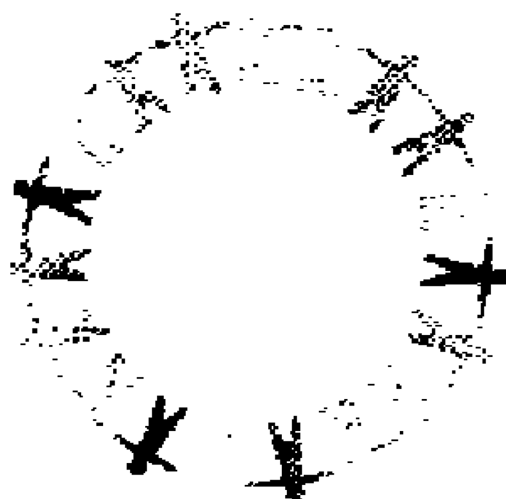
أما الجزء الثالث فيضم بعض مستندات الأمم المتحدة وإعلان طهران الذى كان البداية لتحرك الأمم المتحدة لتتخذ قرارها بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات.

أخى القارئ الكريم...

ها هى الطبعة الرابعة من كتابى "قبول الآخر" بين يديك، لعل ما بها من أفكار تلقى قبولاً لديك ويفتح حواراً لأن قناعتى أن نشر ثقافة "قبول الآخر" هو المصل الذى يرفع الكراهية من صدور كثيرين، فيتم قبول التنوع بين السلالات والاديان والثقافات والحضارات، فيكون القرن ٢١ بداية لعالم جديد تختفى فيه الحروب ويعم السلام والنماء **..وعلى الله قصد السبيل..**

وختاما فإننى أتقدم بالشكر للصديق الأستاذ/ **أشرف عامر** لما بذله من جهد فى اعداد هذه الطبعة الرابعة، وإلى كل معاونيه فى «الاعلامية للنشر– ستامبا».

ديسمبر ٢٠٠١



ميلاد حنا

مقدمة الطبعة الثالثة

ظلت فكرة «قبول الآخر» تدور في وجداني لما يقرب من ثلاث سنوات، فقد استفزني فكر صموئيل هانتنجتون لنظريته التي تتنبأ بأن الحقبة القادمة تحركها رؤيته وهي «صدام الحضارات». وعندما تبلورت الفكرة وتمت صياغتها في كتاب، ودفعت به إلى المطبعة، وأخذ مساره بين كتب أخرى وتعطل إصداره عدة أشهر، إذا بي أفاجأ بحصولي على جائزة سيمون بوليفار الدولية من اليونسكو لعام ١٩٩٨ وذلك مناصفة مع ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق والمناضل الاشتراكي الديمقراطي الذي أسهم في التخلص من نظام سالازار الفاشي، ودخلت البرتغال حقبة الديمقراطية من وقتها حتى الآن وكان ماريو سوارش أول رئيس جمهورية مدني لبلاده لفترتين متتاليتين فقط.

وعندما حضرت الاحتفال بتسلمي هذه الجائزة -رفيعة المستوى- في باريس يوم الاثنين ١٩ من أكتوبر عام ١٩٩٨، تم حوار -لم يرتب له- قبل الاحتفال مباشرة -وكأنه دردشة- في مكتب المديرالعام فيدريكو مايور المدير العام لليونسكو وكان أن تطرق حديثي عن هذا المؤلف الذي اخترت له عنوان «قبول الآخر»، فأعجب مايور بالفكرة والكتاب، ونصحني بأن يترجم الكتاب إلى الانجليزية -وهو ما يتم قريبًا بإذن الله(*) وسعدت بأن اقترح عليّ دمج الكلمتين في عبارة واحدة هي **The Otherness** أي أنه يرى أن عبارة «قبول الآخر» ستتحول إلى «أيديولوجية» أو ما أسميه «ذهنية» وفق تعبيرات صديقي المفكر والمثقف الصادق المهدي، زعيم حزب الأمة ورئيس وزراء السودان السابق.

[*] تم نشر الكتاب باللغة الانجليزية عام ٢٠٠١ والناشر: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام.

وفي أثناء تقديم مايور لي للحصول على الجائزة، قال:

عزيزي بروفسور حنا

ابن مصر

أقدم حضارة في التاريخ:

ثم ذكر فيما ذكر: كيف أنني كنت -بمواقفي وكتاباتي- أحد أسباب استمرار التسامح وقبول الآخر في مصر، حيث يوجد «مجتمع متعدد الأديان». وبعدها تطرق -في كلمته- إلى الحوار الذي جرى بيننا- قبل الاحتفال مباشرة- وعن عزمي نشر كتابي «قبول الآخر».

وبالفعل، ما أن عدت إلى القاهرة حتى حظيت بتكريم من عشرات الهيئات الرسمية والأهلية، جددت وجداني وشبابي، لأعود مرة أخرى «مناضلاً» من أجل "ذهنية قبول الآخر"، فمن المعروف أن جائزة سيمون بوليفار لا تمنح إلا للمناضلين، في حين أن جائزة نوبل تعطى للنابهين المتميزين من المتخصصين، في أربعة مجالات حددها صاحب الجائزة ذاته الفريد نوبل في وصيته قبل ان يرحل في ١٠ ديسمبر عام ١٨٩٦.

وهكذا وجدت عبارة قبول الآخر لدى الناس قبولاً عامًا حتى صارت من المصطلحات المستخدمة في أحاديث وكتابات المثقفين وهناك قصص ووقائع ربما تنشر في سياق آخر.

وقبل أن يفتتح معرض الكتاب السنوي رقم ٣١ بالقاهرة في ٢٦ يناير ١٩٩٩ بأيام قليلة أعلن عن أن هذا الكتاب قد حصل على جائزة أحسن كتاب في مجال العلوم الاجتماعية لعام ١٩٩٨، وعقدت الهيئة المنظمة للمعرض أولى ندواتها لعرض ومناقشة هذا الكتاب يوم الاربعاء ٢٧ يناير، وقد شارك معي في العرض والمناقشة كل من: الاستاذ كامل زهيري والاستاذة مها عبد الفتاح والاستاذ محمد سيد أحمد، وكانت -كما سجلت الصحافة- من أنجح ندوات المعرض.

كانت المفاجأة التالية هى أن الهيئة المشرفة على مشروع مكتبة الأسرة والذى تتبناه السيدة سوزان مبارك رغبت فى أن يكون أحد اصداراتها ضمن مجموعة الاعمال الفكرية هو كتاب «قبول الآخر» وطبع منه خلال شهر سبتمبر ١٩٩٩ كالمعتاد أعداد وفيرة، قد تقدر بعشرة آلاف أو مضاعفاتها حسب تقاليدهم، وقد نفدت فى بحرأيام.

ولم يكن أمامى من سبيل إلا إعداد هذه الطبعة الثالثة حيث أجريت مراجعة كاملة للكتاب، فتم تنقيحه بشكل عام، ومن بين ذلك ان أضفت الفصل الرابع بأكمله وهو فصل فلسفى نظرى بديع حيث قدمت رؤيتى: كيف أن نهج «قبول الآخر» يقبله المنطق والفطرة الانسانية، ولكن الواقع الفعلى رافض لفكرة قبول الآخر بسبب القناعات المسبقة؛ نتيجة الانتماءات الموروثة والمكتسبة؛ ومن ثم كان فحص الاساليب والآليات التى تصنع وتصيغ الوجدان الانسانى من قيم ومفاهيم وثقافة.

وهذا الفصل الرابع كنت قد نشرته كمقال فى جريدة الحياة اللندنية فى أغسطس ١٩٩٩، كملخص لبحث أعددته ليلقى فى ندوة فكرية عقدت فى موسكو من ١٣ إلى ١٦ مايو ١٩٩٩.

كذلك تمت تعديلات جوهرية فى الفصل الثالث بإضافة ترجمة لفقرات قليلة منتقاه من كتاب صموئيل هانتنجتون والذى صدر عام ١٩٩٦، ثم ترجم إلى العربية عام ١٩٩٨: لعل هذه الطبعة الثالثة تكون ملبية أكثر لتطلعات القراء المتابعين لفكرة «قبول الآخر» فى شكلها المنقح الجديد.

القاهرة ٣٠ نوفمبر عام ١٩٩٩ م.ح. م

مقدمة الطبعة الأولى معدلة

ما إن سقط حائط برلين في نوفمبر عام ١٩٨٩ وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، حتى بدا العالم وكأن قد أصابه وباء جديد نتيجة تفجر كراهية وعداوات كانت كامنة مثل الأمراض الخبيثة، فتفجرت صراعات في مواقع كثيرة من العالم، تبث الكراهية بين مجموعات بشرية قد تكون من مواطني دول مختلفة لها حدود مشتركة متجاورة أو متعايشة في داخل إقليم أو وطن واحد.

يتولد الاحساس بالكراهية بسبب رواسب تاريخية لاختلاف السلالة أو الأديان أو المذاهب، وفي بعض الأحيان تزداد الكراهية عمقًا وحدّة فتتحول إلى صراعات تشتعل لتكون حروباً أهلية تملأ أخبارها وسائل الإعلام، وبسرعة تتوارى أخبارها لأنها طالت ومل الناس من تكرار أحداثها، لكي تظهر أخبار جديدة تغطي صراعًا في مكان آخر، حتى احتلت أخبار هذه الصراعات مكان الحرب الباردة كما عاشها جيلي من نحو عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٩٠.

ربما كان أهم هذه الصراعات وأشهرها بل أخطرها، ذاك الانهيار الذي أصاب يوغوسلافيا السابقة، حتى بدت هذه الدولة وكأنها مكونة من قطع متجاورة متداخلة من الزلط والرمل، ولم يكن تماسكها -في واقع الأمر- إلا مؤقتًا وظاهرياً من خلال النظرية الماركسية بزعامة محررها من الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية جوزيف بروزتيتو، وعندما تحلل «الأسمنت» واختفى نظام تيتو وفكره وحزبه ونظامه عادت قطع الزلط والركام المصفوفة والمتراصة تتصارع رافضة لأى نوع جديد من التماسك، وهكذا استمرت حرب البوسنة والهرسك كأكبر مأساة بشرية إلى أن استطاعت الأمم المتحدة وأوروبا وأمريكا أن توقف الحرب بعد أن قتل الملايين ثم اشتعلت من جديد عام ١٩٩٩ فى كوسوفو ويعلم الله أين ومتى يكون الصراع الجديد.

وهناك عشرات من حالات مشابهة في مواقع كثيرة أخرى حيث دار -ومازال يدور- الصراع بسبب الخلاف فى الدين ثم امتدت الظاهرة لتشمل مصادمات حادة بين جماعات تنتمى إلى ذات الدين، ففى أيرلندا صراع قديم بين البروتستانت والكاثوليك، وفي أفغانستان حرب شرسة بين فرق تنتمى إلى حركات «المجاهدين» الذين تحالفوا للتحرر من الاحتلال السوفيتى[*]، ولكن ما إن خرج السوفيت حتى تناحرت الفرق الدينية والقبلية المتحاربة ومازالت تتصارع حتى الآن.

وعلى حدود كل من تركيا والعراق حروب تكمن أحيانًا وتشتعل أحيانًا أخرى، بسبب مشاعر جماعية لشعب عرف باسم «الأكراد» رغب في أن يكون له كيان مستقل، ولكن قامت الحكومات المجاورة التى بها أقلية كردية باضطهاد هذه الحركة، على الرغم من أن الديانة السائدة فى كل هذه الدول -بما فيهم الأكراد أنفسهم- هى الإسلام، وطرح السؤال نفسه على الساحة، هل الصراع بسبب السلالة أو اللغة (أى أن للصراع جانبًا ثقافيًا أم هما معا؟).

أما الحرب الأهلية فى جنوب السودان، فقد بدأت قبل أشهر من الاستقلال فى أول يناير عام ١٩٥٦ أى منذ نحو ٤٣ عامًا وخلال هذه الفترة، اشتعلت الحرب الأهلية لنحو ٣٢ عاماً متقطعة، وربما كان ذلك بسبب أنها من الحالات الصارخة للصراعات الأهلية الداخلية حيث تجمعت كل أسباب الفرقة، فأهل الشمال ينتمون إلى الإسلام ويتمسكون بالعروبة على الرغم من أن العروبة هناك ممثلة فى اللغة أكثر من وضوحها فى لون البشرة أى من ناحية السلالة، أما فى الجنوب فالانتماء واضح أنه لسلالة الشعوب الإفريقية المسماة «الزنجية» أى أن هناك خلافًا فى «السلالة»، كما يوجد خلاف فى الدين حيث تنتشر فى الجنوب ديانات متعددة بما فيها المسيحية والإسلام وديانات أخرى قديمة يسمونها خطأ بكلمة فضفاضة: «الوثنية».

[*] كتبت هذه العبارات قبل أن يتم الاتفاق بين أطراف النزاع فى أيرلندا فى أبريل عام ١٩٩٨، وها نحن نشاهد معجزة الحوار بين الفرق المتناحرة فى أفغانستان مما يعنى أن فلسفة «قبول الآخر» سوف تنتصر فى نهاية المطاف..

وأما ما يجرى فى الجزائر، فأمره عجب، فهو نموذج حاد للصراع بين المنتمين إلى الحركة الإسلامية الأصولية من جانب وهم المتمسكون بالجذور العربية الإسلامية، وبين فريق آخر ينتمى إلى التيار الليبرالى العلمانى غير المعارض للثقافة الفرنسية أو التعامل مع الغرب، وهذا القطاع الأخير يشمل -ضمن ما يشمل- السلالة المعروفة باسم «البربر» ولها توجهات «اشتراكية ديمقراطية»، ولذا فالجزائر ساحة للصراع السياسى والأيديولوچى كما أن له بعداً ثقافياً وعرقياً على الرغم من أن أهل الجزائر ينتمون جميعاً إلى الإسلام... ولكن أى إسلام؟ فمن الواضح أن الدين له مفهوم مختلف حسب الرؤية الثقافية، حتى صار «قبول الآخر» فى الوطن الواحد مسألة شبه مستحيلة بعد حرب المليون شهيد من أجل الاستقلال عن فرنسا خلال الخمسينيات والستينيات ولا يعرف أحد ما المصير وكيف ستنتهى هذه المجزرة اللاإنسانية.. وإن كانت هناك بوادر انفراج مع وصول بوتفليقة إلى الحكم ومحاولته لنشر وثيقة «الوئام» وأجرى استفتاءً على هذه الوثيقة وهى نوع من قبول الآخر.

ومنذ سنوات قامت حرب بشعة بين روسيا الاتحادية - وقد صارت دولة عظمى مستقلة بعد تفكك الاتحاد السوفيتى- وبين دولة أو «دويلة» صغيرة صار اسمها على كل لسان وتسمى «الشيشان» وتدفقت مشاعر إنسانية بين معظم الشيشانيين لأنهم يبغون «الاستقلال» وهو حق طبيعى للشعوب، ولكن امتزجت الأوراق واختلطت، وتحولت حرب التحرير إلى صراع دينى بين الأرثوذكس والمسلمين له بعد عرقى أو جغرافى باعتبار أن روسيا لها انتماء «أوروبيا» بينما الشيشان قريبة من مجموعة الدول المنتمية إلى آسيا الوسطى، أو بحر قزوين ولها حدود مشتركة مع داغستان الاسلامية ويبدو أن الصراع لم يصل إلى نهايته السعيدة باستقلال الشيشان عام ١٩٩٤ بعد أن أهدرت أرواح كان من حقها الحياة.. لأن ثقافة قبول الآخر غير مطروحة بل وغير واردة أصلاً فقد حل الدم مكان الوئام.

ولا أود أن أسترسل فى ذكر صراعات فى مواقع كثيرة فى إفريقيا حيث القبائل المتناحرة فى الصومال ورواندا وزيمبابوى، ثم فى مواقع كثيرة من آسيا.. لعل أبرزها الصراع القديم الذى يتجدد بين الهند وباكستان حول كشمير وصل إلى حد التهديد باستخدام صواريخ حاملة لرؤوس نووية.

ويبدو الأمر كأن وباءً قد أصاب معظم شعوب ودول العالم، أى أن البشرية تمر بحقبة بائسة قد تستمر سنوات وسنوات، وتحاول الدول الكبرى أن تتدارك المشكلة من وجهات نظرها، وتقوم تنظيمات الأمم المتحدة بالتدخل بقدر ما تسمح إمكاناتها فضلاً عن حسابات دقيقة لتوازنات السياسة الدولية، فتشكل -فى بعض الأحيار- قوات عسكرية تحمل علم الأمم المتحدة، أو يتم الاستغناء عن غطاء الأمم المتحدة بأكمله لتحل محله منظمة حلف الأطلنطى «الناتو» والتى تسعى الحكومات للانضمام إليها خوفًا من بطشها، كما تقوم الجيوش الوطنية بالتدخل لمقاومة هذه الحركات التى قد يسمونها أحيانًا بـ «التطرف والإرهاب» كما فى حالة الشيشان التى اشتعلت من جديد عام ١٩٩٩ كرد اعتبار لكرامة الجيش الروسى الذى هزم عام ١٩٩٤، ويتم تبادل المعلومات من خلال اختراق هذه الجماعات المسلحة على أنواعها، **ولكن المشكلة لن تعالج بهذه الطريقة، لأن التدخل بالسلاح وبأساليب الشرطة والمخابرات يتعامل مع أعراض الظاهرة فى سطحها دون العمق وصولاً إلى جوهرها وأسبابها.**

إن هذه الصراعات -فى الأغلب الأعم- هى نتيجة لمشاعر إنسانية عميقة الجذور قد تعود لقرون تراكمت لدى مجموعات بشرية تحمل غالبًا صبغة فكرية وثقافية، **فإذا استطعنا أن ننشر فكر وثقافة «قبول الآخر» بينها فإننا نكون قد قطعنا شوطًا من الطريق**، إذ عندها يتحول الصراع الدموى المسلح والساخن إلى صراع أهدأ، وتنخفض درجة حرارة الصراع، بعدها تأتى مرحلة الحلول التوفيقية من خلال «التفاوض» مقرونة بقبول حقوق البشر فى الاستقلال أو الخصوصية الثقافية وما أشبه، وفى هذا الأمر تختلف كل حالة عن الأخرى لاختلاف الخلفية التاريخية للأمانى أو المعاناة أو التطلعات.

غير أن **ثقافة «قبول الآخر» - وهو موضوع هذا الكتاب ... سلاح ذو حدين،** فإذا كان هدفنا هو إقناع الشعوب المقهورة بهذه الثقافة دون أن تقتنع شعوب (ثم حكومات) الدول القاهرة، فإننا نكون بهذه الثقافة **قد ساعدنا القاهر على حساب المقهور،** فثقافة «قبول الآخر» في مجملها هي محاولة لصياغة عقلية **وجدانية ينبغي أن تسود دول العالم الأول قبل دول العالم الثالث،** فالمفترض أن دول أوروبا وأمريكا أكثر ثقافة وديمقراطية، ومع بدء هذه العملية ومع الزمن وتراكم الفكر الأرقى لقبول الآخر، يتكون رأى عام عالمى يتفهم حقوق الشعوب والمجموعات البشرية المناضلة من أجل استقلال أو كسب حقوق متساوية في وطنها، أو الاعتراف بحق كل المنتمين لأقليات عرقية أو دينية أو مذهبية أو عقائدية فى أن يتمتعوا بحقوق متكافئة وفق نصوص ومواثيق الدول ذاتها حسب ما جاء فى ميثاق حقوق الأقليات الذى تم التصديق عليه من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٩١، (أنظر الملحق رقم ١ فى نهاية الكتاب).

إن كل آملنا هو أن يقصر المدى الزمنى الذى ستعانى فيه البشرية من هذه الصراعات الدموية والتى يزداد عددها ومداها عاما بعد عام، فضلاً عن أن نشر ثقافة «قبول الآخر» **قد يكون المصل الواقى الذى يعالج بعض الحالات الحرجة** حيث توجد معاناة بين مجموعات بشرية، ولكنها معاناة «مكبوتة» لم تنفجر بعد، فتكون ثقافة «قبول الآخر» عاملاً أساسيًا فى منع قيام الصراعات الدموية أصلاً، وكأنها إجراء «وقائى»، كما قد تتحول ثقافة «قبول الآخر» إلى أسلوب «للعلاج» وكأنها نوع من الدواء أو البلسم عقب إيقاف الحرب بشكل أو بآخر.

تكاد لا تكون هناك دولة أو شعب يدّعى أن جميع مواطنيه ينتمون إلى سلالة واحدة؛ ويدينون بديانة واحدة؛ لها ذات المذهب، فالنقاء العرقى والدينى والمذهبى أمر نادر الوجود، خصوصًا مع حركة الهجرة والانتقال من دولة إلى أخرى وهو

أمر سائد الآن لأسباب مختلفة ليس هنا مجال ذكرها[*]، ولعل خير دليل على ذلك هذه المدن الكبرى، مثل: لندن وباريس ونيويورك وغيرها، حيث يشعر المرء -وهو يسير في شوارعها الرئيسية- وكأنها قد صارت بالفعل «مدنا عالمية» بها كم هائل من ألوان البشرة واللغات واللهجات وغالبًا الثقافات والأديان، فتسمع وأنت تسير في شارع أكسفورد في لندن أو طريق الشانزليزيه في باريس أو الطريق الخامس Fifth Avenue في نيويورك، معظم لغات الأرض، وترى كل درجات ألوان البشرة والشكل فضلاً عن الزى والعادات... حقًا إن العالم يتحول تدريجيًا ليكون -كما يقولون- قرية واحدة صغيرة..! ولكن أمامنا مشوار طويل قبل الوصول إلى هذه الحالة من قبول الآخر أو حرية التنقل من دولة إلى أخرى، فكل ذلك يؤكد أننا على عتبة المرحلة المسماة بـ «العولمة» أو «الكوكبية» Colobalism، ولذا فمن المهم أن نَعْبُرَ هذه الحقبة الحرجة في أقصر وقت وبأقل قدر من الخسائر في الأرواح والأموال والمعاناة.

* * *

المعتاد -لدى معظم الكتاب- أن يكون اختيار عنوان الكتاب، والذى -يعبر عن القضية الرئيسية التى يعالجها- قبل أن يبدأ الكتابة ويحدد بنية المُؤلَف، وهو ما تم بالفعل بالنسبة لي مع هذا الكتاب، ذلك أننى قد كتبت كثيراً حول السنة الدولية التى دعت لها **هيئة اليونسكو** تحت شعار **«أنها تسعى لأن يكون عام ١٩٩٥ هو عام التسامح»** وقد ترجمت كلمة Telerance-أول الأمر- بما تصورته

[*] كانت دولة السويد حتى عشرين عامًا مضت نموذجًا فريدًا ونادرًا لأمة كلها من سلالة الجنس الأبيض مع خلافات بسيطة لها جذور منذ أن كانت السويد قبائل من النومادز (بها عدد ضخم من البلوند أى من لديهم الشعر الذهبى والعيون الزرقاء) كما أن كل أهلها ينتمون إلى المذهب البروتستانتى اللوثرى المسيحى فضلاً عن ذلك فإنها لم تدخل أى حرب منذ ما يزيد على قرنين من الزمان، ومؤخرًا -ومع قبولها الهجرة بسبب الاضطهاد الدينى أو العرقى فى دول أخرى كلاجئين سياسيين وهو الزام على الحكومة بنصوص الدستور فقبلوا مهاجرين مأزومين من البوسنة والهرسك وأفغانستان وإيران والعراق وغيرها -فصارت تشكو من وجود نحو ٣٠٠ ألف مسلم يمثلون مشكلة ويحاولون علاجها من خلال نشر ثقافة «قبول الآخر» أو ما يسمونه فى الخارجية السويدية الحوار بين الإسلام وأوروبا.

المقابل العربي وهى كلمة «التسامح» ولكن مع الحوار وردود الفعل لكتاباتى، **اكتشفت أن عبارة «قبول الآخر» هى ترجمة أفضل وأقرب إلى المفهوم السليم كما سيتضح للقارئ مع السياق العام للكتاب لأن عبارة «التسامح» تعنى أن هناك طرفًا أخطأ ولذا فإن الطرف الآخر يسامحه وهذا يعبر عن رؤية تحالف فكر ونظرية ونهج «قبول الآخر».**

* * *

فى **الفصل الأول** قدمت محاولة نظرية للاقتراب من القوانين المحركة للتاريخ حيث قدمت رؤيتى فى أن **«المشاعر الانسانية الجماعية»** للشعوب أو المجموعات البشرية هى التى تحرك التاريخ، وربما تكون بديلاً للمفهوم الماركسى لنظرية **«صراع الطبقات»**، ذلك أن الطبقات ما هى إلا مجموعات بشرية لها مشاعر وأمانٍ مشتركة، ولذا فإن تجميعها وتنظيمها فى شكل نقابات للطبقة العاملة قد يحرك التاريخ، ورَبطتُ ذلك بنظرية أن البشر والجماعات تترجم مشاعرها بالالتفاف حول انتماءات اجتماعية متعددة بعضها موروث والآخر مكتسب، ولعل أهم الانتماءات الموروثة هما: الانتماء الدينى والانتماء الوطنى، ثم طرحت تساؤلا مشروعا هو: أى هاتين الانتماءين يسبق الآخر وهى قضية خلافية فى المرحلة الحالية، لعل القارئ يجد فى هذا الفصل متعة ذهنية تثير الحوار وربما الاختلاف فى الرؤى.

الفصل الثانى من الكتاب -فهو فصل أطول نسبيًا- لأنه طرح كيف انتقل العالم من قبول نظرية **«صراع الطبقات»** التى قدمها كارل ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر وصولاً إلى نظرية صدام أو **«صراع الثقافات»** التى ابتدعها المفكر الأمريكى صموئيل هانتنجتون عام ١٩٩٣، وهى النظرية التى صارت المحرك النظرى لمجمل سياسة الخارجية الأمريكية فى الحقبة الحالية، لذلك قدمنا نصوصًا مختارة من هذه النظرية الأخيرة حتى تكون فى متناول قراء العربية، ففى ضوئها يمكن فهم الكثير مما يجرى فى منطقتنا العربية لأن السياسة

الأمريكية تسير -فى الأغلب الأعم- وفق الخطوط العامة العريضة لنظرية «صراع الحضارات».

* * *

وقبل أن ندخل فى صلب فكر وثقافة **«قبول الآخر»**، كان المنطق يقتضى تقديم أمثلة عملية على «قبول الآخر» من خلال خبرات إنسانية فريدة فى التاريخ المعاصر، كان أولها هو ما ظهر فى أمريكا اللاتينية من فكر صار يعرف بعبارة **«لاهوت التحرير»** وكيف تمت المصالحة ثم التزاوج أو التلقيح الثقافى(*) Acculturation بين المذهب الكاثوليكي المحافظ من جانب وبين الماركسية والاشتراكية من جانب آخر وهى الأفكار التى امتزجت وانصهرت خلال حركة التحرر الوطنى فى بلدان أمريكا اللاتينية فى النصف الثانى من القرن العشرين وتنبئ الشواهد أن **«لاهوت التحرير»** سوف يتطور ليناسب العصر، وينتظر أن يسمى لذلك **«لاهوت الحياة»**.... وكل ذلك قد أوضحناه فى الفصل الثالث.

وفى شئ من الصراحة، لابد لى أن أعترف بأن الفصول الثلاثة الأولى قد كتبتها فى صيف عام ١٩٩٦، فى مدينة مارينا -على الساحل الشمالى الغربى لمصر- وعندما عدت للقاهرة، تاهت الأفكار، وضاع الوقت، فلم أستطع أن أستكمل الكتاب حتى عدت مرة أخرى إلى مارينا فى صيف عام ١٩٩٧، وكان صموئيل هانتنجتون قد أصدر كتابه شارحا نظريته فى شئ من التفصيل، ووجدت أن قضية «قبول الآخر» مازالت ملحة، فعكفت على استكمال الدراسة، فكان الفصل الخامس(**) بعنوان **«ثقافة قبول الآخر»**، وهو المعبر -من وجهة نظرى- عن كيفية نشر الثقافة التى تدعو وتوصلنا لقبول الآخر، فالجزء الأول من

[*] أنظر مقال التلقيح الثقافى بين الاديان والايديولوجيا -ضمن كتاب الأهالى رقم ٥٨ بعنوان «ساسة ورهبان وراء القضبان» عام ١٩٩٧ ومترجم إلى الانجليزية فى كتاب «نحو ألفية ميلادية جديدة أكثر إشراقاً» المقال رقم ١٤ -وصادر عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة- عام ١٩٩٨.

[**] كان هذا الفصل حاملاً رقم ٤. ولكن ترقيم الفصول قد تغير عندما أضفت إلى هذه الطبعة الثالثة. الفصل الرابع -وهو صلب نظرية «قبول الآخر» وكما نوهت عن ذلك فى مقدمة الطبعة الثالثة.

هذا الفصل الرئيسي والمهم، هو عن نشر ثقافة قبول الآخر بالنسبة «للفرد»، ومن ثم فهو أمر مفيد لكل منا، ويستطيع أى فرد أن يطور نفسه حتى يكون قابلاً للآخر، وسيجد كيف أن قناعتك بهذا المفهوم سيكون له مردود هائل بالنسبة لمن يقتنع به، وسيجد أنه هو نفسه «مقبول من الآخرين» طالما أنه قد مارس فكر وثقافة **«قبول الآخر»**، فالحب مُعْدٍ كما أن الكراهية معدية، أما الجزء الثانى من هذا الفصل الخامس، فهو يتعرض لقضية أعقد وأصعب، لأن نشر ثقافة قبول الآخر بين المجتمعات البشرية، وصولاً لأن يكون بين الشعوب أى بين الأجناس المتناحرة أو الأديان المتناقضة، ليس أمرًا سهلاً، لأنه فى الأساس عمل سياسى وثقافى وتعليمى من الطراز الأول، وقد طرحت ما تصورته من أساليب وآليات يمكن لأى مجموعة بشرية أو شعب -وربما من خلال حكوماته- أن تتبعها **لعلها تنمى ثقافة قبول الآخر «جماعيًا»**، وعندئذ ستقل الصراعات وتخف حدة التوتر، وفى بعض الحالات التى يوجد بها احتمالات لتفجير صراع طائفى أو دينى أو مذهبى، ستكون أساليب وآليات ثقافة الآخر -وكما شرحت تفصيلاً فى مجمل هذا الفصل الخامس وقبله الرابع- ملطفة وربما مانعة، **أى تكون «وقائية» حتى لا تتطور الأمور من الصراع البارد إلى الصراع الساخن.. الدامى!**

ثم جاء الفصل السادس بعنوان «الاشتراكية الديمقراطية أيديولوچية مناسبة لقبول الآخر» -ليكون فرصة لأعرض فيها بعض خبراتى وآرائى وتاريخى مع أيديولوچية «الاشتراكية الديمقراطية»، ذلك أنه لأسباب ذاتية فإننى مقتنع بأن المناخ الحضارى الذى تفرزه الاشتراكية الديمقراطية -على الأقل كما رأيتها ممارسة فى مجتمع مثل السويد- كانت المناخ الملائم لمجتمع يعمل ويسعى لإقلال المصادمات داخله، ومن ثم فمناخ الاشتراكية الديمقراطية من أفضل الأيديولوچيات التى توفر ثقافة «قبول الآخر» وسيجد القارئ بعض القصص التاريخية التى شاركت فيها، وستكون موضع تندر وحوار وخلاف بين التيارات السياسية عمومًا واليسارية خصوصًا، وأحسب أنها ترى النور وتنشر لأول مرة.

وكان طبيعيًا أن أنهي الكتاب في الفصل السابع عن «مصر كنموذج لقبول الآخر» مقدما خبرة وجود ديانتين متعايشتين عبر قرون طويلة، **لعلها تكون هي ذاتها مثالاً يحتذى**، وقد يكون في طرحها أيضًا ما يصفي هذه العلاقة مما يكون قد علق بها من شوائب نتيجة ما صرنا نسميه بـ «الفتنة الطائفية» والإرهاب، وهنا أقدم أيضًا خبرة مصر في التعايش بين التيارات السياسية والفكرية دون عنف.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أود أن أقدم الشكر والتقدير للأستاذ مصباح قطب الكاتب الصحفي بجريدة الأهالي والذي قدم لي حوارًا مفيدًا من خلال قراءاته للنص الأصلي وكانت لإضافته فائدة كبيرة، فضلاً عن معاونته لي في مراجعة النصوص والبروفات المختلفة.

أيها القارئ الكريم ..

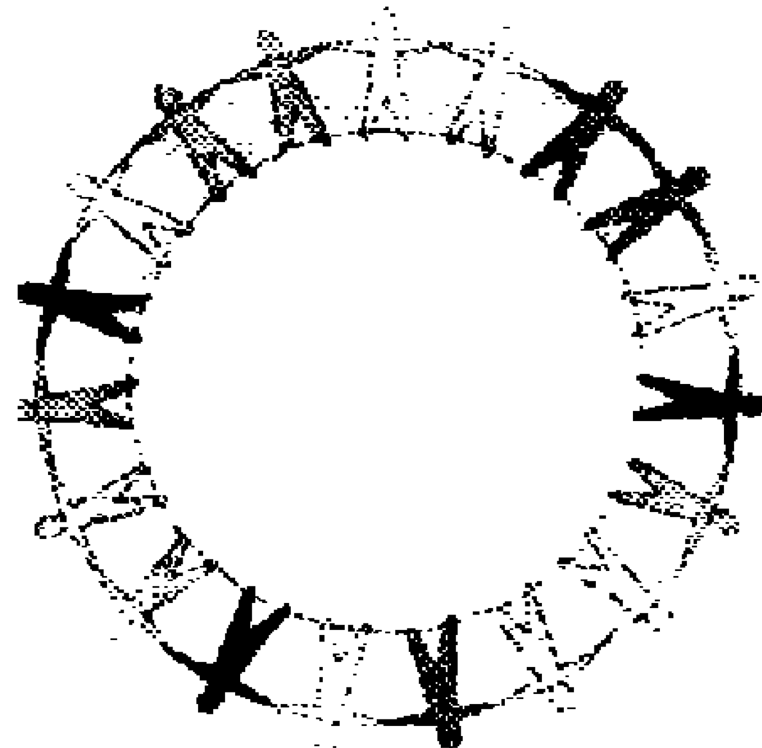
ها هي ذي أفكار مطروحة بين يديك، قابلة للحوار، ولابد أن تثير الشهية لوجهات نظر مختلفة، فسيظل الحوار جاريًا ما جرت الأحداث في الحياة، ولكن دعنا نأمل أن نرى انسانًا أسعد ومن ثم مجتمعات أسعد من خلال **«قبول الآخر»**، حتى نهتف بالشعار الذي اتخذته عنوانًا لكتابتي في «الأهرام»: **«غدًا أكثر إشراقًا»**.

مارينا – العلمين

على الساحل الشمالي الغربي لمصر

أكتوبر ١٩٩٧

د. ميلاد حنا



الجـزء الأول

ثقافـة قبــول الآخـر

الفصـــل الأول

المشاعر الإنسانية الجماعية.. تحرك التاريخ

- علم النفس يفحص المشاعر الإنسانية للفرد
- علم الاجتماع يفحص المشاعر الإنسانية للجماعات البشرية
- للشعوب والجماعات مشاعر وخواص تتميز بها تعرف الآن بعبارة «الخصوصية الثقافية»
- الإنجليزى «بارد» والفرنسى «رومانسى» والألمانى «منضبط»
- مجال «الاجتهاد» لتفسير مسببات حركة التاريخ سيظل مفتوحًا للفكر الإنسانى
- المشاعر الإنسانية تتراكم وتتغير للفرد مع تطور انتماءاته
- الانتماء إلى القبيلة أقوى من الانتماء إلى الوطن فى بعض دول إفريقيا
- الصراع بين الانتماء الدينى والانتماء الوطنى يتغير بعد الاستقلال
- المشاعر الإنسانية الجماعية -إذا نمت بعد قهر- تتفجر فى شكل ثورة شعبية وقد تتطور لتتحول إلى حرب أهلية

المشاعر الإنسانية الجماعية.... تحرك التاريخ

«الإنسان كتلة من المشاعر الإنسانية، بعضها موجود بالفطرة والآخر مكتسب ومصقول بالخبرة والمعرفة والثقافة، ويحمل الإنسان مشاعر متناقضة: حب وكراهية، أثرة وأنانية، عطاء وأخذ، أى أنه يحمل قيمًا أو أخلاقيات أصطلح على تسميتها «الخير» فى مواجهة المفاهيم المضادة التى نسميها «الشر»، وتتغير هذه المشاعر للشخص الواحد حتى فى اليوم الواحد، ففى ساعة رضا وصفاء يكون الإنسان ضاحكًا ومبتسمًا متفائلاً، ولأسباب قد تكون معلومة للإنسان، وفى أحيان كثيرة لأسباب مجهولة، يتغير «المزاج» وينقلب التوجه العام بما فيه المشاعر والأحاسيس»

وستظل هذه المشاعر وكيفية تغييرها أو تطويرها أو ترقيتها موضع دراسات مختلفة لعلماء النفس والاجتماع معًا، ولكن الفارق الرئيسى هو أن علم النفس يركز على فحص مشاعر الفرد ويحلل شخصيته وسلوكه، بينما يهتم علم الاجتماع بدراسة الظواهر ذاتها ولكن بالنسبة للجماعات البشرية المتباينة.

ومن الأقوال المتواترة تجئ عبارات مبهمة ولكنها شائعة كأن يقال: إن الشعب الإنجليزى هادئ الأعصاب يتصرف بعقل بارد وتفكير علمي، أما الفرنسى فهو عاطفي رومانسي يتذوق ألوان الحياة باستمتاع ولذا فهو يحب العطر والفن والأكلات الشهية المتقنة الطهى، أما الألمانى فهو صارم متجهم، يعمل كالآلة التى يبتكرها، ويلتزم بالقواعد والسلوكيات، وحتى بالمواصفات التى يشكلها هو أو مجتمعه فى كل عصر وطور بما فيها احترام إشارات المرور بطريقة مترمتة **إلى أن يتفق على تعديلها بعد دراسة متأنية، وغير ذلك من مقولات فضفاضة تتردد**

لتعبر عن عموميات المشاعر الجماعية وخواص الشعوب، ولكن كل ذلك لا يخفي الفروق والتباين بين انسان وإنسان وهو أمر سوف نناقشه تفصيلاً فيما بعد.

وفي مصر يجري الحديث مرسلا عن أن المصري صبور يتحمل المعاناة، ولا يحتج إلا إذا فرغ الصبر، وإذا حصل ذلك صار كالجمل الهائج يتحرك في غضب غير محكوم، ثم يمزح البعض فيقولون إن الدمياطي شاطر في التجارة وتجميع المال، وإن الصعيدي متمسك بالقديم ولذا فهو غير مرن ويأخذ وقتًا حتى يستوعب الجديد، وإن أهالي النوبة أمناء طيبون ولكنهم ذوو «زربونة» أي أنهم يتصرفون بغضب إذا مُست كرامتهم أو شعروا بالإهانة، وإن أهالي محافظة الشرقية يتسمون بالكرم الممزوج بالسذاجة... وغير ذلك من مقولات شائعة ومعروفة.

وهذه العبارات والصفات العامة -أيًا ما كان الرأي فيها- **لم تنشأ من فراغ،** بل لها جذورها وهي نتيجة خبرات وملاحظات طويلة، ولا تتعارض مع خصوصية المشاعر الفردية أي التكوين النفسي والعقلي لكل منا، وإلا صرنا قوالب جامدة مثل التماثيل المصنوعة من الجبس المصبوب، **فالتنوع هو أساس الإبداع والتقدم،** والتغيير يتم أحيانًا بالصدام وبالصراع بين المتعددين، وذلك هو أحد محركات الحياة على مستوى الفرد والجماعات.

ويظل السؤال: **ما الأسباب والعوامل التي تشكل المشاعر الإنسانية الجماعية،** أي المشاعر العامة المتكررة في جماعة أو أمة أو شعب؟ وهو سؤال «عويص»، وفي حاجة لتعليل؛ فقد يعود بعضها لعوامل جغرافية أي بيئية، **فالطبيعة والمناخ** أي المكان أو الجغرافيا في مجملها تؤثر على التركيبة النفسية للجماعات الإنسانية فسكان الوديان والحضارات الزراعية أميل إلى الهدوء النفسي والتعاون بين الأهل والجيران والاطمئنان للآخر، بينما الصحراء وامتدادها اللانهائي يدفعان لانطلاق الخيال والخوف من الغريب القادم من بعيد، **ولذا فلابد أن يرفع الغريب يده واضحة بالسلام** حتى يطمئن صاحب المكان إلى أنه ليس

عدواً ولا يحمل سلاحاً، ولأن سكان الغابات معرضون لمخاطر الافتراس من الحيوانات والزواحف التى قد تنقض عليهم فى لحظة غير متوقعة، ولأن الرعد والأمطار ظواهر متكررة تحدث دون انقطاع أو دون إنذار، فيترتب على ذلك حالة دائمة من الترقب وعدم الاستقرار، أى القلق المستمر لأهل هذه المناطق، **لذلك فالحياة رخيصة والموت موجود عند أى منعطف** وفي أى لحظة، ولا يفرِّق بين كبير السن أو يافعه، أما سكان المناطق الثلجية، فإنهم يجتمعون في أماكن محصنة طلباً للدفء ولمقاومة الطبيعة القاسية لأشهر طويلة، لذلك فالتماسك الأسرى للعائلة الصغيرة والتعاون الأكيد فيما بينها هما الضمان لاستمرار الحياة.

ومن الطبيعى أن تختلف المشاعر الإنسانية كذلك **باختلاف الزمان**، فما كان قائماً وسائداً منذ قرون وفي العصور الوسطى يختلف كثيراً عما هو عليه الآن، ففي كل عصر تتولد أحاسيس جماعية نتيجة عوامل مشتركة، يشعر بها عدد كبير ممن يعيشون فى المكان ذاته وفى حقبة زمنية بعينها وهو ما يشار إليه أحياناً التركيبة الثقافية للأجيال وهكذا.. تكون المحصلة النهائية وهى وجود اتفاق عام للمشاعر المرتبطة بالقيم والمفاهيم والتى تتغير بتغير كل من الزمان والمكان(*)، **ولذلك فرؤيتى هى أن المشاعر الإنسانية الجماعية هى أحد العوامل الرئيسية فى تحريك التاريخ**، فقد يدفع الجوع شعباً أو جماعة لغزو جماعة أخرى لديها خير وفير، وقد تنشأ حروب لأن المشاعر الجماعية للمنتمين لدين أو مذهب تتصاعد وتنمو حاملة الكراهية والبغض، فيشنون حرباً أو هجوماً خاطفاً أو قد يستمر لقرون وفق ما لديهم من إمكانات، **فيكون المحرك الأول هو الكراهية الجماعية للآخر.**

وقد يهب شعب أو تنتفض جماعة لنجدة جماعة أخرى، لما تتصوره ظلماً أو قهراً لمن هم أقرب إليهم فى المشاعر الإنسانية، بسبب تقارب ثقافى أو عرقى أو

[*] وفق هذه النظرة كتبت مؤلفى عن الهوية «المصرية» بعنوان «الأعمدة السبعة» للشخصية المصرية لأول مرة -الطبعة الأولى عام ١٩٨٩ والخامسة ١٩٩٨.

وطني، وما الثورات وحركات التحرر الوطني إلا تجسيد لمشاعر إنسانية جماعية **تلتف حول قائد فرد أو قيادة ممثلة فى حزب يصوغ هذه المشاعر الجماعية فيما نسميه أيديولوچية،** فتكون الحرب الأهلية أو الهبَّة الشعبية، وكلتاهما محرك للتاريخ إلى الأمام أو إلى الخلف.

* * *

وفي هذا الإطار فقد كان المحرك الرئيسى حتى العصور الوسطى هو الخلافات الدينية أو المذهبية داخل كل دين فى المراحل الأولى ثم بين الأديان فى مراحل تالية ولذلك تفاصيل كثيرة مدونة فى تاريخ الألفية الأولى ومعظم الألفية الثانية ثم ظهر مع انتصار التفكير العلمى فى مجال العلوم الإنسانية نظرية أن صراع الطبقات هو المحرك الرئيسى للتاريخ، وقدم كارل ماركس رؤيته التى بدأت مع إعلانه «المانفستو» أو «البيان الشيوعى» عام ١٨٤٨، واستكمل ذلك بما طرحه حول «المادية التاريخية» والمادية الجدلية، وهو أمر سيرد الحديث عنه كثيراً عبر فصول هذا الكتاب وعقب انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١ ظهرت نظريات أخرى كثيرة معظمها فى أمريكا، ربما كان أهمها هو كتاب **فرانسيس فوكوياما**[*] الأمريكى –من أصل يابانى– والذى يرى أنه لا توجد نظريات تحكم مسار التاريخ فالانتصار قد تم من خلال نجاح النظام الديمقراطى الليبرالى فكرياً والرأسمالى اقتصادياً على النظام السوفييتى الشمولى، كما قدم د.صموئيل هانتنجتون كتابه الشهير بعنوان «صراع أو صدام الحضارات»، اعادة صنع النظام العالمى[**] وغيرهما من محاولات نظرية مختلفة تحاول تفسير حركة التاريخ، وهى فى مجملها جهد بشرى إنسانى سيظل يتجدد من مفكرين وكتاب كثيرين فى العالم **لأن الإنسان بالفطرة يود أن يلج المجهول ليتنبأ**

[*] فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر– ترجمة د.حسين أحمد أمين
الناشر: مركز الاهرام للترجمة والنشر –الطبعة الأولى عام ١٩٩٣

[**] صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى
ترجمة طلعت الشايب –الناشر سطور عام ١٩٩٨

بالمستقبل، خصوصًا أن الدول لها مصالح وترغب فى أن ترسم سياستها بناءً على رؤية يُستشف منها ما سوف يجرى وفق منطق تقبله الثقافة والمفاهيم السائدة.

وإذا كنا نزعم أن المشاعر الإنسانية للجماعات البشرية قد تتجمع وتلتف لتكون أحد محركات التاريخ أو الفاعل الرئيسى فيه أحيانًا، فإننا لابد أن نتساءل عن العوامل التى تولد هذه المشاعر الجماعية والتى أتصورها مجسدة فى موضوع «الانتماءات».

المشاعر الجماعية تتراكم مع الانتماءات

الإنسان -وأحيانًا بعض أنواع الحيوان- كائن مجتمعى أى يكره أن يعيش بمفرده، ولذا فإن العقوبة فى السجون تكون بمعزل للانسان فى محبس انفرادى «فالمرء بإخوانه» ويشعر بالإنسان بالدفء بمجرد معيشته بين جماعة من البشر، وقد عبر جدودنا عن ذلك فى المقولة التى مازلنا نرددها كثيرًا: **«جنة من غير ناس ما تنداس»،** فالطفل فور ولادته يشعر بالحنان فى صدر أمه ولذا تكون **الام أول مخلوق ينتمى إليه،** وعندما يتعلم النطق تكون كلمة «ماما» ثم «بابا» ويتلوها التعرف على إخوته الذين يلعبون به وحوله، **ويصبح الانتماء إلى الأسرة الصغيرة هو أقوى الانتماءات** ويظل المرء متمسكًا به منذ لحظة الميلاد إلى الممات؛ حتى وإن حدثت خلافات داخل الأسرة بين الحين والآخر فإننا نقول: **«لن يتحول الدم إلى ميـاه»** كناية عن أن **صلة الدم، أى الأسرة** أقوى من أى شئ أخر دون منازع.

ويكبر الطفل فيتعرف على الأسرة الأكبر ويتفهم **«أننى وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب»** أى أن للانتماء داخل الأسرة مراتب ودرجات، ووفق تراث الدول الصحراوية البدوية -وحتى الآن- يمتد الانتماء فيكون إلى **القبيلة،** وقد تستنفر المشاعر الجماعية فى ظروف معينة، فيقع صدام بين قبيلة وأخرى

بسبب الكلأ؟ أو النفوذ فيتحول الانتماء القبلى إلى صراع دموى مسلح، ومازلنا فى مصر -وفى دول أخرى كثيرة- نشكو من **جرائم الثأر بين العائلات** فى الصعيد، وفى الدول التى لها جذور صحراوية بسبب الالتفاف حول الانتماء القبلى قد يتحول مع التخلف إلى تعصب، وتستثار العصبيات لأسباب تافهة أحيانًا ولكن للأسف **فإن الصراع القبلى فى إفريقيا السوداء قد صار مأساة إنسانية وتسبب فى حروب أهلية وسيكون أحد أسباب تخلفها عن ركب التقدم العالمى.**

ثم يذهب الطفل إلى المدرسة ويرتبط بانتماء جديد هم تلاميذ الفصل أو طلاب المدرسة، وتحدث ألفة بين الصبيان أو البنات، ولكنه انتماء مؤقت، فغالبًا ما يتآكل مع الزمن خلال العبور لسنوات النضج ثم بسبب التغيرات وفق ظروف الحياة المختلفة، وينتقل الصبى أو الفتاة إلى المدرسة الثانوية فتتكون انتماءات مؤقتة أو دائمة، ولكن الانتماء الذى قد يستمر لسنوات وأحيانًا للعمر كله هو الزمالة فى مرحلة التعليم العالى والجامعة وربما تتطور لتكون زمالة فى المهنة أو انتماء إلى نقابة مهنية مثلما هو حادث فى مصر بالنسبة للنقابات المهنية فى الطب أو الهندسة أو المحاماة أو غيرها.

الانتماء الدينى من أقوى الانتماءات

خلال سنوات التكوين الأولى ينمو لدى الطفل الإحساس بالانتماء الدينى، وهى قضية ثقافية حساسة تتوقف فاعليتها على الزمان والمكان، أى على المستوى الاجتماعى والوعى الفكرى فى المجتمع الصغير أو الكبير، وغالبًا ما تتشكل فى البيت خصوصًا إذا كان الوالدان متدينين، فيحرصان على تلقين الطفل فروض العبادة من صلاة وصوم وغيرها، ثم تلقينه تدريجيًا نصوص دينية يحفظها عن ظهر قلب وغالبًا دون فهم أو تأمل، فيتبلور وجدانه الدينى وفق مداركه ومراحل نموه وظروف نشأته، وينتج عن ذلك قناعات ومفاهيم تجاه الحياة والناس.

وفى مصر -على سبيل المثال- نلاحظ أن الانتماء الدينى من أقوى الانتماءات أى المكونات الرئيسية فى **«بنية المشاعر الجماعية»** من منطلق المفهوم السائد، وهو أن **الدين مرتبط بكل أمور الحياة الدنيا وكذلك الحياة الأخرى**، ومن هنا فالمؤسسات الدينية هيئات فاعلة ومؤثرة فى المجتمع، وتعمل هذه المؤسسات بالتالى على نشر وتعميق الانتماء الدينى، وذلك بخلاف دول الحضارة الغربية التى حسمت هذه القضية مع انتشار قيم عصر النهضة وتم فى وقت مبكر فصل الدين عن الدولة، أى **جعل الدين لديهم قضية شخصية وليست جماعية**، ولذا فإنه من غير اللائق الاستفسار عن ديانة جار أو صديق أو زميل فى العمل، ويوجد فى المجتمعات الأوروبية متدينون ينتمون لكل دين أو مذهب ويمارسون شعائرهم الدينية في حرية وهدوء وكل على طريقه وشأنه، ولا يتم تدريس مادة الدين فى المدارس التى تنفق عليها الدولة، أى أن الأديان موجودة ولكنها مثل الجزر المعزولة، وفاعليتها المجتمعية محدودة ولذا فإن المشاعر الدينية الجماعية لا تؤدى إلى ثورات أو حروب، ومن خلال هذه القيم المستقرة فى الغرب -وعلى مقدمتها العلمانية العقلانية وأن الدين مسألة شخصية- تُشكِّل شخصية المواطن وتعمِّق فكرة المواطنة، ومن ذات الفهم لا يسجل دين المواطن فى أى وثيقة رسمية مثل البطاقة الشخصية أو جواز السفر أو عند التقدم لعمل وما أشبه، ضمناً للمساواة فى التعامل دون قهر لجماعة بشرية وإمعانًا فى تحاشى الصدام بسبب الخلافات الدينية أو المذهبية، وكلما زاد رقى الدولة -أى دولة- كان الإحساس بمشاعر جماعية بسبب الدين أمرًا غير مؤثر فى الاستقرار بل ربما كان إحدى ركائزه.

ولأن الدين -أى دين- يعطى الإحساس بالطمأنينة والراحة الداخلية، ويلبى الاحتياجات الروحية والوجدانية للفرد، **لذلك فهو مطلوب ويزداد الاحتياج إليه بدرجات متفاوتة**، وله ارتباط بباقى الانتماءات، فقد يكون الدين مرتبطًا بالانتماء القبلى ويفيده بل ويقويه، **وقد يكون مرتبطًا بالانتماء الوطنى بل قد يكون بديلاً**

عنه، ذلك أن الدين يعطى صاحبه -بجوار الامتلاء الروحى- الإحساس بالتميز والتفاخر، أى أنه أفضل من «الآخر».

وفى منطقتنا العربية كانت بداية المد الدينى على نطاق واسع مع وجود اسرائيل عام ١٩٤٨، حيث يكرراليهود مقولة أنهم وحدهم **«شعب الله المختار»** وترسخت فى وجدان كل يهودى هذه العبارة، كأنها هى «الأسمنت» الرابط لكل حبيبات الرمل من البشر المنتمين إلى اليهودية فى أركان الأرض الأربعة، حتى وإن كان الفرد غير متدين أصلاً، **وما الصهيونية إلا حركة جمعت هذه المشاعر الإنسانية لدى أفراد تشتتوا وعاشوا لقرون فى دول مختلفة،** تسود فيها لغات وأديان أخرى؛ ولكنهم استمروا متواصلين لكى يحققوا حلم إنشاء «دولة إسرائيل»، وبعدها تحول الانتماء الدينى ليكون انتماء «وطنيًا»، وأمكن أن يصبح «إسرائيل» حقيقة واقعة على الرغم مما هو معروف من أن اليهود -بشكل عام- ليسوا فى مجموعهم- شعبًا متدينًا، **ولكن الانتماء الدينى قد حولهم من أفراد متناثرين لقرون طويلة إلى شعب من خلال تماسك وقوة «المشاعر الجماعية» التى التفوا حولها،** فشجع هذا النموذج مجموعات أخرى للتشبه بهم ليحولوا الانتماء الدينى إلى «أمة» أو «قومية» أو «دولة» أو «خلافة». كما خلق هذا النموذج بما انطوى عليه من تناقض، حيث يرتكز حكم إسرائيل المبنى على النمط الغربى العقلانى الديمقراطى- نقول خلق هذا النموذج وسيظل -مولدا لتداعيات وصراعات فى المنطقة لن تهدأ فى المدى المنظور حتى بعد المرحلة النهائية للسلام.

وسيجد أتباع أى دين أو مذهب عبارات أو مفاهيم تأخذ عادة شكل نصوص مقدسة، تؤكد التمايز والإحساس بالزهو لكل الأنصار والأتباع المنتمين إلى هذا الدين أو المذهب، وعندما تتراكم وتتزايد هذه المشاعر الإنسانية الجماعية، تتحول إلى تعصب أى كراهية، وقد تتطور المشاعر الجماعية لتأخذ مسارًا عنيفًا وصولاً إلى الحرب، إذا ما سمحت الظروف والتوازنات القائمة محليًا وعالميًا.

قليلون هم الذين ينفتحون على الأديان أو المذاهب الأخرى بالدراسة أو التفهم، فمن منا يختار ديانته؟ وفى أى مرحلة عمرية يفكر الانسان في التعرف على اديان أو مذاهب أخرى فمسيرة الحياة فى سن التكوين تنطبع بالتلقين والمسلمات لا بالفحص والتمحيص، ويتكون الإحساس بالتمايز «والأنا» وينمو الانتماء الدينى مع الوقت منذ الصغر، وغالبًا ما يكون مقرونًا بالتعالى على «الآخر» وربما يصل إلى الكراهية وصولاً إلى العنف وأحيانًا القتل...!

إن الانتماء الدينى مبنى على مسلمات تؤخذ كما هى، وهو الأمر الذى يطلق عليه المذهب الكاثوليكي عبارة الدوجما "Dogma" أى عقيدة أو مبدأ أو إيمان بحقائق يقينية تؤخذ «كما هى» ولا تناقش عقليًا أو منطقيًا.

وإن قضية «قبول الآخر» -وهى الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب- سوف تتعرض بين الحين والآخر لتفاصيل الانتماء الدينى، لأن قبول الآخر فى مجال الدين أصعب منه فى مجال قبول الآخر بين الأسر المتجاورة أو القبائل المتناحرة، بل وحتى بين القوميات والسلالات المختلفة التى يجمعها وطن واحد ذلك إن الصراعات غير الدينية قد تذوب مع الرقى وثورة المعلومات والاتصالات وارتفاع المستوى الثقافى.

وتكون نقطة البداية غالبًا هى **لقاء الآخر ثم الحوار معه ويتحول الحوار إلى فهم قبل أن تتحول المشاعرالإنسانية إلى «قبول»**، وقد يمتد الأمر فتتحول المشاعر إلى وفاق وتعاون **لاكتشاف الأرضية المشتركة لانتماءات أرقى**، مثل حقوق الإنسان والديمقراطية والبيئة وحب الفن والرياضة وما أشبه، لكن الصراع الدينى، وبعض الصراعات العرقية تحتاج إلى مدى طويل وجهود شاقة.

دعنا نمر سريعًا بعد ذلك على انتماءات أخرى قد تكون أقل أهمية ولكنها تؤدى إلى دفء اجتماعى، مثل الانتماء إلى الجمعيات الأهلية أو الأحزاب السياسية أو النقابات المهنية أو العمالية وما إليها، فهى فى مجملها تُرَقِّى شخصية الإنسان وترفع من مستوى المشاعر الإنسانية الجماعية، **ولكنها لا تُرَقِّى**

لأن تحرك التاريخ مثل الانتماء القبلي، وربما يكون الانتماء إلى الوطن هو أعلى وأرقى وأهم الانتماءات، فخلال القرنين ١٩، ٢٠ صار هو الوقود لحركات التحرر والدافع لمعظم الثورات الوطنية التى خاضت معارك شرسة أو لينة من أجل الاستقلال.

أيهما أسبق الانتماء الوطنى أم الانتماء الدينى؟

فى الدول والأوطان التى تضم أكثر من دين وعرق ومذهب يكون هناك تنافس وصراع داخلي لدى الفرد أو الجماعة بين الانتماء الدينى والانتماء الوطنى، وهناك أمثلة مختلفة لأوضاع متباينة: ففى مصر توجد ديانتان هما الإسلام والمسيحية، وقد استطاعت الثورة الوطنية التى تفجرت وقادها حزب الوفد المصرى عام ١٩١٩ -**أن تقدم الانتماء الوطنى على الانتماء الدينى،** وذلك بفضل الوعى التاريخي للقيادات الوطنية ممثلة فى رموزها سعد زغلول ومصطفى النحاس مع مكرم عبيد وويصا واصف وأقرانهم، وتمثل ذلك فى رفع شعار **«الدين لله والوطن للجميع»،** وقد اعترض الأصوليون على هذا الشعار فى السنوات الأخيرة لأن الانتماء الدينى -من وجهة نظرهم- يسبق الانتماء الوطنى.

وفى حالة لبنان، حيث يوجد ١٧ طائفة دينية أو عرقية معترفا بها فى كيان دولة واحدة، كان التماسك بفضل قيادة الحركة الوطنية العربية من أجل الاستقلال عن فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن مع ظهور ما صار يعرف بـ «الصحوة الدينية»، **تفوق الانتماء الدينى على الانتماء الوطنى،** فوقعت المأساة وحل التمزق والانهيار من خلال حرب أهلية امتدت لنحو ١٧ عامًا (١٩٧٥ - ١٩٩٢)، كادت تعصف بالوحدة الوطنية للبنان وتقسمها إلى «كانتونات»، وعندما أعلن عن ذلك فى أواخر الثمانينيات أدرك الوطنيون أن فى تجزئة هذا الوطن الصغير (فى المساحة وفى عدد السكان) إضعافًا للجميع، فعاد لبنان يحاول أن يكون وطنًا موحدًا بعد خراب شديد.

وفى كل من العراق وتركيا، يعانى الشعب الكردى من الظلم بسبب الخلاف فى السلالة واللغة على الرغم من وحدة الدين، وتراكمت المشاعر الإنسانية الجماعية حتى فرضت نفسها فى شكل حروب محلية على الحدود، مرة داخل تركيا وأخرى مع العراق، ولكن الصراع مستمر ودون طائل، وليس له من حل إلا «قبول الآخر»، من خلال الحوار وليس من خلال السلاح والقهر، وقد قامت تركيا فى منتصف عام ١٩١٧ بحرب نظامية سافرة داخل العراق بحجة القضاء على الحركة الكردية ثم كان المخطط المخابراتى لخطف عبدالله أوجلان رمز الاكراد وصدر الحكم باعدامه، ولكن الصراع لن ينتهى لأن الرغبة الجماعية للأكراد لم تتحقق.

وتعانى السودان من مجموعة متداخلة من التناقضات العرقية والدينية والمذهبية والجغرافية، وها هو السودان يعانى من حرب أهلية ضروس، أنهكته بسبب غياب ثقافة «قبول الآخر»، ولا سبيل لإيقاف الدم والانهيار الاقتصادى إلا بقبول دولة مدنية علمانية موحدة يستظل بمظلتها كل الفرقاء، ولأن لى صلات تاريخية بالسودان فقد نتعرض لتفاصيل ذلك فى مواقع أخرى[*].

وإذا كانت الأمثلة السابقة معبرة عن صراعات مفهومة بسبب عدم قبول الآخر لاختلاف الدين أو المذهب أو السلالة، فإن هناك حالة أخرى أكثر فجاجة هى الحرب الأهلية الجزائرية، إذ إن شعبها كله ينتمى إلى الإسلام، وخلال حرب الاستقلال تطابق الانتماء الوطنى مع الانتماء الدينى، ولذلك كان العلم الجزائرى لحركة التحرير (وهو ذاته علم الدولة بعد الاستقلال) متضمناً هلالا ونجمة على أرضية نصفها أبيض (رمز السلام) والنصف الآخر أخضر (رمز الإسلام

[*] قام دجون جارنج قائد جيش التحرير السودانى ورئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان بزيارة إلى مصر خلال نوفمبر ١٩٩٧، حيث أكد إصراره على وحدة السودان، ووجه رسالة واضحة لمثقفى مصر انه ليس ضد الإسلام أو ضد العروبة، فغالبية شعب السودان الذى يناضل من أجل وحدته مسلمون يعتزون بالانتماء العربى، كتاباته كلها من أجل تكوين سودان جديد سيتحسن مع انصهار القبائل والسلالات فى دولة قومية عصرية يسميها «السودان الجديد» أى بعد الانصهار الوطنى يتفوق على السلالات والاديان والقبائل وهى عملية طويلة تحتاج إلى وقت لتغيير الوعى.

والنماء)، أما الصراع الحالى فإنه يأخذ منحى ثقافياً آخر بين جماعات: منها من ترى أن مصلحة الجزائر فى الاستقلال الوطنى ومنها من ترى أن «الاستقلال هو الإسلام»، أى أن فريق يرى استقلال الجزائر، وفريق آخر يرى الاستقلال بالجزائر، فلا غيره يحكم ولو ملأت الدماء الأرض، وآخر يدرك معطيات العصر، ويرى أن العودة إلى الدولة الدينية انتكاسة «وضد التاريخ» وأن مصلحة الجزائر هى فى الانفتاح على العالم كله، بما فيه فرنسا لما لها من علاقات تاريخية ثقافية واقتصادية قديمة ومستمرة، ويتضمن الفريق الأخير كثرة من المنتمين إلى «البربر» بزعامة حسين آية أحمد ذى التوجه العلمانى والاشتراكى معاً.

ومن كل هذه النماذج يتضح أن الجماعات البشرية المختلفة لها طموحات وأمان وتوجهات جماعية، فإذا تحققت فى يسر أو بصعوبات معقولة، فخير وبركة، ولكن تبين أيضاً أن أمور الحياة والتاريخ يسيران وفق اعتبارات أخرى مطروحة، منها وأولها المصالح الاقتصادية ثم توازن القوى العسكرية، والارتباطات فى الجيرة والثقافة وغير ذلك من أمور. وإذا كُبتت مشاعر وطموحات أية جماعة بشرية لها كيان وتنظيم، فقد تُقهر بعض الوقت ولكنها -بوصفها مشاعر تتراكم- تظل مكبوتة كالبخار المحبوس، إلى أن تولد قياداتها الطبيعية التى تجمع هذه الطاقات المكبوتة وتفجرها، إما فى شكل «هوجة» عشوائية غيرمنضبطة ولكنها مؤثرة حتى وإن كانت «فرقعة»، وإما أن يُخطط لها، فتولد ثورة مؤثرة تغير التاريخ كما حدث مع جماعة الضباط الأحرار فى يوليو عام ١٩٥٢، أو تستمر فى شكل حرب أهلية تطول و تقصر إلى أن تتغير التوازنات المجتمعية فيتم ترتيب الأوضاع من جديد بما يتلاءم مع المتاح.

* * *

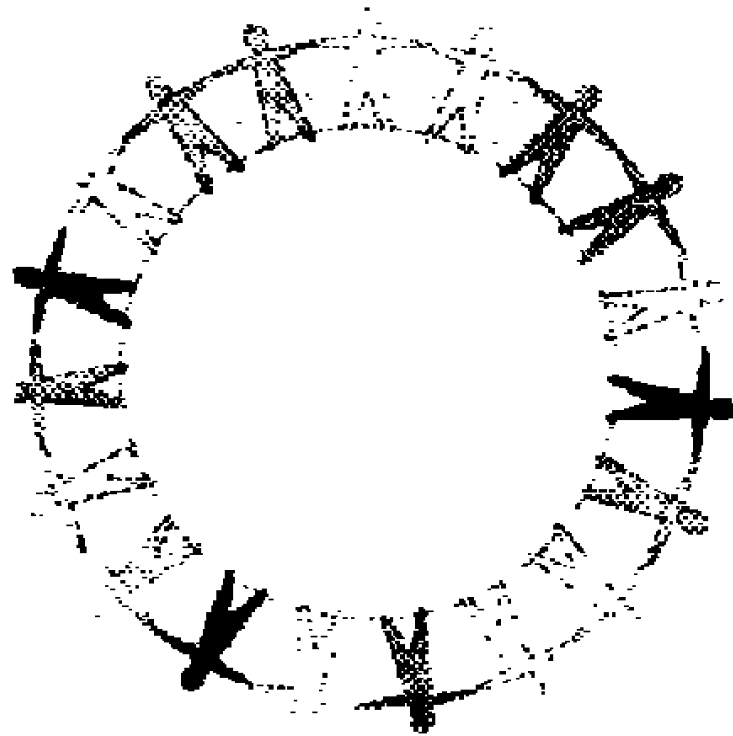
وفى فصل قادم سنتعرض لنظرية كارل ماركس ونظرية هانتنجتون، الأولى كانت تبشر بأن صراع الطبقات هو محرك التاريخ، وفى الحقيقة برأيى أن الظلم

والقهر اللذين يتجمعان لدى الطبقة العاملة هما العامل الذى صار محركًا للتاريخ عندما أمكن تجميع المشاعر الإنسانية لغالبية من هذه الطبقة، وهذا هو سر قوتها وإنجازاتها، الأمر نفسه ينطبق على نظرية «صراع الحضارات» لأنها تقول إن الثقافة واللغة والدين -وهى مكونات الحضارة- ستؤدى إلى صدام، مما يعنى أنه أمكن أن تتبلور مشاعر إنسانية جماعية أحست بالقهر ورفض الآخر، ومن ثم اندفعت إلى الصراع وستندفع للصدام.

وقبل أن ننتقل إلى الفصل الثانى أحب أن أشير إلى أن الفروق لدىَّ واضحة تمامًا بين حركات التحرر الوطنى وحركات الإرهاب والتطرف الدموى، ومن ثم فلا يمكن أن يكون حديثى عن قبول الآخر دعوة إلى قبول الغاصب.

إننى ابن وطن قاوم فيه المسلمون والمسيحيون جنبًا إلى جنب، الاحتلال الانجليزى، حتى حصلوا على استقلالهم مبكرًا عام ١٩٢٢ وإن كان قد بدأ منقوصًا واكتمل عبر حلقات من النضال تُوِّجت بتوقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤، أيضًا أنا ابن مجتمع عربى قدم أبناؤه فى فلسطين صورة باهرة للكفاح الوطنى المشترك.

كما أود أن أؤكد أن طرحى للمشاعر الإنسانية وإمكانية حل الصراعات بتعزيز قبول الآخر مسألة لها طابع إنسانى بحت، وآمل أن يتحول على أرض الواقع إلى تنظيمات أهلية تنمى المودة والتآخى بين الناس.



الفصــــل الثانى

من صراع الطبقات .. إلى صدام الحضارات

- ■ كارل ماركس –فى منتصف القرن الماضى– كان أول من قدم نظرية متماسكة تفسر حركة التاريخ.
- ■ الماركسية تتحول من نظرية فلسفية إلى حركة عمالية وأحزاب سياسية فى أوروبا أولاً
- ■ لينين يضيف إلى النظرية ويحول الفكر إلى واقع عام ١٩١٧
- ■ عبارة: «حتمية انتصار الاشتراكية» كانت تعبيراً عن عدم اليقين..!
- ■ أهم الاجتهادات النظرية الحديثة جاءت مع بوادر تفكك الاتحاد السوفييتى
- ■ هانتنجتون الأمريكى يتفوق على باقى المنظرين فى بحثه: «صدام الحضارات» عام ١٩٩٣، وقد حوله فى كتاب صدر عام ١٩٩٦ وترجم إلى العربية عام ١٩٩٨
- ■ الدراسة بتكليف وتمويل من الإدارة الأمريكية، وتتحول إلى سياسة واقعية تمارس بالفعل
- ■ حركة التاريخ القادمة صراع بين سبع حضارات رئيسية
- ■ من أهم وأخطر العبارات: «إن الإسلام حدوداً دموية»
- ■ الصراع بين الحضارات سيحل محل الصراع الأيديولوجى
- ■ فى طريقنا إلى التناقض الرئيسى بين الغرب وبين ما عداه The West & The Res

من صراع الطبقات.. إلى صدام الحضارات

"إن أحد محركات الحياة -من خلال علم ومعرفة الإنسان- هو محاولة اكتشاف المجهول بهدف امتلاك القدرة للتنبؤ بالمستقبل، وهذا التوجه يشغل بال المفكرين والجماعات البشرية والشعوب والدول والحضارات وصولاً إلى كل المعنيين بمستقبل البشرية، ولعل أهم وآخر المحاولات لاكتشاف المجهول هو التعرف على التوازن البيئى أى التنبؤ بمستقبل الحياة ذاتها فى كافة أرجاء الكرة الأرضية ذاتها، وهذه المحاولات لمعرفة المجهول كثيرة ومتعددة"

وربما كانت البداية بالنسبة لمسيرة محاولة الإنسان كشف المجهول هى من خلال القصص والأساطير، إلى أن تبلورت فى التنبؤات الدينية والتى كثيراً ما تقدم النصوص بالرموز والعبارات العامة لتحث على فعل الخير، أما فى العصور الحديثة، فقد سيطر الفكر العلمي بمناهجه المختلفة، وحاول مفكرون ومبدعون كثيرون تقديم نظريات تعطى تفسيراً لحركة التاريخ بما فيها مستقبله السياسى، لعل أهمها وأكثرها شيوعاً هى النظرية التى طرحها كارل ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر تحت مسمى "المادية التاريخية" Historical Materialism، ثم حديثًا: البحث ثم الكتاب الذى سجله د.صموئيل هانتنجتون بعنوان «صدام الحضارات» Clash of Civilizations، ولأهميتهما رغبت فى أن أطرح ملخصاً لهما في هذا الفصل، لأن كلا من النظريتين تعمل من خلال مبدأ: «رفض الآخر»، ثم ننتقل فى فصول تالية إلى خبرات تاريخية وفكرية تقدم نماذج «قبول الآخر» من خلال تلقيح ثقافي كما فى حالة «لاهوت التحرير»، وقد نتطرق فى

السياق العام لنموذج الصراع والمعايشة لما قدمه العالم والأديب الإنجليزى بيرسى سنو Percy Snow من وجود «ثقافتين» هما ثقافة أهل الأدب والعلوم الإنسانية من جانب، وثقافة أهل العلوم الفيزيائية أى الطبيعية من جانب آخر.

مقتطفات من الفكر والتاريخ الماركسى

تتلخص نظرية كارل ماركس فى أن التاريخ يتقدم إلى الأمام فى مراحل متتالية من خلال الصراع بين فئة اجتماعية واخرى ويسمى كلا منهما طبقة، واحدة تملك وسائل الإنتاج ثم الطبقة المقابلة: المحرومة منها، درس ماركس الماضى، وتوصل إلى أن المجتمع البشرى قد انتقل من الشيوعية البدائية (المشاعية)، حيث كانت وسائل الإنتاج فى الغابة متاحة للجميع، وتدريجيًا عرف الإنسان الزراعة وتملك الأرض، فظهر الصراع بين فئة ملاك الأرض الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، وهى الأرض الزراعية، وبين المحرومين من الملكية، وعندما توسعت الملكيات ظهر «الإقطاع» فكان الصراع بينه وبين طبقة الأجراء العاملين فى مزارعه الذين أصبحوا بمثابة العبيد، وكانت الارض تُباع وتُشترى أو يتم الاستيلاء عليها بالحروب المحلية، فتنتقل ملكيتها من يد إلى أخرى أو من إقطاعى إلى وريثه بكل ما تحمل الأرض من معدات وبشر -أقنان- لأنهم فى مجموعهم يكونون «وسائل الإنتاج».

ثم تطور المجتمع تدريجيًا من خلال صراع جديد بين طبقة ملاك الأرض الإقطاعيين مع طبقة التجار ثم طبقة رجال الصناعة الناهضة والتى أسماها بـ «البرجوازية» والتى تدعم نفوذها من خلال حركة التجارة العالمية، ونتيجة هذا «التفاعل» الحضارى ومن خلال الثورة الصناعية برزت فئة جديدة أسماها «الرأسمالية»، لقد تغيرت وسائل الإنتاج من الأرض الزراعية إلى ملكية الآلة، وتم إنشاء المصانع فى أوروبا فكان حتمًا أن يتغير شكل المجتمع وصارت القيادة فيه لهذه الطبقة الجديدة من الرأسماليين، وفى المقابل كان التناقض والصراع بين فئة ملاك المصانع والآلات -وقد صارت وسيلة الإنتاج الجديدة- وبين طبقة

العمال، وقد أسماها بـ«البروليتاريا»، وهكذا أصبح الصراع، في مرحلة جديدة بين الرأسماليين والطبقة العاملة، وكان ذلك في الحقبة التي عايشها ماركس بنفسه في أوروبا في القرن التاسع عشر.

إن المفكر والمبدع والمنظِّر يتأمل الظواهر الاجتماعية حوله ثم يستنبط القوانين المنظمة لحركة المجتمع، ولذلك -وفي ضوء هذا التحليل المبني على المشاهدات- تنبأ كارل ماركس بأن الصراع سوف يشتد لأن الطبقة العاملة سوف تبني تنظيماتها في شكل أحزاب ونقابات، تتبنى مطالب العمال ليحصلوا على نسبة عائد أكبر نتيجة عملهم ثم يطمحون لتغيير المجتمع ثوريًا، وهكذا تنبأ بأن الصراع -في نهاية الأمر- سوف يحسم لصالحهم، وقد تبلور ذلك كله في وثيقة مهمة أسماها بـ«البيان الشيوعي» الذي أُعلن عام ١٨٤٨ والذي اختتمه بعبارات مشهورة هي:

«إن الشيوعيين يؤيدون في كل قطر من الأقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم، وفي كل هذه الحركات يضعون في المقدمة مسألة الملكية باعتبار أنها المسألة الأساسية في الحركة، مهما كانت الدرجة التي بلغتها هذه المسألة في تطورها».

«وأخيرًا يعمل الشيوعيون على الاتحاد والتفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع الأقطار، ويترفع الشيوعيون عن إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بدك كل النظام الاجتماعي القائم بعنف، فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية، فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها وأغلالها، وتربح من ورائها عالمًا بأسره».

«يا عمال العالم اتحدوا...!»

* * *

ولد ماركس في مايو عام ١٨١٨ من أب يعمل بالمحاماة في مدينة ترير الألمانيـة، وتوفي في ١٨٨٣/٣/١٤، وبعد موته بسنوات تولى المذهب ذاته

فلاديمير إيلتيشن المعروف بـ«لينين» والذى قال: «إن مذهب ماركس كلِّى الجبروت، لأنه صحيح»، وهى عبارة ذات مسحة عقائدية غير منطقية، ووصل الأمرإلى أن قالت د.ستيبانوفا يفغنيا المتخصصة فى تاريخ الماركسية: «إن أعظم مأثرة تاريخية لكارل ماركس تقوم على أنه وضع علمًا عن القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر الإنسانى، وهذا العلم هو المادية الديالكتيكية والتاريخية، وبهذا فقد بيَّن الطريق ليس إلى معرفة العالم فحسب، بل وإلى تحويله تحويلاً ثوريًا أيضًا، لقد برهن ماركس بصورة علمية وحتمية على هلاك الرأسمالية وانتصار المجتمع الشيوعى، وبهذه الطريقة أصبحت الاشتراكية علمًا بعد أن كانت حلمًا عقيمًا عن المستقبل الأفضل للإنسانية»[*].

ولندع جانبًا هذا التحيز الشديد لماركس من باحثة شيوعية، ولنعد إلى القول بأن ماركس بعد أن وضع البيان الشيوعى هو ورفيقه إنجلز دخل فى معارك فكرية وفلسفية عديدة، توجها بإصدار كتابه الشهير «رأس المال» الذى حلل فيه طبيعة العلاقة بين صاحب المال وادوات الانتاج من جانب وبين صاحب قوة العمل أى «العامل» من جانب آخر، وانتهى إلى أن الرأسمالى يسرق جهدًا من العامل، ووقتًا لا يدفع عنه أجرًا، وتمكن من أن يصك مصطلح «فائض القيمة» الذى منه يراكم الرأسماليون أرباحهم.

ثم جاء لينين فاستلهم أفكار ماركس وأضاف إليها الكثير ولكن الأهم من ذلك أنه قاد نضالاً عمليًا أثبت فيه **أنه يمكن أن تقوم الاشتراكية فى بلد واحد أولاً** وهى روسيا، باعتبارها **أضعف حلقات** لسلسلة الرأسمالية على الرغم من أنها ليست أكثرها تطورًا، انتصرت الثورة وبالفعل بالفريق الذى قاده «البلاشفة» وهم حزب لينين ورفاقه، والكلمة معناها «الأغلبية»، وارتفعت الرايات الحمراء عام ١٩١٧، فى روسيا القيصرية ثم تلا ذلك أن احتشدت الرأسماليات الغربية لمحاولة ضرب الدولة الجديدة لكنها فشلت، حاول لينين فى سعيه الثورى أن

[*] من مقدمة كتاب: «كارل ماركس –موجز قصة حياته– دار التقدم موسكو عام ١٩٨٥.

يستوعب التناقضات المذهبية والعرقية والدينية التى ورثتها الدولة الجديدة من الإمبراطورية القيصرية، **وفى عام ١٩٢٢ تكون أول تجمع سياسى فى التاريخ قام على أساس المساواة** النظرية على الورق بين البشر من جميع الوجوه دون تفرقة بسبب العرق أو الدين.

وحمل هذا التجمع بين الدول اسم **اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية،** ومع قيامه بزغ الأمل فى أن تمتد التجربة إلى دول العالم كافة لينتهى الأمر بقيام الاشتراكية (ثم الشيوعية) العالمية واندحار الرأسمالية وقيام عالم جديد...!

إننى أود هنا أن أقدم فقرتين مهمتين، الأولى هى من دستور الاتحاد السوفييتي، وهى تبين حجم الطموحات التى كان النظام يبشر بها إذ تنص المادة ٣٤ من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية (المعدل عام ١٩٧٧) على أن «**مواطنى الاتحاد السوفييتي متساوون أمام القانون بصرف النظر عن المنشأ والوضع الاجتماعى والمادى والانتماء العرقى والقومى والجنس والتعليم واللغة والموقف من الدين ونوع العمل وطابعه ومكان الإقامة** وغير ذلك من الاعتبارات....».

أما الفقرة الثانية، فهى جزء من تعريف «الماركسية اللينينية» كما جاء فى معجم الشيوعية العلمية الصادر عن دار التقدم بموسكو [طبعة صدرت باللغة العربية عام ١٩٨٥] وتقول إنها «نظام معلل علمياً من نظريات فلسفية واقتصادية واجتماعية وسياسية، مذهب عن معرفة العالم وتحويله، عن قوانين تطور المجتمع والطبيعة والتفكير البشرى، **عن سبل الإطاحة الثورية بنظام الاستغلال، وعن سبل بناء الشيوعية، عقيدة الطبقة العاملة وطليعتها الأحزاب الشيوعية والعمالية...».**

ما قصدت أن أصل إليه أن الماركسية قد عبأت أولاً -ثم الماركسية اللينينية فيما بعد- **المشاعر والوجدان الإنسانى،** فكانت الحركة التى تحولت إلى ثورة ظلت تنمو تاريخيًا كما هو معروف خلال القرن العشرين، بغير أن يتوقف

مؤسسو المذهب الماركسي (معروف أن ماركس قال: **أنا لست ماركسيًا** ليمنع بذلك تحول فكره إلى عقيدة جامدة أى دوجما) ليراجعوا نقديًا «أصل» النظرية فى ضوء معطيات الواقع الجديد.

صراع الطبقات اذن هو محرك التاريخ كما سبق الشرح، ثم جُعلت النظرية شاملة ومستقبلية فكان التنبؤ بأن الصراع سيتطور بعد أن يصل إلى المجتمع اللاطبقى ليكون الصراع بين الإنسان والطبيعة لحساب الإنسانية جمعاء، كما تم التنبؤ بأن مرحلة **«ديكتاتورية البروليتاريا»** لن تطول لأن **«الدولة سوف تذبل»** شيئًا فشيئًا إلى أن يتم حكم الإنسان لنفسه ديمقراطيًا، فى شكل جماعات تعاونية للفلاحين فى مزرعة أو نقابة عمال فى مصنع وهو ما عبروا عنه **بكلمة «السوڤييت» أى «مندوبى الشعب»** إن بداية الحلم قد تحققت بالفعل –من وجهة نظر الشيوعية– وطرح الحالمون أن الإنسان سيحيا فى الاتحاد السوڤييتى أحلى أيامه فى مجتمع تعمه المساواة ودون استغلال وأن **الوفرة ستفيض حتى يأخذ كل انسان ليس كحسب جهده –وفق المفهوم الاشتراكى Socialism –وإنما وفق احتياجاته بالمفهوم الشيوعى Communism المستقبلى.**

ظلت الماركسية تنتشر انتشار النار فى الهشيم، فلم تعد فكرة وهمية «طوباوية أفلاطونية»، بل صارت واقعًا يسود مسطحًا وصل إلى سُدس مسطح الكرة الأرضية، إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية، فتجمعت قوى الحلفاء فى الغرب بزعامة أمريكا التى فرضت نفسها على العالم كقوة صاعدة جديدة، لها فلسفتها وطريقتها فى تسخير مواردها الطبيعية البكر برجال أشداء هاجروا من بلادهم طمعًا فى المعيشة فى «بلاد تفيض لبنا وعسلاً»، ومن ورائها بريطانيا، وقت أن كانت عظمى ولا تغيب الشمس عن ممتلكاتها، ثم فرنسا ممثلة للتراث الليبرالى للثورة الفرنسية من الإخاء والمساواة والحرية، **وعاش العالم مرحلة الثنائية القطبية** بين كتلتين حضاريتين الأولى شرقًا ممثلة فى الاتحاد السوڤييتى بأيديولوچيته الاشتراكية، والثانية غربًا ممثلة فى أمريكا وأوروبا الغربية بعد أن بلورت لنفسها أيديولوچية براجماتية، معبرة عن آليات السوق وديمقراطية

برلمانية ممزوجة بتدخل الدولة لتوفير الحد الأدنى للمعيشة والدخل بالتأمينات الاجتماعية وشبكات الضمان المختلفة.

وعلى الرغم من **الانتصار العسكرى للسوفييت عام ١٩٤٥**، فإنهم خرجوا بـ **«حطام دولة»** بعد أن **فقدوا ملايين البشر الذين قتلوا**، كما فقدوا مدنًا ومصانع دمرت بالكامل، كان خرابًا هائلاً من الناحية المادية، يقابله تعويض وإنتصار معنوى هائل فقد تم كسر الحصار الذى كان يطوقهم، وبالتالى خرجت الماركسية من «القمقم» الذى كان مفروضًا حولها، وتفجرت رغبات الشعوب الفقيرة والمقهورة التى تجمعت من خلال المشاعر الإنسانية الجماعية مطالبة بحقها فى الاستقلال عن سيطرة الدول الكبرى فى أوروبا الغربية، **ووجدت حركات التحرر الوطنى فى الاتحاد السوفييتى حليفًا هائلاً** لها، وطوال حقبة الخمسينيات والستينيات كان هذا التعاون أو الحلف يتسع يومًا بعد يوم، وتصور أصحابه -ودعوا، وادعوا- **أن الغلبة ستكون لهم فى النهاية**، وأن الحضارة الغربية بما تحمل من قوة عسكرية جبارة من خلال حلف الأطلنطى «الناتو» NATO سوف تُهزم إزاء هذا الزخم المتدفق الذى جمع المستضعفين فى أربعة أركان الأرض، وقد صار وراءهم دولة نووية قوية، استطاعت أن تغزو الفضاء لأول مرة فى تاريخ البشرية عام ١٩٥٩.

وجاء الانتشار والانحياز للفكرة الاشتراكية سريعًا فتكونت أنظمة فى مجموعة **دول أوروبا الشرقية طبقت النظام الاشتراكى بالطريقة السوفييتية ذاتها**، ثم اهتز العالم مع انتصار التنين الأصفر (الصين) عام ١٩٤٩ من خلال الحزب الشيوعى الذى فجر هذه المرة **ثورة الفلاحين**، وجندهم فى حرب أهلية ضروس قادها الجيش الأحمر بزعامة قيادة فكرية تاريخية ممثلة فى **ماوتسى تونج الفيلسوف** ومعه تشو ابن لاى الذى تمتد جذوره إلى أسرة إقطاعية، فقد استطاعا أن **يجمعا المشاعر الإنسانية الجماعية المتدفقة فى تحالف كل قوى الشعب الصينى، ولكن الطبقة القائدة كانت الفلاحين وليس البروليتاريا**، وتوقع

المفكرون أن مقولة **«حتمية انتصار الاشتراكية»** ليست مسألة حماسية ورومانسية ولكنها ستفرض نفسها لالتفاف المشاعر الجماعية الشعبية **على مستوى العالم حول هذه الأيديولوجية الجديدة**، والتى صارت وكأنها عقيدة أو دين، وبدا الأمر فى أواخر الستينيات وكأن النظرية الماركسية سوف تتحقق بكاملها أى تتحول من فكر إلى واقع يسود الكرة الأرضية!

الماركسية تهتز وتختفى فى دول بينما تستمر مع حضارات أخرى

من الظواهر الجديرة بالتأمل ما حدث خلال حقبة التسعينيات، حيث تأكد تفكك النظام الاشتراكى، فقد اهتزت الماركسية حتى كادت تختفى فى الاتحاد السوڤييتى سابقًا وبعدها تداعت ذات الظواهر بالتوالى فى النظم الاشتراكية التى أخذت ذات النمط فى أوروبا الشرقية، **بينما استمر النظام الشيوعى الماركسى فى الصين** بل تطور وزادت قدرته على التنمية عبر رحلة شاقة وعسيرة امتدت لنحو نصف قرن إلى أن وصل معدل النمو إلى ١٢٪ سنويًا، مما فرض على العالم الغربى أن «يبتلع» أو يغض الطرف عن التوجه الأيديولوچى للصين وعما أسماه الغرب مخالفات خطيرة أو تجاوزات فجة لمواثيق حقوق الإنسان، ويتوقع المراقبون أن تحتل الصين بهذه التركيبة الثقافية والسياسية الخاصة مرتبة متقدمة بأن تصير أحد كتل العالم المؤثرة فى القرن الحالى.

واستلفت نظر المراقبين والمحللين أيضًا قدرة الرئيس الكوبى -فيديل كاسترو- على البقاء سنوات وأحقاب طويلة وتجاوز أزماته الداخلية على الرغم من معاداة الولايات المتحدة الأمريكية له، لأن كوبا تقع على بعد كيلو مترات قليلة من ولاية فلوريدا فى جنوب شرق أمريكا ذاتها واستطاع أن يقنع بابا روما بزيارته ومن ثم استمرار نظامه مع تطويرات وإصلاحات متدرجة.

ومن هنا، فإن التساؤل يطرح نفسه، وهو أنه لو أن العيب فى النظرية الاشتراكية ذاتها (أى الماركسية كما سجلها ماركس أو الماركسية -اللينينية كما تبلورت فى ضوء الإضافات النظرية والعملية التى استكملها لينين)، **فإن المنطق**

يفترض أنه كان من الحتمى أن تسقط النظم ذاتها (المستندة على النظرية ذاتها) **فى كل من الصين فى أقصى الشرق، ثم فى كوبا والتى تقع فى حضن الولايات المتحدة الأمريكية** والتى كانت طوال الحرب الباردة من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٩١ الخصم اللدود للنظرية الشيوعية، واستطاعت بالفعل أن تمارس كل الضغوط الاقتصادية والعسكرية والإعلامية، التي أدت إلى هذا الزلزال الذى بدأ بسقوط حائط برلين وما أعقبه من مسلسل أشرنا إليه مراراً فى هذا الكتاب.

العيب إذن ليس فى النظرية ذاتها -وإنما فى التطبيق الذى تمت صياغته فكراً وعملاً فى الاتحاد السوفييتى أو مجموعة الدول التى كانت تدور فى فلكه المسماة دول شرقى أوروبا، وهنا تجدر الملاحظة أن هذه الكتلة التى تفككت أو سقط فيها النظام الاشتراكى -فى مجموعها- تنتمى إلى الحضارة المسماة بـ «المسيحية الأرثوذكسية» حيث كانت القيادة التاريخية فى هذه المنطقة للكنيسة الروسية الأرثوذكسية المرتبطة بالقيصر أو الإمبراطور القابع فى بطرسبرج (والتى سميت لينينجراد فى العصر الشيوعى)، وكانت مرتبطة أو مسيطرة على الكنائس «الأرثوذكسية الاصغر عدداً ونفوذاً فى بلغاريا ورومانيا بالذات».

والمقاومة هى أن **الكنيسة فى بولندا كانت كاثوليكية،** ولذلك بدأت «حركة التضامن» بين عمال بولندا بقيادة الزعيم ليخ فاونسا، رئيس نقابة عمال التضامن ثم انتخب رئيساً للدولة فى بولندا، ففى وقت مبكر -ربما عام ١٩٨٥- قام هذا الزعيم العمالى بمظاهرات وإضرابات فى موانئ بولندا ضد النظام الشيوعى، **وبتحريض وتمويل من الفاتيكان** -كما هو معروف- مما يعنى أن النظرية الماركسية- على الرغم من وحدة النصوص- وبالذات تلك التى صاغها كارل ماركس، قد تمت صياغتها فى التطبيق والممارسة وفق الخلفية الحضارية لكل بلد.

والتغيير فى روسيا القيصرية كان بالثورة الشعبية عام ١٩١٧، ثم كان من خلال الغزو أثناء اجتياح الجيش الأحمر لبلدان أوروبا الشرقية خلال السنوات الأخيرة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد تم فرض الأحزاب الشيوعية

الضعيفة فى تلك الدول على الشعوب نتيجة الهزيمة العسكرية **وليس نتيجة إرادة الشعوب،** وهذا أمر متفق عليه تاريخيًا، ثم كان التغيير الهائل فى الصين من خلال رحلة الجيش الأحمر الصينى والذى كان مكونًا من الفلاحين أساسًا والذى قاد الصراع العسكرى لسنوات طويلة، ولم تتم سيطرة هذا الجيش والثورة على مجمل أراضى الصين ولم تسقط بكين العاصمة إلا عام ١٩٤٩ بعد مسيرة الجيش الأحمر للفلاحين لسنوات طويلة جدًا وهو الأمر الذى ابتكر عبارة أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

وعليه فإن النظرية الماركسية الأوروبية التى تشكلت فى منتصف القرن التاسع عشر، قد تم تطويرها لتأخذ شكلاً آخر من خلال امتزاجها بالحضارة الروسية القيصرية الأرثوذكسية، ونتج عن ذلك «الماركسية - اللينينية»، والتى تغيرت مرة أخرى مع رحيل المنظِّر والقائد الثورى **«لينين»**، وعندما جاء بعده **ستالين**، صار هو الحاكم المطلق بالمفاهيم ذاتها التى سادت خلال حكم قيصر روسيا، وعاش داخل القصور ذاتها فى الكرملين، وتم قهر الكنيسة الروسية القديمة التى كانت أداة النظام القيصرى فى الحكم، فاستبدل بها نظام الدولة الجديدة **التى غيرت الديانة من «الأرثوذكسية» إلى «الماركسية»**، فلا عجب أن تحولت نصوص «الماركسية - اللينينية» لتكون كأنها هى الديانة أو العقيدة الجديدة، وغدا لها رجال كهنوت هم المنظِّرون الجدد للماركسية اللينينية، وأصبح رجال الحزب مع تتالى السنين وكأنهم رجال العقيدة الجديدة ولهم امتيازات وأوضاع خاصة.

ومن عجب أن **عبارة «الأرثوذكسية» تعنى لغويًا التمسك بالرأى أو الفكر أو العقيدة الأصولية أى القديمة**، ومن ثم كانت الممارسات الجامدة فى الحزب الشيوعى البلشفى السوفييتى وأحزاب دول أوروبا الشرقية التى كانت تدين بـ«الأرثوذكسية»، **ولكن الأمر اختلف فى بولندا لوجود المذهب الكاثوليكى الذى كان مطعّما بالفكر الليبرالى فى أوروبا الغربية** بعد أن تجاوز -الجمود الذى

ساد العصور الوسطى من خلال حركة الإصلاح الديني وانتشار نفوذ وقوة حركة الاحتجاج المسماة بـ «البروتستانتية».

ولذلك عندما اهتز النظام الشيوعى فى بولندا، ثم قامت أمريكا بمخططها اهتز الاتحاد السوفييتى وتفكك ثم تبعته فى هذا الأمر النظم التى كانت تدور فى فلكه فى أوروبا الشرقية الأرثوذكسية.

ولكن ندلل على وجهة نظرنا المسماه التلقيح الثقافى -والتى سنتناولها بالتفصيل فى الفصل السابع- من أن أى نظرية فكرية عامة (بما فيها المستوحاة من النصوص الدينية) **تتشكل بشكل مختلف عندما تغزو أى بلد أو قطر لأنها -تدريجيًا ومع الوقت- تتأثر بما هو سائد فى هذا القطر من ديانات أو مفاهيم وثقافات أو حضارات سابقة على الحضارة الوافدة الجديدة،** ونذكر هنا المثال البارز -مرة أخرى- بما حدث فى الصين عندما انتصرت الشيوعية بها عام ١٩٤٩، فسرعان ما دب الخلاف **بين روسيا السوفييتية الشيوعية** (والتى لها أصل وجذور حضارية مسيحية أرثوذكسية)، **وبين الصين الشعبية الشيوعية التى قاد فيها الثورة جيش فلاحين** بقيادة المفكرين الصينيين المتأثرين **بالفكر والديانة الكنفوشية:** ماوتسى تونج وتشوا إين لاى وغيرهما الذين نظّروا فكريا وهم متأثرون بالثقافة والتاريخ الصينى، وكان نتيجة هذا الخلاف أن اعتمدت الصين على ذاتها اقتصاديًا وفكريًا، **فكان أن تم حصارها من كل من أمريكا الرأسمالية وروسيا الشيوعية،** فخاضت تجربة حصار مريرة إلى أن **صارت قوة اقتصادية عالمية فى منتصف التسعينيات،** كما خاضت معارك فكرية ضارية داخل الحزب الشيوعى الصينى ذاته فيما عرف بعبارة **«الثورة الثقافية»** وكانت ذروته فى الصراع ضد «عصابة الأربعة»، وها نحن أولاً نرى الصين وقد تمسكت بالنظرية الماركسية مع تطويرها وفق جذور الحضارة الكنفوشية القديمة، ولقد سمعنا فى الخمسينيات عبارة ماوتسى تونج الشهيرة **«دع كل الزهور تتفتح» وهى مقولة صينية قديمة، وتُمهد لفكرة قبول الأفكار الأخرى وتختلف تمامًا عن نظرية «ديكتاتورية البروليتاريا» النابعة من الممارسات الروسية.**

ومنذ أواخر الثمانينيات طرح الحزب الشيوعى الصينى فكرة **«شعب واحد، ونظامان اقتصاديان»** والتى تعنى أن **الانتماء إلى الوطن أسبق على الانتماء للأيديولوچيات** وهى تختلف عن فكرة الكومنترن والتى روجت لفكرة وحدة مصالح الطبقة العاملة لكل شعوب الأرض أى أن الانتماء إلى الطبقة (العاملة) أسبق على الانتماء إلى الوطن.

فتم جذب أصحاب رءوس الأموال من أصل صينى والمقيمين فى الهند وجنوب إفريقيا ومختلف بلدان العالم بما فيها أمريكا، وتمكنت الصين من خلال **هذه المرونة التى اكتسبتها من جذورها الثقافية الصينية، أن** تعبر السنوات العجاف للصراع مع كل من الاتحاد السوڤييتى الشيوعى وأمريكا الرأسمالية، إلى أن أمكن أخيراً تنامى العلاقات على أسس من الندية بين الصين وأمريكا، وتوقيع اتفاق بين بوريس يلتسين رئيس روسيا الاتحادية وبين رئيس الصين الشيوعية، وقد غير كل منهما ملبسه من البدلة الزرقاء الشيوعية التي كان يرتديها كل من ستالين، وماوتسى تونج، وصارا متقبلين للبدلة والقميص ورباط العنق التى تنتمى إلى الحضارة الغربية على الرغم من أن كلا منهما يحمل أيديولوچية مختلفة، **ولكنها «المرونة الجديدة».**

وحدث الشئ ذاته فى كوبا، ذلك أن كاسترو كان متأثراً بالثقافة السابقة للماركسية، لذلك جاء التطبيق مختلفاً، وأنتج هذا **اللقاح الثقافى** نموذج **الزعيم جيفارا** الذى أصبح أسطورة للنقاء الثورى حتى فى أمريكا وأوروبا، فلا عجب فى أن المناخ الثقافى ذاته فى أمريكا اللاتينية، هو الذى أفرز أيديولوچية **«لاهوت التحرير»** عندما تزاوجت الماركسية القادمة من أوروبا الغربية (وربما الاتحاد السوڤييتى) مع المذهب الكاثوليكى (والذى كان له موقف عنيد عضاد ومقاوم للفكر الماركسى) ولكن فى وجود **العامل المساعد** Catalyst، (هو حركة التحرر الوطنى التى سادت العالم فى حقبة الخمسينيات والستينيات)، ظهرت هذه الأيديولوچية الجديدة المسماة بـ«لاهوت التحرير» ولأهمية هذا الأمر خصصنا له فصلاً قادماً مستقلاً.

إن ما رغبت فى أن أوضحه، هو أن الماركسية قد تغيرت كثيرًا مع انتشارها وتأثرت فى كل قطر (أو وطن أو منطقة) بالتراث الحضارى السائد والسابق لأنه مؤثر فى سيكولوچية الشعب الذى قام بالثورة أو أيدها حتى حققت النصر، ولذا تولدت ظاهرة أن شكل التطبيق قد اختلف بالفعل من شعب إلى آخر ولذا حدث ما حدث فى الاتحاد السوڤييتى وأوروبا الشرقية، بخلاف الازدهار والاستمرار والمعايشة للفكر ذاته فى الصين وكوبا، مما يؤكد أن **«المشاعر الجماعية» التى تتبلور فى موقع معين هى نتيجة تفاعل عناصر كثيرة، بما فيها الحضارات السائدة والسابقة**، وهى الفكرة المحورية التى طرحناها فى الفصل الأول.

ومن ثم كانت أهمية أن نناقش النظرية الجديدة التى اجتاحت العالم المسماة **«نظرية صدام الحضارات»** لصاحبها صموئيل هانتنجتون والتى كتبها فى مقال أكاديمى عام ١٩٩٣ ثم فى كتاب كامل عام ١٩٩٦. وهو ما خصصنا له الفقرة التالية فى إطار هذا الفصل الثانى لنربط بين «صراع الطبقات» الذى قدمه ماركس فى منتصف القرن ١٩ إلى «صدام الحضارات» فى منتصف التسعينيات من القرن العشرين.

من صراع الطبقات إلى صدام الحضارات

عاش الكثيرون منا على إيمان **«بالحتمية»** سواء كانوا اشتراكيين أو من الاتجاهات الدينية، غير أن ما تم خلال فترة الثمانينيات وصولاً لتفكك الاتحاد السوڤييتى قد هز هذه المقولة **وأكد بأنه لا حتمية فى التاريخ، لأن التاريخ من صناعة الإنسان، والإنسان بشر يتحرك وفق مشاعر وانفعالات، وليس آلة تتحرك وفق قوانين وقواعد فيزيائية أو ميكانيكية** وضع تصميماتها مجموعة من المشاعر الانسانية حسبت وحسمت مسبقًا.

عندما حدث خلاف بين الثورة الاشتراكية فى الصين ونظيرتها الثورية الاشتراكية الأم فى موسكو، ثم -فى حقبة متقاربة معاصرة فى حقبة

الخمسينيات أيضًا مع الثورة الاشتراكية الشعبية في يوغوسلافيا بزعامة جوزيف تيتو -كانت التحليلات عقيمة وانتهت -فى معظمها- إلى أن الخلافات اسبابها **«شخصية»** بين **ستالين** من جانب وبين كل من ماوتسى تونج وتيتو من جانب آخر، ولكن أحدًا لم يلتفت إلى أن القضية قد يكون لها **بعد ثقافى وحضارى ومجتمعى**، وظل الأمر كامنا إلى صيف عام ١٩٩٣ عندما فجر صموئيل هانتنجتون أستاذ «التنظير» فى مجال العلوم السياسية بجامعة هارفارد الأمريكية حيث نشر دراسة أعدها بتكليف من معهد أولن للدراسات الإستراتيجية عن **«التغيير فى مناخ الأمن والمصالح القومية الأمريكية»** بعنوان: «صدام الحضارات» The Clash of Civilization، وتحدث عن أنه سيكون نمط الصراع القادم، وأحدثت الدراسة هزة حين ذكر أن محرك التاريخ فى الحقبة القادمة سيكون محكومًا بقضية محورها هو صراع الحضارات.

أيًا ما كان الأمر، دعنا ننتقل الآن إلى نظرية «صدام الحضارات» فنبدى ملاحظات أساسية وشكلية لها دلالتها، **فقد جاء فى تقديم هذا البحث أنه نتيجة مشروع قد عهد به إلى معهد أولن للدراسات الإستراتيجية وهو معهد يتبع جامعة هارفارد الأمريكية** حيث يعمل صموئيل هانتنجتون أستاذًا لأساليب علوم الحكم Science of Govrnment.

ولابد لى قبل أن أسترسل فى عرض الخطوط العامة العريضة للبحث ذاته من أن أقدم للقارئ العربى، أساليب تمويل وإدارة بعض الجامعات الأمريكية وبخاصة العريقة منها مثل جامعة هارفارد التى تعتبر المهد الأول فى أمريكا للدراسات فى العلوم الإنسانية: إذ كان بعض الأثرياء قد وهبوا جانبًا من أموالهم (بالملايين) تخصص إيراداتها للصرف على الجامعة، مثلما كان لدينا نظام الوقف الذى وضع قواعده وطبقه العصر العثمانى فى تركيا أولا ثم فى أنحاء الخلافة العثمانية كافة فيما بعد، وهذه الأموال الموقوفة يعين لها مجلس أمناء يدير الأموال ويصرف من ريعها على الجوانب التى حددها الواقف فى

وصيته، وفى حالتنا -جامعة هارفارد- كانت الإيرادات تصرف على ما يدعم الفكر الإنسانى فى جميع ألوان المعرفة.

وعندما تنشأ الحاجة إلى بحوث ودراسات، يتم تكوين قسم متخصص يرأسه أستاذ كرسى، وعادة ما يكون القسم ومبانيه بأسماء من تبرعوا لإنشائه، وبالفعل -وفى حالتنا- أنشئ كرسى باسم ايتون Eaton يوفر الاستعانة بأستاذ قدير يتابع الدراسة فى موضوع معين، ومن ثم فإن اللقب الرسمى لصموئيل هانتنجتون هو «أستاذ كرسى ايتون لعلوم الحكم Eaton Professor of the Science of Government وهو بهذا التخصص تابع لجامعة هارفارد.

وعندما تجدُّ الحاجة إلى دراسات متكاملة فى قضية كبيرة ينتظر أن تكون لها أهميتها فى الحياة، ينشأ لها معهد متخصص، وغالبًا ما يطلق عليه اسم من تبرع بإنشاء هذا المعهد، وتكون هذه المعاهد مستقلة أو تابعة للجامعات حسب الأحوال ونصوص الوصية للشخص الذى تبرع بالمال، ومن خلال هذه المعاهد تتم -عادة- معظم البحوث الهائلة التى نعرفها فى مجال العلوم الأساسية، مثل الطبيعة والكيمياء أو العلوم التطبيقية فى مجالات الطب والهندسة والزراعة والفضاء وغيرها.

وهكذا تكوّن معهد باسم أولن Olin تخصص فى الدراسات الإستراتيجية، وألحق بجامعة هارفارد، وقد عين هانتنجتون رئيسًا لهذا المعهد، علاوة على موقعه «أستاذ كرسى إيتن لعلوم الحكم» كما سبق الذكر.

وتعيش هذه المعاهد على تعاقدات من جهات ترغب فى عمل بحوث ودراسات هى غير قادرة عليها، وهو الأمر الشائع فى الصناعات الأمريكية كافة حيث يصادف المنتجون بعض المشكلات أو الصعوبات، فيتعاقدون مع معهد يقوم بعمل البحث، ويسمى التعاقد بين الجهة صاحبة المصلحة وبين المعهد العلمى بـ«المشروع» Project، ومن خلال هذه الآلية يتقدم كل أنواع المعرفة، وربما كان ابتكار أمريكا لهذه الآلية أحد أسباب تفوقها العلمى.

أيًا ما كان من أمر، فمن الواضح أن عنوان المشروع الذى استخلصت منه الدراسة التى نشرها هانتنجتون كان «التغيرات فى مناخ الأمن والمصالح القومية الأمريكية»:

"The Changing Security Environment and American National Interests".

ومن كل هذا يتضح أن هذا البحث الذى نشر فى مجلة فورن أفيرز عدد صيف عام ١٩٩٣ فى أشهر مجلة أمريكية لبحوث «السياسة الخارجية»، هو فى الحقيقة رؤية تقود إلى توصيات تقدم لمتخذ القرار الأمريكى فى الشئون الخارجية، ومن هنا فهو ليس بالبحث الأكاديمى المجرد أو النابع من فكرة شخصية لأستاذ متخصص، ولذا كان للورقة أهمية خاصة وأثارت بالفعل تداعيات كثيرة منذ عام ١٩٩٣ وحتى الآن. إنها وليدة لبحث ومناقشات فريق عمل ذى طابع سياسى، وهى بالتالى تختلف عن هذا الكتاب -قبول الآخر- الذى يقدم رؤية لفرد وبمبادرة شخصية.

وإذا كنت -فى هذا الفصل- قد تعرضت للنظرية الماركسية التى ترتكز على فكرة أن صراع الطبقات هو محرك التاريخ، فقد قدمتها فى إيجاز نسبى، لأن الماركسية قد مضى على نشأتها نحو قرن ونصف القرن من الزمان، وصارت أفكارها منتشرة ومعروفة، أما نظرية «صدام الحضارات» فتنطوى على أفكار جديدة لا يزيد عمرها على نحو خمس سنوات، كذلك فإن ظروف نشأة النظرية التى احتضنتها الخارجية الأمريكية قد أوجبت أن نبدأ بعرض لبعض نصوصها فى شئ من التفصيل، خصوصاً وأنه توجد إشارات كثيرة فى أدبيات السياسة فى العالم العربى والغربى نفسه تدحض وتناقش مبدأ «صراع الحضارات»، ولذا أجد من الواجب -فى مثل هذا الكتاب- أن أعود إلى نص الدراسة التى قام بها صموئيل هانتنجتون ذاتها، فى صيف عام ١٩٩٣ فى مجلة فورن أفيرز، ثم فقرات أخرى من الكتاب الذى نشره عام ١٩٩٦، وآثرت ان اعتمد على الترجمة العربية التى نشرتها دار «سطور» عام ١٩٩٨ وقام بها طلعت الشايب ثم استعين

بنقد نظرية هانتنجتون بفقرات من التقديم الذى قدمه د.صلاح قنصوه للطبعة المترجمة إلى اللغة العربية.

نصوص مختارة من نظرية «صدام الحضارات وفق بحث عام ١٩٩٣

- تقوم فرضيتى على أن المصدر الأساسى للصراع فى هذا العالم الجديد، لن يكون بالدرجة الأولى بسبب أيديولوچى أو اقتصادى، **إن الانقسام الأكبر للجنس البشرى والعامل الحاسم فى النزاعات سيكون بسبب الحضارة**، وستظل الدول القومية Nation states هى اللاعب الأقوى على مسرح الشئون الدولية، غير أن الصراعات الرئيسية فى السياسة الدولية ستنشب بين الدول وبين مجموعة دول تنتمى لحضارات مختلفة.

- وستكون حدود التوتر الفاصلة بين تلك الحضارات المختلفة هى ذاتها خطوط المعارك فى المستقبل، **إن الصراع بين الحضارات ما هو إلا الطور الأخير فى عملية تطور النزاعات فى العالم الحديث.**

- مع نهاية الحرب الباردة تخرج السياسة الدولية من تطورها إلى مرحلة جديدة، ويغدو قوامها الرئيسى من خلال التفاعل بين **«حضارة الغرب» من جانب وبين مجمل الحضارات «غير الغربية» من جانب آخر**، وكذلك التفاعل بين الحضارات غير الغربية ذاتها، وفى خضم سياسات الحضارة تلك، لم تعد شعوب وحكومات الحضارات غير الغربية موضوعًا للتاريخ بصفتها مستهدفة من قِبلَ الاستعمار الغربى، وإنما انخرطت مع الغرب كمحرك ومشكل للتاريخ.

- خلال الحرب الباردة، **كان العالم ينقسم إلى عالم أول وثانٍ وثالث**، ولكن هذه الفواصل بين العوالم الثلاثة لم تعد لها دلالة، عندما تصنف بل ومن معايير أنظمتها السياسية والاقتصادية أو درجة نموها الاقتصادى، ومن خلال ثقافاتها وحضاراتها.

ومن المختارات ما وضعه هانتنجتون تحت عنوان:

الحضـارة كيـان ثقافى

- الحضـارة هى أعلى مستوى لتجمع ثقافى بشرى وتمثل أوسع مستوى من مستويات **الهوية الثقافية** التى يمتلكها الكائن البشرى وتميزه عن الكائنات الأخرى، إن محدداتها هى **العناصر الإيجابية المشتركة مثل اللغة والدين والتاريخ والعبارات والمؤسسات.**
- الحضارات تتداخل وتتقاطع، **وقد تحتوى على حضارات فرعية**، ولكنها موجودة وحقيقية على أية حال.
- ستكون الهوية الحضارية متزايدة الأهمية فى المستقبل، سيتشكل العالم إلى حد كبير **نتيجة تفاعلات بين سبع أو ثمانى حضارات** رئيسية تشمل الحضارة **الغربية، الكنفوشية، اليابانية، الإسلامية، الهندية، السلافية، الأرثوذكسية، الأمريكية اللاتينية**، وربما الحضارة الإفريقية، أما الصراعات الأهم، والتى ستنشب فى المستقبل، فإن حدودها ستكون حدود التوتر الحضارى التى تفصل بين هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى.

تعداد البشر المنتمين إلى الحضارات الرئيسية
فى العالم عام ١٩٩٢

الصينية	١,٣٤٠	مليون	أمريكا اللاتينية	٥٠٧	مليون
الاسلامية	٩٢٧	"	الأفريقية	٣٩٢	"
الهندوسية	٩١٥	"	الأرثوذكسية	٢٦١	"
الغربية	٨٠٥	"	اليابانية	١٢٤	"

- الشعوب التى تنتمى إلى حضارات مختلفة، لها رؤى متباينة فى العديد من القضايا مثل: العلاقة بين الله والإنسان، بين الفرد والجماعة، بين المواطن والدولة، بين الآباء والأبناء، بين الزوج والزوجة، كما أن لها آراء مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق والواجبات، وبين الحرية والسلطة وبين المساواة بين الأفراد، **إن هذه الأخلاقيات هى تراث وتراكم قرون طويلة ولن تتغير بين عشية وضحاها،** إن هذه الفروق أقوى جذوراً فى نفوس البشر من تلك التى تتكون نتيجة العقائد الأيديولوچية أو الأنظمة السياسية، إن الخلاف بين الحضارات قد أفرز أطول صراعات وأشدها فى العالم.
- تحركت الأديان فى العالم فى شكل حركات سميت بـ**«الأصولية»** وهى موجودة فى المسيحية الغربية واليهودية والبوذية والهندوكية كما هى موجودة فى الإسلام، حيث يلاحظ أن معظم المنخرطين فى هذه الحركات من الشباب المتعلم جامعيًا المنتمين إلى الطبقة الوسطى ورجال الأعمال والحرفيين، ويلاحظ أن **النزعة المقاومة للعلمانية** قد صارت أحد المعالم الاجتماعية فى نهاية القرن العشرين.
- **فى الماضى كانت النخب فى المجتمعات غير الغربية هى الأشد ارتباطاً بالغرب،** إذ نالت قسطًا من التعليم فى أكسفورد أو السربون أو سانت هيرست فتشبعت بالقيم الغربية، هذا فى الوقت الذى ظل فيه **السكان والأهالى فى البلدان غير الغربية غارقين فى ثقافاتهم المحلية،** أما الآن فقد صارت هذه العلاقة معكوسة تمامًا، فهناك عملية **تفريغ للنزعة المرتبطة بالغرب بين النخب** وصارت أكثر ارتباطًا مع واقعها **وجذورها الثقافية المحلية،** فى الوقت الذى تعود فيه المفاهيم والثقافة الغربية بما فيها «الأمريكية» لتكون **أكثر انتشاراً وقبولاً لدى عامة الشعب.**

وثمة ملاحظة يجب أن نذكرها أنه على الرغم من اختلافى مع المفاهيم الرئيسية لنظرية صدام الحضارات لهانتنجتون كما سيأتى تفصيله فيما

بعد، فإن هذه الفقرة بالذات تبدو صحيحة وواضحة فى العديد من بلدان العالم العربى.

- يحدث الدين انقسامات أكثر حدة وعنفًا من الانتماء العرقى، فبوسع المرء أن يكون نصف فرنسى ونصف عربى ومن ثم يكون مواطنًا مقبولاً فى الدولتين ولكن الأكثر صعوبة أن يكون المرء نصف كاثوليكى ونصف مسلم.

عن الصراع فى منطقتنا العربية

إذا كانت العبارات المنتقاة التى ذكرناها أعلاه معبرة عن جوهر الرؤية العامة لنظرية «صراع الحضارات»، فإن هناك عبارات أخرى أكثر اتصالا بمنطقتنا العربية الإسلامية تتمثل فى الآتى:

- يعود تاريخ الصراع على خط حدود التوتر **بين الحضارات الغربية والحضارة الإسلامية إلى ١٣٠٠ سنة**، ففى أعقاب ظهور الإسلام لم تنته الاندفاعة غربًا وشمالاً إلا فى مدينة تورز عام ٧٣٢م.
- بدءًا من القرن الحادى عشر والثالث عشر حاول الصليبيون -بخطوط نجاح مؤقتة- أن يفرضوا المسيحية والحكم المسيحى على الأراضى المقدسة، وبين القرن الرابع عشر والسابع عشر نجح الأتراك العثمانيون فى جعل التوازن فى اتجاه معاكس، وبسطوا سيطرتهم على الشرق الأوسط والبلقان ثم على القسطنطينية ذاتها وضربوا حصارًا على فيينا مرتين، ومع انهيار قوة العثمانيين فى القرن التاسع عشر والعشرين، فرضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا السيطرة على معظم شمالى إفريقيا والشرق الأوسط.
- وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الغرب بدوره يتراجع، وبرزت **«القومية العربية»** ومن ثم **«الأصولية الإسلامية»** وأصبح الغرب يعتمد اعتمادًا شديدًا على الخليج الفارسى [أى الخليج العربى ومعروف أن التسمية لا تزال محل خلاف] فى الحصول على الطاقة، وتحولت الدول الإسلامية الغنية بالنفط إلى دول غنية بالمال وإلى دول مدججة بالسلاح متى شاءت.

- إن هذا التفاعل العسكرى الذى يعود تاريخه إلى قرون مضت **بين الغرب والإسلام، لن يتلاشى بل لعله سوف يشتد ليصبح أكثر اشتعالاً**، لقد أدت حرب الخليج ببعض العرب للشعور بالفخر لأن صدام حسين هاجم إسرائيل وتحدى الغرب، مما جعل الكثيرين يشعرون بالهوان، ويستنكرون الوجود العسكرى الغربى فى الخليج الفارسى وكذلك السيطرة العسكرية الغربية الساحقة وعدم قدرة العرب على صياغة مصيرهم بأنفسهم.

ومن أشرس العبارات والمفاهيم التى جاءت فى نظرية صموئيل هانتنجتون مدعمة بأقوال مفكرين آخرين فيما يتعلق بالصراع بين الغرب والإسلام (الذى يشغل همومنا فى مصر وفى المنطقة) نختار الآتى:

- إن المجابهة القادمة مع الغرب -كما يلاحظ م.ج أكبر (المؤلف الهندى المسلم)- **ستبدأ من جانب العالم الإسلامى**، إن النضال من أجل نظام عالمى جديد سيتحقق **بتحرك شامل للدول الإسلامية من المغرب إلى باكستان** [لاحظ أنه يستشهد بقول مؤلف هندى مسلم، أو كما يقولون: وشهد شاهد من أهلها].

- يتوصل برنارد لويس إلى نتيجة مشابهة فيقول: إننا نواجه مزاجًا وتحركًا سيرفعان إلى حد كبير من نبرة القضايا والسياسات والحكومات التى تنتهجها، وهذا ليس سوى صدام حضارات برد فعل عقلانى له خلفية تاريخية، لخصم قديم **لتراثنا اليهودى -المسيحى وحاضرنا العلمانى،** وانتشارهما على نطاق العالم [لاحظ أنه قد كون جبهة ثقافية تشمل التراث اليهودى والمسيحى والعلمانى على الرغم من وجود تناقضات حادة بينهم].

- على الحدود الشمالية للإسلام، يتفجر الصراع على نحو متفاقم بين الشعوب الأرثوذكسية والإسلامية، بما فى ذلك مذابح البوسنة وسراييفو والعنف الكامن بين الصرب والألبان... والمذابح المستمرة بين أرمينيا

وأذربيجان والعلاقات المتوترة بين الروس والمسلمين فى أسيا الوسطى [كتبت هذه الفقرة عام ١٩٩٣ قبل حرب الشيشان الثانية عام ١٩٩٩][*].

- إن صراع الحضارات متجدد بعنف فى أماكن مختلفة فى قارة آسيا، فالصدام التاريخي بين المسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية لا يعبر عن نفسه فقط فى علاقة التنافس والعداء بين باكستان والهند، وإنما عن صراع دينى محتدم فى الهند ذاتها.

وقد بلغت الذروة فى الجسارة أو التجاسر عند هانتنجتون حين وصل إلى هذه الفقرة الخطيرة:

- إن صدام الحضارات هذا ينطبق تحديداً على **خط حدود الكتلة الإسلامية التى تشبه الهلال** وتمتد من نتوء إفريقيا إلى آسيا الوسطى، كما أن ثمة حالة عنف ناشبة بين المسلمين من جانب، وبين الصرب والأرثوذكس فى البلقان ومع اليهود فى إسرائيل، ومع الهندوس فى الهند، والبوذيين فى بورما ومع الكاثوليك فى القلبين».. **«حقا إن للإسلام حدوداً دموية».**

من كتاب هانتنجتون: صدام الحضارات الصادر ١٩٩٦ وبالرجوع إلى الترجمة العربية المعتمدة والصادر عام ١٩٩٨ نقتبس فقرات قليلة، تؤكد وتفصل ذات المفاهيم التى طرحها المؤلف ذاته فى ورقته البحثية والصادر عام ١٩٩٣ والسابق الاشارة إلى بعض فقراتها، جاء فى ص١٦٩ من النسخة المترجمة إلى العربية العبارات الآتية:

- العودة إلى إحياء الدين ظاهرةٌ عالمية، وقد تبدت فى أوضح صورها فى التوكيد الثقافى وتحديات الغرب التى جاءت من آسيا ومن الاسلام وهى الحضارات الديناميكية فى الربع الأخير من القرن العشرين.

---

[*] العبارات بين قوسين [ ] تعليق مؤلف هذا الكتاب.

● ويتجلى التحدى الاسلامى فى الصحوة الثقافية والاجتماعية والسياسية العامة للاسلام فى العالم الاسلامى وما يصاحبه من رفض لقيم الغرب، كما يتجلى التحدى الأسيوى فى كل حضارات الشرق الاسيوية وهى الصينية -اليابانية- البوذية- الاسلامية، فكلها تؤكد على الاختلافات الثقافية بينها وبين الغرب، كل من الآسيويين والمسلمين يؤكد على تفوق ثقافته على الثقافة الغربية، تؤكد الحضارة الآسيوية على نموها الاقتصادى بينما التوكيد الاسلامى على التعبئة الاجتماعية والنمو السكانى، **وفى كثير من الأحيان يكون هناك اتفاق بين الأسيويين والمسلمين.**

أما الحضارات الأخرى: الهندوسية وامريكا اللاتينية والافريقية فإنهم ومنذ السبعينيات يترددون فى اعلان تفوقهم على الغرب.

فى ص٣٣١ تحت عنوان الاسلام والغرب، يستكمل هانتنجتون رؤيته بهذه العبارات:

● يقول بعض الغربيين بما فيهم **الرئيس كلينتون**، إن الغرب ليس بينه وبين الاسلام أى مشكلة وانما المشاكل موجودة فقط مع بعض المتطرفين الاسلاميين.

● الواقع يقول انه عبر اربعة عشر قرنا كانت عاصفة -فى معظمها- بين الاسلام من جانب وبين المسيحية الغربية أو المسيحية الأرثوذكسية من جانب آخر، **كلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر.**

● من بداية القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن كان الاكتساح العربى الاسلامى فى اتجاه الخارج، فأقام حكما إسلاميا فى شمال افريقيا وأيبيريا (أسبانيا) والشرق الأوسط وشمال الهند، اعقبها نحو قرنين كانت خطوط التقسيم بين الاسلام والمسيحية مستقرة، وفى أواخر القرن الحادى عشر، أكد المسيحيون سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط الغربى، إذ تم غزو صقلية ثم استولوا على طليطلة، وفى عام ١٠٩٥ بدأت المسيحية

الحملات الصليبية ولمدة قرن ونصف حاول الحكام المسيحيون -مع نجاح متناقض- ان يقيموا حكما مسيحيًا في الاراضي المقدسة وخسروا آخر موقع لقدم هناك عام ١٢٩١م.

● وفي نفس الوقت، كان الاتراك العثمانيون قد ظهروا على المسرح، وفي البداية اضعفوا بيزنطة ثم غزوا معظم البلقان واستولوا على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وحاصروا فيينا عام ١٥٢٩.

● وبحلول القرن الخامس عشر، بدأ المد ينقلب، المسيحيون **بالتدريج استعادوا ايبيريا مكملين المهمة حتى غرناطة عام ١٤٩٢**، ثم كان أن مكنت الإبتكارات الأوروبية -من خلال الملاحة البحرية للبرتغال- **ان تطوق الاراضي الاسلامية وشقوا طريقهم إلى المحيط الهادى** وما وراءه، وفي نفس الوقت كان الروس قد أنهوا قرنين من حكم التتار -العثمانيين- وبالتالي قاموا باندفاعة اخيرة إلى الأمام ليحاصروا فيينا مرة ثانية عام ١٦٨٣، وكان فشلهم هناك هو بداية لتراجع طويل، متضمنًا كفاح الشعوب الأرثوذكسية في البلقان لتحرير أنفسهم من الحكم العثماني، وفي ظرف قرن تقريبًا كان جلاد المسيحية قد أصبح رجل أوروبا المريض وبإنتهاء الحرب العالمية الأولى، أطلقت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، رصاصة الرحمة فأقاموا حكمهم المباشر وغير المباشر على الاراضي العثمانية الباقية فيما عدا مساحة الجمهورية التركية، وبحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك سوى اربع دول مستقلة على نحو ما عن الحكم غير الاسلامي هي: تركيا- السعودية- ايران- أفغانستان.

● بين عامي ١٧٥٧ و ١٩١٩ حدث ٩٢ حالة استيلاء على أراضٍ إسلامية من قبل حكومات غير اسلامية، وبحلول عام ١٩٩٥ كانت ٦٩ حالة من تلك المساحات قد عادت مرة أخرى تحت الحكم الاسلامي، وفي ٤٥ دولة مستقلة كانت الاغلبية الساحقة من السكان مسلمين.

● كان الصراع (بين المسيحية والاسلام) **نابعا من أوجه التشابه بينهما، كلاهما دين توحيد وكلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية: نحن وهم، كلاهما يدعى أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التى يجب ان يتبعها الجميع، كلاهما دين تبشيرى** يعتقد ان متبعيه عليهم الالتزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلى ذلك الايمان الصحيح.

● الاسلام منذ البداية انتشر بالفتح، والمسيحية كانت تفعل الشئ نفسه عند وجود فرصة، **مفهوما الجهاد والصليب متوازيان ويشبهان بعضهما الآخر.**

● هناك مجموعة من العوامل زادت من الصراع بين الاسلام والغرب فى أواخر القرن العشرين:-

١- خَلَّفَ النمو السكانى الاسلامى اعداداً كبيرة من الشبان العاطلين والساخطين الذين اصبحوا مجندين للقضايا الاسلامية ويشكلون ضغطاً على المجتمعات المجاورة ويهاجرون إلى الغرب.

٢- اعطت الصحوة الاسلامية ثقة متجددة للمسلمين فى طبيعة وقدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة مقارنة بتلك التى لدى الغرب.

٣- جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكرى والاقتصادى، والتدخل فى الصراعات فى العالم الاسلامى، كل ذلك ولد استياء شديداً بين المسلمين.

٤- سقوط الشيوعية ازال عدواً مشتركاً للغرب والاسلام وترك كلا منهما لكى يصبح الخطر المتصور على الآخر.

٥- الاحتكاك والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير فى كل من الجانبين احساساً بهويته الخاصة وكيف انها مختلفة عن هوية الآخر.

نقد لنظرية هانتنجتون

إننى أعتذر للقارئ عن الاستشهاد بفقرات كثيرة من ورقة ثم كتاب هانتنجتون عن «صراع الحضارات» لكى أغطى معظم الأفكار الرئيسية التى تحملها، وكان انطباعى -فى كل مرة أعيد قراءتها- هو أن حضارة الغرب فجة وصريحة لا توارب أو تحتشم، وأنه نتيجة للممارسات الديمقراطية لأوقات طويلة تحولت حرية الفكر والنشر لتكون نوعًا من **«الشفافية»** لدى كل من الفرد والجماعة، إن ذلك برغم كل شئ ينطوى على قيمة مهمة لأن المجتمع الصحى هو ذاك الذى يتفق فكره وشغاف قلبه أى وجدانه الداخلى، أى الذى تتفق أقواله وأفعاله، وهو ما نلاحظه بالنسبة للحضارة الغربية إلى حد كبير، ما نشر ثم ترجم لمثل هذه الدراسة الاستراتيجية «صدام الحضارات» والكتب الأخرى التى نعتبرها نحن تطاولاً على جوهر الدين وما إليها، ليس إلا تجسيدا لـ«الشفافية» وهى إحدى الركائز الأساسية الثقافية التى جعلت الغرب ينمو ويزدهر حتى تفوق علينا بالفعل، بينما تعانى مجتمعاتنا من **«الانشطار» الثقافى والنفسى والفكرى،** لأن للمجتمع موروثاته الحاكمة التى تجعل المفكر والكاتب والسياسى لا ينطق بما فى رأيه أو عقيدته ولكنه يحاول أن يلف ويدور ويغلف كلماته ويستخدم أدوات البلاغة وغيرها، حتى يرضى الرأى العام وحتى لا يحدث انفصالا أو قطيعة بينه وبين القيم السائدة فى المجتمع.

وإذا كان صموئيل هانتنجتون قد استطاع باعتباره أستاذًا متخصصًا أن يضع تصوره لرؤية مستقبلية أى لما ينتظر أن يحدث فى العالم من مواجهة وصراع، ثم يسخر كل ذلك **لمصلحة «الأمن القومى الأمريكى»** أى للمصالح الجماعية للشعب الأمريكى وبالذات مصالح النخبة المسيطرة بالطبع، ولكى تظل أمريكا فى المقدمة، فإن ذلك يدعونا لفحص هذه الآراء -وقد صارت معروفة ومكشوفة- وعلينا أن نحللها ونتفهمها ثم لنا بعد ذلك أن ننتقدها **ونقدم البديل،** فمن المؤكد أن لدينا الخبراء والمؤسسات ممن لديهم مفاهيم وفكر وثقافة يمكن

أن يستوعبوا ما يكتب فى الخارج ويسخروا ذلك لخدمة **«الأمن القومى المصرى»** وبما لا يتعارض مع الأمن القومى العربى ومصالح شعوب المنطقة.

نقد د.صلاح قنصوه

ولقد أثارت ورقة ثم كتاب صموئيل هانتنجتون حوارًا واسعًا، فقد كانت نظريته تحديا فكريا فى المقام الأول لى ولكثيرين من كل الثقافات، وعندما تمت ترجمة هذا الكتاب إلى العربية قام **د.صلاح قنصوه** بنقد هذه النظرية وفى مقدمة الكتاب المترجم، اثرت فى هذه الطبعة الثالثة -أن اختار منها عبارات لها دلالتها كالآتى:-

- يمثل هذا الكتاب الحلقة الأخيرة فى عالم المصطلحات المثيرة للجدل فيما يسمى «علم المستقبليات» الذى استأثر بالاهتمام على انعطافة القرن.. استجابة لما تثيره الاحداث الراهنة فى العالم من مشكلات وأسئلة لا تجد لها حلولاً أو اجابات فى النماذج السابقة أو النظريات والمذاهب المألوفة والمقبولة حتى وقت قريب.
- الوضع العالمى المعاصر الذى تمثل فيه أمريكا وأوروبا الغربية محركه وآلته، يقدم أمام ابصارنا من تحليل أو تفسير، فلا ريب اننا نواجه خطة متفردة ليس بوسعنا ان نسلكها من نسق تفسيرى قائم أو نجعلها حادثة مضطردة فى مسار تاريخى قابل للتنبؤ ومن ثم نشأت الحاجة إلى اعادة النظر فى مسلماتنا جميعًا.
- لقد سبق أن وضع تسلسلاً لمراحل الصراع فى التاريخ، **فكان قديمًا بين الملوك والاباطرة ثم بين الشعوب** أو ما يسمى الدول القومية Nation states **ثم بين الايديولوجيات،** ويقدم هانتنجتون رؤية بأن مرحلة ما بعد الحرب الباردة ستنشب الصراع بين الحضارات مع حلول النظام العالمى الجديد.
- العولمة اذن هى غياب البعد الوطنى أو القومى كفاعل مؤثر، كما كان الحال فى الرأسمالية السابقة، أما الآن فالمؤسسات أو **الشركات العابرة للقارات**

تود أن تخترق وحدة الدول القومية ومن ثم تقوم بإضعاف قدرات الدول على مواجهة الغزو الجديد، بتضخيم الصراعات والنزاعات المناوئة للدولة مثل المشكلات العنصرية والدينية لصالح تفكيك الدول أى تحويلها إلى دويلات عاجزة أمام سيادة السوق العالمية، وهنا تتفاقم **مظاهر الفوضى وانعدام اليقين** ويؤدى هذا بالضرورة إلى استجابات انفعالية متضاربة ابرزها واعلاها صوتًا هو **البحث عن حضن دافئ في برد العراء الذى يحيط بنا نتيجة انحسار وضمور الذات القومية** وهكذا يتورط الجميع فى التفتيش عن جماعة أولية أو **مرجعية تكون الاصل والملاذ معا**، فيكون التعصب لها والعنف مع غيرها، **بمثابة الثوب الذى يستر العرى فى خلاء العولمة...!!**

- ***الثقافة هى الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الانسانية، المادية وغير المادية معا، أى الفكرية والمعنوية والروحية التى ابتدرها الانسان واكتسبها وسيظل يكتسبها عبر رحلة الحياة.***

والثقافة جانبان، روحى أى غير مادى وهو الذى يضم القيم والمعايير والنظم والمعتقدات والتقاليد، أما الجانب المادى فهو التجسيد الملموس للجانب الروحى أو المعنوى فيما يصاغ من أدوات ومنشآت وما إليها وهو ما يسمه «حضارة».

وتتفاعل ثقافة المجتمعات المختلفة على كلا الجانبين المادى والروحى، ومن التفاعل تنشأ ثقافات جديدة تتعاقب على كل مجتمع أو أمة لان الثقافة ليست ثابتة جامدة، فليس لكل مجتمع أو أمة ثقافة واحدة لا تتغير على مر العصور.

- كانت الحضارات -أى الجانب المادى من الثقاف- جزءًا لصيقًا بها، فكان من الممكن تمايز الحضارات بتمايز المجتمعات فى العصور القديمة أو الوسطى ولكن عندما توسع التبادل بين المجتمعات فى الجانب المادى «من خلال زيادة سبل التنقل» ازداد استقلال الحضارة عن الجانب الروحى

الذى ظل فيه التبادل بين المجتمعات محدوداً، واصبحت الثقافة عنواناً يختص بهذا الجانب الروحى أو المعنوى، وعندئذ اشتركت ثقافات متعددة فى حضارة واحدة بعينها.

ومن ثم انفصلت الحضارة عن الجذور الثقافية التى نشأت فيها، وهكذا استغل الجانب الروحى أخيراً بمفهوم الثقافة.

ويعنى هذا ان المجتمعات والامم المتباينة يمكن أن تشارك فى حضارة عالمية واحدة بقدر سعة الانفتاح والتبادل مع سائر العالم، مع احتفاظها بثقافتها الخاصة.

- لقد انتشرت النزعة الاصولية الآن، ليس بوصفها اكتشافًا علميًا لسر الصراع بين الدول، فقد ابتذلت منذ زمن قديم من كثرة الاستخدام، ولكن عقب سقوط كثير من المسلمات العصرية وفشل النظم القائمة فى ستر عوراتها، كان لابد من غمرة التخبط والفراغ التنظيرى، من التفتيش فى الدفاتر القديمة- شأن التاجر المفلس- عن نظرية عتيقة هى الصدام الحضارى أو الثقافى حيث يختار كل منا ما يلائمه من اصول أو أسلاف أم الهة جارسة.

- لان هانتنجتون مخطط استراتيجى لاعادة صنع النظام العالمى، فقد التقط من الاصوليين الاسلاميين طرف الخيط ومثل عليه دور التلميذ وطبق دعواهم بمهارة محترفة كسياسى ومفكر براجماتى فقد استفاد من الاصوليين الاسلاميين فائدة عظمى فى عدة نواحٍ:

[١] تخدم فكرته عن صدام الحضارات فى تشجيع الاصوليين الاسلاميين الذين تطوعوا لضرب اقتصاد بلادهم أو اضعافه.

[٢] يؤكد أنشطة الاصوليين الاسلاميين صدق نظريته، فتعمق الكراهية بين الغرب والاسلام.

[٣] تعبئة الرأى العام الاوروبى والامريكى ضد الاسلام، بذات التوجهات التى استخدمت فى العصور الوسطى لاثارة حروب بربرية يطلقون عليها صليبية جديدة، وليكون الاسلام هو البديل كامبراطورية الشر - عن الشيوعية والذى انتهى مفعوله كغراء يوحد جماهير بسطاء المقهورين فى الغرب..

- ***فالكتاب -فى مجمله- تذكير ملح لنشر وتثبيت الكراهية بين البشر، فنظرية صدام الحضارات ليست أكثر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة مقوله عتيقة هى «فرق تسد».***

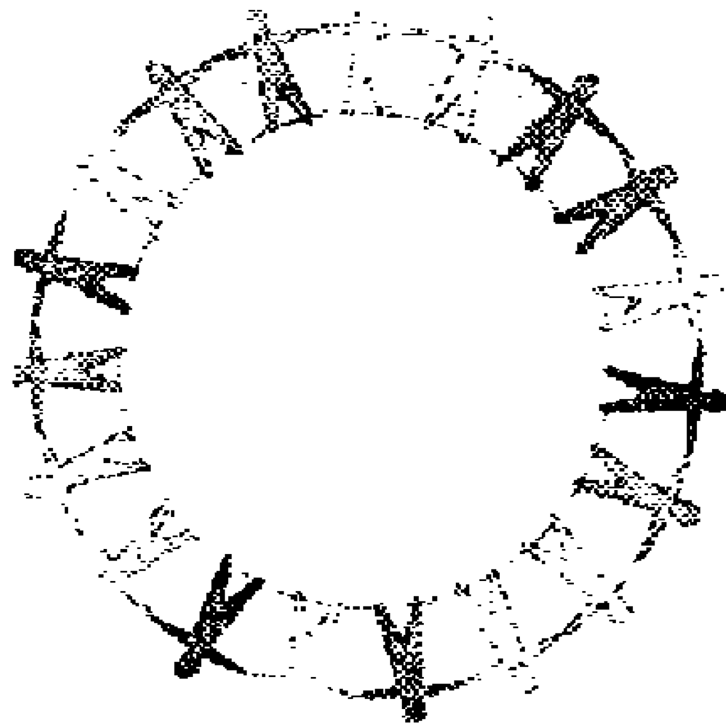
* * *

ان كل الشواهد والصراعات والحروب تؤكد ان التوجه الرئيسى للسياسة الامريكية نابع من فكر نظرية صراع الحضارات وهو الامر الذى جعلنا نستطرد فى سرد فقرات كثيرة من دراسة صموئيل هانتنجنون المنشورة عام ١٩٩٣ وكذلك الكتاب المنشور عام ١٩٩٦ والمترجم إلى العربية عام ١٩٩٨، ثم قدمنا فقرات من نقد النظرية الذى كتبه د.صلاح قنصوه فى تقديمه للترجمة العربية ولكن يظل السؤال مطروحاً **هل يستسلم العالم لهذا الفكر الذى اكتسب قولاً عامًا لدى مواقع اتخاذ القرار حتى فى بعض الدول التى تعانى من الحروب الاهلية مما يعنى ان بعضهم قد وقع فى شباك تلك النظرية.**

من هنا كانت أهمية ان يتضافر اهل الفكر فى مواقع مختلفة من العالم ووفق رؤى لثقافات مختلفة، فى أن يقدموا البديل أو البدائل، وسيجد القارئ فى الفصل الثالث المفاهيم والنهج الفلسفى والانسانى الذى ترتكز عليه ثقافة وفكر «قبول الآخر» ثم توضح الاسباب التى لا تجعل هذا التوجه سائداً على الرغم من ان الفطرة الانسانية الخيرة والمنصفة تنحاز لقبول

الآخر، ولكن قناعة البشر بالرؤى الجديدة تأخذ وقتًا حتى يُقنع النخبة أولاً ثم الكافة بعد ذلك.

وهو ما جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تخصص سنة ٢٠٠١ للحوار بين الحضارات (نص تقرير الأمين العام فى ملاحق نهاية الكتاب).



الفصـــل الثالث

نهج قبول الآخر تقبله الفطرة الإنسانية وتقوضه الانتماءات الموروثة

- يولد المرء دون رغبة من ذاته أو تخطيط بما سيؤول إليه مسار حياته
- أبو البنات مكتئب وحزين على الرغم من ان الولد والبنت وجها عملة واحدة
- من منا قد اختار ديانته فلماذا التعصب..؟
- قبول الآخر مفهوم يقبله الانسان المنصف ويتمشى مع الفطرة
- الدول تفسد قبول الآخر بنشر الانتماءات الموروثة العمياء والمتعصبة
- الانتماءات والخصوصيات الثقافية، هى الأسمنت الرابطة للجماعات البشرية
- التنوع البشرى مصدر تراث للبشرية
- الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو تساهم فى مقاومة نظرية صدام الحضارات

نهـج قبـول الآخـر
تقبله الفطرة الإنسانية
وتقوضه الانتماءات الموروثة

يولد الانسـان – أي انسـان– دون رغـبة من ذاته أو تخطيط بما سيؤول إليه مسار حياته أويتنبأ بنجاحه أو اخفاقه ولا يعرف وقت أو كيفية مماته ومن ذلك:

- يولد المرء بلون بشرة وتقـاطيع وجـه تنم عن سـلالتـه أو عـرقـه فـقـد يكون أسوداً ذا انف مفطوس؛ أو أسمر له تقاطيـع بحر أوسطية مقبولة أو أبيض بعيون لها زرقة وصفاء السماء وشعر مثل خيوط الذهب **وليس لأى منا فضل في هذا أو ذلك:**

ورغم وضوح هذه المقولة التى تقبلها الفطرة والمنطق، فإن البشرية تعيش حـاليـا– ومنذ مئـات السنين– أى منذ عـصـور الرق وتجارة العبيد إلى نظريات الفاشية والتطهير العرقي– صراعات وحروبا بسبب السلالة ومظهرها لون البشرة.

- وقـد يولد الطفل ذكـرا أو أنثى، ورغم التـقـدم العلمى الهـائل في مـجـال الاستنساخ والهندسة الوراثية، رتبت الحكمة الإلهية والطبيعة أن تجعل عدد الذكور مساوياً تقريباً لعدد الإناث في كل قرية وقطر وقارة، وخلال رحلة الحياة– وفي كثير من دول العالم حتى المتقدم منها– تكتشف المرأة أن فرصتها في الحياة والوظائف وأماكن اتخاذ القرار أقل من الرجل، وتنشأ حركات تطالب بحقوق متساوية مع الرجل، على الرغم من انها تتمتع – عادة– بالاعفاء من التجنيد أى تتجنب مخاطر الحرب والأعمال الشاقة،

وأحيانا نسمع عن أن رب أسرة قد أصابه الحزن وسوء الحظ لان خلفته كلها بنات ويتولد لديه إحساس بأنه أقل حظًا فى الحياة، وربما يتزوج بأخرى ليكون له ولد..!

وليس «لأبو البنات» فضل أو مدعاة للاكتئاب، فالولد والبنت وجها عملة واحدة، وليس للحياة طعم أو استمرارية بدون أى منهما.

● وقد يولد المرء فى وطن متحضر له وزنه العالمى فيعطيه ذلك ميزة الحصول على جواز سفر يفتح له كل الأبواب الموصدة، أما مواطنو دولة أخرى فقيرة فإن شبابها يناضل من أجل الحصول على تأشيرة دخول لدول قريبة ثرية لعله يهرب من طابور العاطلين الطويل، فيحقق ذاته بالعمل والثراء الشريف، وقد يولد طفل ثالث فى معسكر لاجئين فلا يحصل على جواز سفر أصلاً. ويمنح مجرد ورقة تثبت انه بدون جنسية، فيتعالى الأول على الثانى والثالث، ويحاول الأخير النضال بالعلم والتفوق ليقبل للهجرة لدولة اخرى تمكنه من الحصول على جواز سفر.

وليس من سبب منطقى للتفرقة بين هذا وذاك، لتوافر فرص غير عادلة بين البشر ونكتفى بمقولات غيبية غير مقنعة!!

● وقد يولد إنسان من أسرة ثرية لها وضع اجتماعى مرتفع، وتسخر الثروة والنفوذ لكى يحصل الطفل على أحسن فرص فى التعليم ثم الوظائف والرفاهية، بينما يولد آخر من أسرة فقيرة، ويناضل أبوه لإعطائه فرص تعليم حرم هو ذاته منها، لعل الابن من خلال التعليم يتخطى خط الفقر، وقد يتغير الوضع الطبقى والاجتماعى إذا كان الطفل موهوباً وذكياً، وتسمى الماركسية هذه الظاهرة بالصراع الطبقى، لانه يولد لدى الفقير «البروليتارى» الرغبة فى تخطى طبقته ويسمونه علماء الانثروبولوجيا بـ«الحراك المجتمعي» وعندما تصبح الظاهرة منتشرة تتحول لتولد مشاعر جماعية تتكاتف لاختراق حاجز الفقر أو الحرمان من التعليم جماعياً وهو أمر أشرنا إليه فى الفصل الأول كمحرك للتاريخ.

- **وحتى اسم الانسان ولقبه**- ويصير مع الزمن جزءاً من ذاته- **لم يختره أى منا**، وقد يكون اسماً خفيفاً له نغم ويسهل حفظه، وقد يكون اسماً مركباً معقداً وعليه أن يتعايش معه على الرغم من إدراكه أنه يعوق حركته فى المجتمع عند التقدم لوظائف، ونادرا ما يقبل البعض على تغيير اسمه بعد فوات الأوان.
- ولا يختار أى منا **الحقبة الزمنية التى سيعاصرها**، ففى بعض الاوطان يتصادف أن يعيش جيل من حرب أو أوبئة أو أزمات اقتصادية وبطالة، وقد يولد المرء فى ذات الوطن والموقع (ريفى أو حضر) ولكنه زمن رفاهية ونجاحات وطنية أو ارتفاع أسعار البترول والنفط.

إن أحداً منا لم يختر الحقبة التى سيقضيها على الأرض ولا فى أى ارض سيولد أو فى أى أرض يموت.

وعلى سبيل المثال، لقد ولدت عام ١٩٢٤، فى مصر ومن قراءاتى لتاريخ مصر تمنيت لو كان مولدى قبل ذلك بعشر سنوات (مثلا) حتى أتنوق بشكل أوسع وأكبر طعم الحركة الوطنية المصرية وكم كنت أتمني- لو كان الأمر بيدي- أن أعاصر سعد زغلول وحركة الانصهار الوطني التى جلبت استقلالاً جزئياً مبكراً لمصر عام ١٩٢٢، وكثيرون سعداء بأنهم عاصروا حقبة الناصرية أو عاشوا احداث حرب اكتوبر ١٩٧٣، وآخرون يجترون العلقم كلما تذكروا الأيام الستة لحرب يونيو عام ١٩٦٧..؟!!

- وهناك عشرات العوامل الأخري، ربما كان فى مقدمتها الانتماء إلى الدين، فهذا يهودى يزهو بأنه ضمن شعب الله المختار، وذاك مسلم ينتمى لخير أمة أخرجت للناس»، دون ان يدرك هذاالشخص أو ذاك، انه فى واقع الامر، لم يختر ديانته أو مذهبه إلا فى أحوال نادرة لا يقاس عليها ومن ثم فإن كل الاديان تنادى بشكل أو بآخر على أن لا فضل ليهودى على مسلم أو مسيحى إلا بالتقوى أى فعل الخير.

هذه مجرد أمثلة قليلة، لعشرات من الخصائص والتمايزات والاختلاطات بين البشر، ليس لإنسان فضل في ان يتمتع بها أو لآخر في ان يقهر بسببها، **ومن ثم فإن الفطرة تدعونا لان نقبل بعضنا بعضا كما نحن..**

كما سبق ان شرحت في الفصول السابقة كيف ان ثقافة وفكر ومفاهيم قبول الآخر ينبغي ان تقدم للعامة لانها تتفق مع الفطرة الإنسانية ويقبلها الإنسان اذا كان منصفا ومجردا عن المصالح والعقد النفسية والهوي..!!

فالمشاهد هو ان أي انسان سوى قابل للآخر، **من المفترض فيه ان يكون أولا قابلا لنفسه ففاقد الشيء لا يعطيه**. فالعديد من البشر- لأسباب نفسية أو مجتمعية أو شخصية- ليس هذا موضعها- يكون في حالة غضب أو نكد أو حزن أو انطواء مستمر بسبب انه لا يتمتع بهدوء وتوازن نفسي، حتى يصير رافضاً حتى لنفسه، وفي الأغلب الأعم، يكون رافضا للآخرين حتى وان كانوا منتمين لذات الأسرة أو الوطن أو الديانة وهو أمر يدرسه المتخصصون في علم النفس وكيفية تفسير أو تصحيح السلوك الانساني الفردي.

منشأ الكراهية الجماعية

ومن الناحية العملية والمشاهد على الساحة السياسية داخل الوطن الواحد أو بين الاعراق والحضارات والاديان في أوطان مختلفة، وما نسمعه كل يوم من أخبار الحروب الأهلية أو الصراعات الطائفية، كلها تؤكد **أن نظرية قبول الآخر على الرغم من قربها من الفطرة الإنسانية، ولكنها لا تمارس في الحياة بسبب أن المجتمع الانساني له انتماءات تتراكم لكل فرد**- في محيطه- بسبل شتى وتؤدى هذه الانتماءات في ظروف معينة لأن تكون **مصدر كراهية الآخر أو رفضه بدلاً من قبوله**، وقد تمتد الكراهية إلى الرفض ومحاولة النفي، **وهنا يكون المناخ النفسي الجماعي مواتياً لحرب أهلية** وما أكثرها، ومن ثم نشأت التوجهات العالمية لمنع نشوء الصراعات الساخنة عن طريق نشر فكر وثقافة قبول وفهم الآخر للمعايشة كبديل للحرب وهو الهدف الرئيسي في صياغة هذا الكتاب.

عبر رحلة الحياة تتكون لدى كل منا العديد من الانتماءات، **بعضها موروث -أي ليس للفرد فضل أو اجتهاد أو رغبة أو نضال فى الحصول عليها،** فى مقدمتها الانتماء إلى الأسرة أو القبيلة أو الدين أو المذهب وصولاً إلى الانتماء الوطني، ويختلف درجة حماس أو فتور الانتماء الموروث على عوامل شتى، ولكنها في بداية الامر ونهايته، هى **هذه المادة الاسمنتية التى تربط بين حبيبات الرمل من البشر فتكون منهم كتلة خرسانية متماسكة،** وكلما كانت ثقافة هذا الانتماء مزدهرة ومنتعشة سياسياً واقتصادياً كانت قوة التماسك بين الحبيبات أقوى وتنتج نوعية خرسانة عالية الجودة، أي مجتمعاً متماسكاً غيرمفكك.

وقد يزيد من قوة التماسك، احساس الجماعة **بأن هناك خطراً عليها من جماعة اخرى** ولذا فلا يقتصر الأمر على تقوية انتماء الجماعة الداخلى (الوطنى أو الديني أو القبلى أو غيرها) وانما تكون الدعوة **لكراهية الانتماء الآخر لجماعة مختلفة «عنا»** فتظهر عبارة **«نحن وهم»** وهذه العبارة هى **البداية لرفض الآخر** المختلف عنا فى السلالة أو الدين أو الوطن أو غيرها.

وهذه العملية أى التماسك من خلال القبول أو توليد الدفء الاجتماعى تكون عملاً ايجابياً وصحياً من خلال حماس وزيادة الاعتزاز بالانتماء الموروث بأدبيات وثقافة توفر الأرضية الفكرية للترابط، وهى غالباً كتب التفسير الدينى أو غيرها وهو أمر لا غبار عليه **ولكن الجانب السلبى هو عندما يظهر فكر يعادى أو يكفر الانتماء الآخر لكي يقوى إيمان الجماعة بفكرها،** وهو ما قد يؤدى إلى تصاعد الصراعات بين الجماعات العرقية أو الدينية المختلفة ومن هنا جاء مفهوم ان **الانتماءات الموروثة غالباً ما تكون متعصبة أو «غيبية»** وفى عالمنا العربى يكون السب والشتيمة مكروها وربما يعاقب القانون عليها إذا كان الازدراء للأب أو الأم أى إهانة الانتماء الأسرى وأحياناً يكون بسبب سب الدين وهو انتماء موروث أيضاً.

وفى المقابل هناك **انتماءات مكتسبة** وهى بشكل عام أرقى من تلك الموروثة، بل لعلها ترقق الذوق وترفع من مشاعر الإنسان خصوصا إذا توجهت إلى مناطق

الثقافة الرفيعة، مثل الانتماء إلى فريق يمارس الموسيقى الكلاسيك أو أنصار المسرح أو جماعة الفنانين التشكيليين أو ممارسة رياضة بعينها.

وإضافة إلى عامل الانتماءات «الموروثة والمكتسبة» والتي تقوض نهج قبول الآخر هناك ظاهرة تسود الدول التي بها نسبة عالية من الأمية، فمعظم حكومات هذه الدول تفرض سيطرتها و«تحتكر» وسائل الاعلام ليكون في قبضتها تشكيل الوجدان الوطني أو المحلي ويوجه الاعلام إما ليدعم قبول الآخر باعتباره حليفا أو مساندا، وقد يغذي الكراهية لمجموعة أخرى حسبما ترى الدولة فيها صديقا أو عدوا محتملا داخليا أو خارجيا.

ومن عجب أن المجتمعات أو الكيانات القديمة «سواء كانت قبائل أو ولايات أو دولاً» قد عاشت حالة هدوء نسبي في العصور الوسطى نتيجة أن ثقافتها ومفاهيمها كانت محلية تقوي الانتماء إلى هذه الجماعة أو تلك من خلال الموروث الثقافي المتراكم في شكل نصوص دينية أو أمثلة شعبية أو غيرها ولعله- في واقع الامر- كان هدوءاً وهمياً مقرونا بقهر مكبوت ثم أمكن من خلال وسائل الاتصال الاحدث ان يجمع الناس ويزكي فيهم حمية النضال ضد «الآخر»، فكانت الثورات والهبات الشعبية هنا وهناك، وهو أمر يختلف عما نشاهده اليوم من السيطرة الظاهرة والخفية على وسائل الإعلام والتعليم لصياغة التوجهات الفكرية والمفاهيم التي تخدم السلطة الحاكمة لذلك صارت الهبات متباعدة وأقل تواترا ومتباعدة.

آليات المجتمع المدني تساهم ايجابيا

وفي الدول والحكومات التي تقهر آليات المجتمع المدني- من أحزاب سياسية ونقابات على انواعها وصولا إلى الجمعيات غيرالحكومية- نجد ان مجال النشاط للانتماءات المكتسبة محدود للغاية، فالدولة محتكرة لأدوات صياغة الوجدان الانساني والمفاهيم الجماعية، لذا يسود «التعصب» في هذه المجتمعات وتعم

فكرة «رفض الآخر» **فهناك علاقة وثيقة بين ممارسة الديمقراطية على كافة صورها، وبين توفير المناخ السياسي الملائم لثقافة «قبول الآخر»** مما اضطر بعض الدول الغربية لأن تشكل **آليات مراقبة انتهاكات حقوق الانسان،** أو متابعة ما يجرى بالنسبة لاضطهاد «الأقليات» وتصدر لذلك تقارير سنوية تسجل ما يسمونه «الانتهاكات»، وهى آلية ضغط معنوية هامة وغالباً ما يعقبها– إذا استفحلت– فرض عقوبات، ولكنها أمور ليست منزهة عن الهوى.

وفى هذا الاطار لابد من انشاء الية جديدة تعمل على فتح القنوات والنوافذ التى تدعم وتنمى **الخصوصيات الثقافية للأقليات** على أنواعها، فالحزب الذى يصل إلى الحكم من خلال ثورة **دينية** أو حركة **عسكرية** أو حزب **شمولى**، غالبا ما **يمالىء «الأغلبية»** العرقية أو الدينية **فتقهر الأقليات** «على أنواعها» ومن ثم تمنع تنظيماتها، بدعوى انها تسعى إلى خطف الحكم، فتضطر تلك الاخيرة لتكوين جماعات **تحتية تمارس فيها خصوصيتها الثقافية،** فالمسلمون فى الفلبين يكونون تنظيماتهم لممارسة خصوصهم الثقافية وعباداتهم من صلاة وصيام وحفظ القرآن، والاكراد فى دول الجوار فى العراق وتركيا وايران وسوريا يكونون احزابهم للنضال من أجل الحصول على الاستقلال ليتكلموا لغاتهم ويمارسوا عاداتهم وثقافتهم، والشيعة فى بعض دول الخليج يحاولون أن يكتسبوا موقعا على الساحة السياسية كمشاركين ووطنيين فى إطار دولتهم لانها وطنهم، وأهالى جنوب السودان قد كونوا حركة وجيش تحرير السودان لكى يتحرروا مما يتصورونه قهر حكام وأهل الشمال.

فكل أقلية عرقية أو دينية أو مذهبية لها خصوصيتها الثقافية بشكل أو بآخر– ممثلة فى لغة أو عقيدة دينية أو آمان مشتركة، وهو امر أدركته الدول الديمقراطية فى الغرب، **ولذا سمحت بتكوين المؤسسات غير الحكومية على أنواعها حيث تجتمع هذه الاقلية أو تلك وتمارس طقوسها وتتكلم لغتها،** وفى كثير من الاحيان تقدم الدولة معونات مالية واعفاءات من الضرائب، كما تعطى

هذه الجماعة **حق البث الإذاعي** أو التليفزيون لمدد قصيرة أو طويلة اسبوعيا حسب وزنها ونضالها والمناخ العام السائد ومن عجب أن أقباط المهجر لهم حق في الاذاعة والتليفزيون في كندا واستراليا وبعض الولايات في أمريكا، ولكن خصوصيتهم الثقافية مقهورة في ان تتواجد على المستوى القومي العام في مصر.

الخصوصيات الثقافية والتنوع البشرى الخلاق

يتوهم البعض أن تقوية ودعم الخصوصيات الثقافية للأقليات قد يؤدى إلى «تفكك» المجتمع بدلا من وحدته، **فيفرضون ثقافة الاغلبية على جميع الاقليات، بدعوى «الانصهار الثقافي»** الذى غالبا ما يتحول **إلى نوع من القهر الثقافي ويتم ذلك باسم «الوحدة الوطنية»** وهو أمر أدركته منظمات الأمم المتحدة، ففي يناير عام ١٩٨٨ اصدر خافيير بيريز ديكويار الأمين العام للأمم المتحدة بالاشتراك مع فيدريكو مايور المدير العام لليونسكو، وقتها إعلانا «بأن يكون العقد من ١٩٨٨ إلى عام ١٩٩٧ **هو العقد العالمي للتنمية الثقافية**، بعد ان تلاحظ ان مجهودات التنمية لم تنجح بالقدر الكافي، لان أهمية العنصر البشري- ذاك المزيج المعقد من العلاقات والمعتقدات والقيم والدوافع الذى يكمن في قلب الثقافة- لم يقدر حق قدره فى كثير من مشروعات التنمية».

وخلال عام ١٩٩١، اتخذ المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو قراراً يطالب فيه المدير العام فيدريكو مايور بالتعاون مع الأمين العام للأمم المتحدة بانشاء لجنة عالمية مستقلة تدرس قضية **«الثقافة والتنمية»**، وفي نوفمبر ١٩٩٢ صدر قرار مشترك من د. بطرس غالي وقد صار الامين العام للأمم المتحدة من جانب مع فيدريكو-مايور المدير العام لليونسكو (والذى استمر من عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٩٩) بتكليف خافيير بيريز ديكويار برئاسة هذه اللجنة، حيث عكفت اللجنة «المكونة من رئيسها ومعه ١٢ عضوا مختارين بعناية» على العمل الجاد عدة سنوات ثم كان ان أصدرت عام ١٩٩٥ تقريرها الرائع بعنوان **«تنوعنا الخلاق»**

وقد قام المجلس الاعلى للثقافة فى مصر بترجمة هذا التقرير مع تطوير عنوانه قليلا ليكون اكثر وضوحا وهو «**التنوع البشرى الخلاق**» وصدر ذلك التقرير البديع بالعربية عام ١٩٩٧.

وفي ذات المسار فإنني أضيف مفهوماً ثقافياً آخر وهو ان «**الوحدة ممكنة وثرية من خلال التنوع باحترام الخصوصيات الثقافية**» فلا يوجد تنوع أكثر من ذلك الموجود فى مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية، وربما كان ذلك ان سر قوتها كمجتمع- حتى صارت الدولة العظمى فى العالم - ان هذا الثراء فى التنوع الثقافى والحضارى هو الذى جعل منها **بوتقة انصهار لمجمل الحضارة الانسانية تاريخيا وجغرافيا**، ويقوم نظامها كمجتمع على احترام الخصوصيات الثقافية لكل السلالات: أبيض- أسود - أصفر- ولكل دين سماوى مسيحى- مسلم- يهودى، بل وكل مذهب داخل كل دين ولكل انتماء وطنى أو ديني، فهناك على سبيل المثال رابطة العرب الامريكية وهناك أقباط المهجر الممارسين لحقهم فى استخدام الآليات والقنوات الديمقراطية لطرح مشاكلهم المحلية وربما كان اليهود كأقلية دينية أول من هاجروا من أوروبا هرباً من الفاشية فى مرحلة الثلاثينات واستفادوا مما هو متاح من آليات تكوين الجمعيات الأهلية، وكونوا أقوى لوبى فى أمريكا ساهم فى إنشاء دولة اسرائيل.

أما مفهوم سيادة ثقافة الاغلبية على الاقليات تحت دعوى الوفاق الوطنى أو الانصهار الثقافى أو دعم الوحدة الوطنية، فهى متضمنة «قهر ثقافي» والذى يؤى عادة إلى **سلبية الاقليات، وعدم الاشتراك فى الانتخابات أو الهجرة إلى الخارج فى هدوء ودون ضجيج** أو احتجاج.

إن التنوع قد يولد مفهوم «المخالفة» وهو أمر صحى يؤدى إلى الحراك الاجتماعى من خلال الحوار والتبادل للخبرات الثقافية، طالما ان المناخ السائد هو ثقافة ومفاهيم «قبول الآخر» **والا تحول «الاختلاف» إلى «خلاف» وهذا يقود إلى النفور من «الآخر» فى اتجاه رفض له ثم نفيه**، ذلك ان الانسان عدو ما

يجهل، ولذا فإن نشر الخصوصيات الثقافية للاقليات على المستوى الوطنى كله، يجعل المجتمعات البشرية **ملمة بما يجرى داخل كواليس «الآخر»** فتتولد الرغبة فى المعرفة عن الآخر، ثم الحوار وبعدها يصير التعرف على **«الارضية المشتركة»** فتتسع وتنمو مفاهيم **«المواطنة» أى الحقوق المتساوية والمتكافئة بين المواطنين** وهذا هو المناخ الصحى فى المجتمع من خلال التنوع الثقافى.

نحو ثقافة موازييك عالمية

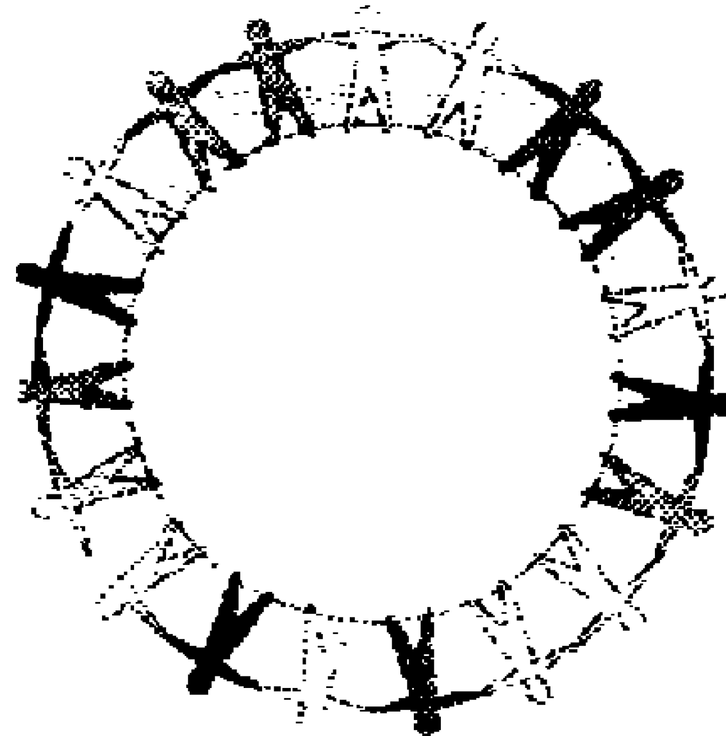
وإذا انتشرت المعرفة عن الخصوصيات الثقافية للأديان والسلالات الدينية فى العالم بين المثقفين والمفكرين- ومن خلال مشاريع واسعة للترجمة تتبناها مؤسسات مثل اليونسكو أو مجالس الثقافة فى الدول المختلفة ستتعرف الشعوب على خصوصية الاقليات المعايشة لها أو الشعوب المجاورة، وسيتم تفاعل حضارى بينهما يزيد من ثرائها، وعلى سبيل المثال ستقل نغمة الكراهية ضد الاسلام فى الغرب، وسيعرفون ان هناك اسلاماً متحضراً خارج مفاهيم الارهاب، ومن كل ذلك ستتكون **لوحة «موازييك» عالمية، لها جمالها وبريقها** وهى لوحة جميلة على أى الاحوال ويكون كل ذلك نهاية لعصر «صرا ع الحضارات» وبداية لحضارة موازييك عالمية، تكون بدايتها نهج قبول الآخر والتى تقبلها الفطرة الخيرة فى الانسان ولذلك تفاصيل قد تكون موضع مؤلف قادم.

تحفظ واجب..

إن ذهنية أو ثقافة قبول الآخر **«ليس فلسفة رومانسية طوباوية»** أوجهها للفقير ليقبل الآخر الثري، فيتوقف الحراك أو الإصلاح أو العدل الاجتماعى، وليست دعوة ليقبل الأسود المقهور الآخر الأبيض وهو يفرض سيطرته على الأسود فهذا **نوع من تكريس الفاشية وسيادة أجناس على أجناس**، كما أن ثقافة «قبول الآخر» ليست دعوة للمرأة لكى تقبل تفوق الرجل لمجرد أنه رجل، فهذا يوقف مفاهيم المساواة **لأن المرأة إنسان قبل أن تكون أنثى**، وهى ليست دعوة لقبول أن

هناك شعبا اختاره الله ليميزه على باقى خلق الله فهذه فكرة قد صارت من تراث الماضى ومتخلفة عن مفاهيم العصر والمساواة بين البشر، فالله خالق السماوات والأرض أى خالق كل البشر وهم لديه متساوون مثل أسنان المشط فليس «لعجمى فضل على عربى إلا بالتقوي»، ولأنه «لا عبد ولا سيد فى ربنا يسوع المسيح»، فالكل أمام الله على ذات القدر المتكافيء والعبرة بالأفعال وليس بالديانة التى ولد معها الانسان.

ومن هنا فإن ثقافة قبول الآخر لا تعيش الا مع التحرر والمساواة وحقوق الانسان، لأنها ذهنية تدعو إلى الديمقراطية وتكافؤ الفرص ثم هى البداية لتحصين المجموعات البشرية من أمراض الصراعات العرقية والدينية أو الذهبية، **فالوقاية خير من العلاج**، وقد لاحظت أن «قبول الآخر» فى مصر- كما سيلمس القارىء في الفصل السادس- وقد ولد مزيدا من التقارب بين الأقباط والمسلمين فى مصر، مما جعل بعضهم يصر على أن مصر ليس بها «آخر» لأننا جميعا مصريون، وهى حالة ثقافية متقدمة نرجو أن تستمر لكى يظل نموذج مصر مثلا مضيئا مشرقا فى المنطقة وربما فى العالم.



الفصـــل الرابع

ثقافة الآخرين الفردى والجماعى

- الإنسان كائن مجتمعى مركب يمكن فهم بعض جوانب تركيبته. ولا تزال جوانب أخرى غامضة.
- الإسلام لن يقهر الغرب.. كما أن الغرب الرأسمالى لن يقهر الإسلام. فليس من سبيل إلا المعايشة.
- تعلمت من زميل الدراسة الصينى فى أسكتلندا أن الأديان غير السماوية- أيضاً - لها قيم فى غاية السمو..!
- لون بشرتي الأسمر تسبب لى فى «مشكلات» لكننى الآن أتابع بإعجاب الأغانى عن «السمر»..
- «تشكيل الوجدان» صناعة ثقيلة لكن هذا لا يمنع من التأثير الجزئى من خلال «مصانع ثقافية صغيرة».
- فى مصر- كما فى الاتحاد السوفييتى (السابق)- لعب غياب «عملية التصويب الذاتى» دوراً فى انهيار الاشتراكية.
- نظرية القطاعات الثلاثة فى أمريكا وأهمية دور العمل التطوعى فى القطاع الأهلى الذى لا يهدف للربح. تحقق التوازن المجتمعى؛ الثلاثى القطاعات!
- تفرق أنصار حقوق الانسان شيعاً فى مصر. فضاعت فرصة خلق حركة وطنية شعبية لحقوق الانسان.
- نشر الثقافة العلمية ومفاهيم سيادة العقل يخلق المناخ الثقافى لقبول الآخر.

ثقافة قبول الآخر
بين الفردى والجماعى

عن القبول الشخصى والقبول الجماعى:

الإنسان كائن مجتمعى لا يستطيع أن يعيش بمفرده، ولذا فإنه يندمج مع من حوله. وبقدر ما تمتد وتتسع صلاته بأقارب وجيران وزملاء وأصدقاء ومعارف، بقدر ما يشعر الإنسان بالطمأنينة وبالأمان لأنه قادر على أن يلجأ لأى منهم وقت الحاجة والضرورة.

ومن الطبيعى أن تكون درجة الود والأخوة مختلفة من شخص لآخر، وهى أمور يدرسها أساتذة علم النفس لتحليل السلوك الإنسانى. وبرغم ذلك يظل هناك أسوار مجهولة تكتنف العلاقات بين الأفراد على تباينهم **فهى خليط من الحب والكراهية** بدرجاتهما المختلفة، ولذلك تحليلات وأسباب يمكن إدراكها وتفسيرها أحياناً، ولكن فى معظم الأحيان نقف عاجزين عن تعليل سبب الحب أو الكراهية. فهناك أشخاص محبوبون من كثرة وهذه «منحة ربانية».. ومن هنا ظهرت عبارة **«الشخصية الكاريزمية»** أى التى لها قبول عام نتيجة تركيبة شخصية خاصة، **وتلك الشخصيات هى المؤهلة للزعامة،** ومن ثم قادرة على **بلورة وقيادة مشاعر جماعية لمجموعة إنسانية.** وفى المقابل هناك شخصيات ينفر منها الناس وهى تلك التى ليس لها قبول لدى كثرة، وينفر منها الناس سواء لأسباب أو «لله فى لله».. ومعظم البشر بين الأولى والثانية أى أن لهم مجموعة قريبة منهم يتمتعون فيها بقدر كبير من الحب والاحترام وفى المقابل لهم من يكرهونهم بسبب أو لآخر.

وقد تعودنا فى مصر أن يكون من دعاء الوالدين لأولادهم عبارة **«ربنا يجعل فى وجهك القبول»**. وفى العصور الحديثة ظهرت عبارة **«كيمياء القبول أو النفور»**. ومعظم الزيجات التقليدية المرتبة فى مصر تتم من **خلال القبول من أول نظرة** ثم تتطور العلاقة مع الحوار فيتحول الشخصان إلى «حبيبين» لأنهما وجدا متعة فى استمرار الحوار الذى يمتد بلا حدود، أى **يتحول «القبول» إلى «انسجام عقلى»**. وإذا كان مقروناً بارتباط وجدانى، **عندئذ تصبح العلاقة ناضجة لقبول فكرة الارتباط طوال الحياة** أى الزواج، وهى علاقة مركبة بل ومعقدة لأنها تشمل قبولا لعناصر كثيرة متغيرة، ولكن البشرية لم تتعرف حتى الآن على شكل أمثل للاستمرار العاطفى والجنسى فى العلاقة بين ذكر وأنثى وأفضل وأرقى من تكوين أسرة.

كل هذه أمور طبيعية تتضمن ممارسات اجتماعية يومية، ولكن الصعوبة **والخطر المجتمعى ينشآن** عندما يكون الحب أو الكراهية ليس على أساس «شخصى» أى تحكمه «كيمياء الأفراد» كما سبق التوضيح، ولكن **تحكمه الكيمياء الجماعية** كأن يكون حباً أو كراهية **«لجماعة بعينها» بسبب اختلاف الدين أو السلالة أو المذهب**، على غرار أن يقول المرء: أنا لا أحترم أو أقبل أى أسود، أو أن كل الزنوج لهم رائحة لا أتحملها، أو يقول فرنسى متعصب: **إن جميع العرب متطرفون** أو بعبارة مخففة كلهم متخلفون. **هذه العبارات «الجماعية» التى تتضمن نطعة جنس أو سلالة أو دين أو مذهب بـ «الدونية»** وأحياناً يكون النعت بالامتياز والتفوق الجماعى هى أمور موجودة بالفعل فى تاريخ البشرية، **لكن خطورتها فى أنها- فى أحيان كثيرة- تظل تنمو وتتجمع وتجد زعيماً أو قائداً يتبنى وينظر للكراهية الجماعية** إلى أن يحدث «الصدام» وهو ما طرحنا له أمثلة كثيرة فى مناطق مختلفة من العالم.

ولذلك خصصنا هذا الفصل لنناقش هذه الظاهرة لعلنا نهتدى لعلاجها على المستوى الشخصى أولا أى للفرد، ثم على المستوى الجماعى أى وجود هذه الظاهرة بالنسبة للأكراد أو السود أو الهنود أو المسلمين أو غيرهم.

إن قبول الآخر على المستوى الشخصى مسألة مفيدة، ومن غير الممكن أن يكون لها أى ضرر، وعلمتنا الأمثال أن «حب الناس كنز». فكلما قبلت الآخر- كما هو بمميزاته وعيوبه- ففي الأغلب الأعم ستجد رد الفعل طبيعياً لدى آخرين وبعدها ستجد لنفسك قبولا لديهم، فتتسع دائرة الصداقة والمعارف، وهذا مكسب كبير على أى حال، ولك بعد ذلك، أن تنتقى من هذا العدد الكبير الذى صار حولك، بعضاً منهم ليكونوا أصدقاء أقرب إلى قلبك، ذلك أن «الكيمياء» بينكما «فعالة»، وكلما ازددت قربا من هذه القلة المختارة أقبل بعض منهم إليك بشكل أكثر فعالية، عندئذ ستصبحون بالفعل «أصدقاء».

ومن بين الأصدقاء ستجد قلة، قد لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة أو اليدين، فهؤلاء يكونون بمثابة «الأخوة» ومن هنا كانت المقولة **«رب أخ لك لم تلده أمك»** أى أنك لا تجد حرجاً فى أن تفضى إليهم بشغاف قلبك بل وأسرارك دون أن تخاف من تسريبها أو استخدامها- فى أى يوم أو تحت أى ظرف- ضد مصالحك. إن من الخطر أن تتحول الأخوة إلى عداوة لأنها فى هذه الحالة ستكون عداوة شرسة وربما مدمرة وهو حال نسمع عنه كل يوم.

أما العداوة أو الكراهية «الجماعية» فهى أمر مختلف تماماً وغير مقبول بشكل عام لأنه مقوض لإطار التوازنات السياسية والاجتماعية السائدة فى المجتمع. فمن منا قد اختار عرقه أو سلالته؟ ليس للأبيض فضل فى أنه ولد أبيض البشرة، وقد انهارت النظريات الفاشية التى تبنى حركتها على تفوق جنس أو عرق أو دين، وكانت قمتها قبل الحرب العالمية الثانية، حيث **زعم هتلر بأن الانجلو ساكسون هم أرقى السلالات فى الجنس الأبيض،** وأن رقائق السلالات داخل العرق الأبيض تتفوق على باقى الأعراق، ودرجها- أى صنفها- من أعلى إلى أسفل، وهى تحمل المعانى ذاتها التى يطرحها صموئيل هانتنجتون من خلال عبارات وصياغات أخرى تحتوى المفاهيم ذاتها وهى سيادة الجنس الأبيض ويسمونها الآن حضارة الغرب، وقد طرحنا هذا النهج فى الفصل الثانى.

وهناك جميع ألوان الطيف من السلالات، ولذلك تفاصيل معروفة فى علم الأنثروبولوجى وكلها تدور حول الأعراق التى تميز من خلال ألوان البشرة. فهناك الأسود والأصفر والأبيض، ونتيجة الاختلاط عبر آلاف السنين تكونت تدرجات فى البشرة ليس فقط لألوانها ولكن للمفاهيم الحضارية أيضاً، وهى التى تكون ما صار يعرف بـ **«الخصوصية السلالية للشعوب»** وغالباً ما يكون هذا الانتماء أو ذاك هو **الأسمنت الرابط المكون للأمة أو القومية أو الوطنية** وما إليها وقد أشرنا إلى ذلك فى مواقع كثيرة.

ولقد نشأت الحضارات الزراعية فى وديان الأنهار فى مصر وبين النهرين (العراق) والهند والصين، ولم تكن البشرية وقتها منذ آلاف السنين تعرف الفروق العرقية ويدل على ذلك ألوان البشرة السمراء على أوجه جدودنا الفراعنة.

وهناك تصنيفات احدث مرتبطة بالانتماء الدينى. وبذات الفهم نقول: **من منا قد اختار ديانته؟** فكل منا يرضع مع لبن الأم الانتماء إلى **الدين وهو من أقوى الانتماءات،** وكلما ارتقى الإنسان يتحول الانتماء الدينى من المفهوم الجماعى أى الجمعى إلى الشخصى، والصراعات الدينية أو المذهبية منتشرة فى أماكن كثيرة من العالم، ولكن أشرسها على مستوى العالم ما بلوره صموئيل هانتنجتون من حتمية الصراع بين «الإسلام والغرب».

وقد عقد فى القاهرة مؤتمر عالمى فى شهر يوليو ١٩٩٧ هذا المؤتمر يعقد كل عام برعاية رئيس الجمهورية وتحت مظلة الأزهر والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ويناقش قضية محددة. غير أنه فى الدورات الثلاث الأخيرة ركز بصفة خاصة على حوار الأديان وحوار الحضارات وبالذات بين الإسلام والغرب، نقول عقد المؤتمر ليناقش هذه القضية المعقدة والتى برزت بعد تفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠ وكأن الغرب لا يستطيع أن يعيش دون وجود عدو يصارعه، **فما أن اختفى خطر الشيوعية حتى كان البديل هو خطر الإسلام** ووجهة نظرى الشخصية: **إنه صراع غبى، لأنه صراع غير قابل للحسم** وينطوى على الكثير

من سوء الفهم المعتمد، فعبر نحو نصف قرن كان الصراع بين الشيوعية والرأسمالية، ثم كان الحسم فى صالح النظام الرأسمالى، **ولكن كثيرين يتوقعون** أن يكون حسماً مؤقتاً، **أما الصراع بين الغرب والإسلام فلا يمكن أن يحسم حسماً مؤقتاً**، أما الصراع بين الغرب والإسلام فلا يمكن أن يحسم لمصلحة أى طرف، فمن العبث تصور أن الغرب قادر على قهر الاسلام أو تغيير عقيدته بالضغوط على أنواعها، فهناك عشرات الدول التى يدين أغلب شعوبها بالإسلام، وهى سعيدة بذلك متمسكة بهذا الدين الذى عاشت فى إطاره الوجدانى والثقافى لقرون عديدة متصلة، وسوف تستمر كذلك لسنوات طويلة قادمة.

من الخطأ أيضاً أن يتصور العالم الإسلامى أنه قادر على قهر الغرب أى تحويله إلى الإسلام، على الرغم من الانتشار الجزئى للإسلام فى الغرب، فهذا أيضاً خيار غير ممكن ولا يسمح به توازن القوى العالمى، عسكرياً واقتصادياً وثقافياً فى المرحلة المعاصرة، ولا فى إطار الرؤى المستقبلية.

إن هذا الصراع الجديد من وجهة نظرى، يبدو **وكأنه إمتداد لصراعات قديمة تعود لنحو ألفى عام**، كانت البداية عندما قامت المسيحية وأقبل على اعتناقها بسطاء الناس وفى مقدمتهم فئة العبيد فقامت الإمبراطورية الرومانية القديمة باضطهاد أتباع هذا الدين الجديد وكان- كما نقول بلغة العصر- «القتل على الهوية».

فقد عانت مصر حين كانت إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية القديمة وفى عصر دقلديانوس من هذا الاضطهاد، وجعل المصريون الذين اعتنقوا المسيحية من عام ٢٨٤م- حين كان الاستشهاد بالآلاف- بداية للتقويم القبطى، ولذا نسب هذا التقويم إلى «سنة كذا للشهداء».

وفى عام ٣٨٩م أصدر «ثيودوسيوس» إمبراطور الرومانية الشرقية المسماة بالبيزنطية والتى صارت مسيحية مرسومه المشهور **بإغلاق المعابد الوثنية وإعلان المسيحية ديناً للدولة**، ومن عجب أن يتحول الصراع الدينى ليكون من داخل

الإمبراطورية البيزنطية أى داخل الديانة المسيحية البازغة وهو خلاف أو صراع مذهبي أو لاهوتي بلغة ذلك الزمان من خلال أفكار لاهوتية وهو ما تناولناه بالتفصيل في كتابنا: «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية».

كان الانقسام الكبير حول إشكالية «لاهوت وناسوت المسيح»، وهل هما طبيعتان ومشيئتان، وهو الرأى الذى انحازت إليه القيادة السياسية أى الملك، ومن ثم سميت هذه العقيدة بـ «**الملكانية**» وأطلق على أتباعها لقب «**الملكانيين**»، أما الرأى أو العقيدة المغايرة فرأت أن للسيد المسيح **طبيعة ومشيئة واحدة** وهو ما أصرت عليه عدة كنائس بما فيها الكنيسة المصرية، ولذا سميت فى مجموعها بـ «**الأرثونكسية**» لأنها بقيت على تمسكها بالعقيدة القديمة الثابتة.

وجاء مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م مجسداً لقمة الصراع والانشقاق، وقام الإمبراطور البيزنطي باضطهاد المغايرين له فى المذهب إلى أن جاءت حقبة حكم **الإمبراطور هرقل** الذى أطلقوا على مدة حكمه عصر «**الاضطهاد العظيم**»، ثم تصادف أن كان ذلك مصاحباً لظهور الإسلام، فكان أن رحب قبط مصر بمقدم عمرو بن العاص عام ٧٤٢م فدخلت مصر عصراً جديداً من التعايش أو «قبول الآخر» بين الأقباط الذين تمسكوا بـ «الأرثوذكسية» المسيحية وبين المصريين الذين تحولوا إلى الإسلام ولذلك تفاصيل كثيرة واردة فى عدد من الكتابات التى سجلها كتاب مصريون، بعضهم مسلمون والبعض الآخر أقباط، كلها مأخوذة من مصادر تاريخ إسلامية.

بصفة عامة استمر الصراع بين المسيحية والإسلام عدة قرون، تم فيها فتح أو غزو دول وشعوب كثيرة تحولت إلى الإسلام الذى وصل إلى الأندلس فى إسبانيا غرباً ثم إلى الهند والصين شرقاً.

وفى عام ١٠٩٥م قامت أوروبا بحملة شرسة طويلة عرفت بالحروب الصليبية لغزو البلاد العربية، إلى أن كان انتصار صلاح الدين الأيوبى، ولكن ذلك لم يوقف الحرب طويلا وبدأت حرب عكسية، وفى ١٤٥٣م تم فتح الأتراك

للإمبراطورية البيزنطية المسيحية وتحولت لتكون مركز قيادة الخلافة العثمانية، وتم غزو بعض دول أوروبا، وما حرب البوسنة والهرسك وما جرى فى يوغوسلافيا إلا امتداد لمشاعر جماعية مكبوتة من تلك الحقبة التاريخية كما يرى البعض.

وفى عصور النهضة الأوروبية من القرن الخامس عشر وما بعدها ظهرت وانتشرت «البروتستانتية» بقيادة مارتن لوثر لتقهر «الكاثوليكية»، واعتنقت بعض دول أوروبا الغربية المذهب البروتستانتى، وتم اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ وانتقل الصراع بين الكثلكة والبروتستانتية إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، ولكن أحد هذه المذاهب لم يقهر الآخر، واستمرت الكثلكة والبروتستانتية حتى الآن فى بقاع ودول مختلفة، كما استمرت الأرثوذكسية فى بلدان شرقى أوروبا وروسيا واليونان وغيرها.

استمرت الطريقة ذاتها التى استمر بها الإسلام والمسيحية، على الرغم من الصراع والحروب لقرون طويلة، ولكل ذلك تفاصيل طويلة معروفة، ولكن ما رغبت فى أن أؤكده هو أن الحروب لا تحل المشكلات ولا تقهر أو تحسم الاختيارات الدينية، ومن هنا كانت المقولة الشهيرة **بأن احداً منا لا يمكن الحكمة وحده،** ومن ثم **فلا سبيل إلا قبول الآخر أى المعايشة وتحويل «صراع الحضارات» إلى «ثقافة الموزاييك»** لأن التنوع ظاهرة كونية، ولأن الجمال فى الطبيعة وفى الحياة هو من خلال الحوار بين الأديان والأيديولوجيات والتفاعل بين المذاهب والمعتقدات، من أجل خلق ثقافة جديدة على عالم جديد وقد يتحقق ذلك خلال ربع قرن مثلا.

ثقافة وتدريب قبول الآخر للفرد

يولد كل منا بتركيبة إنسانية مختلفة نتيجة ظروف وراثية ومجتمعية تجعل له نكهة وطعماً خاصاً، ثم تتطور هذه التركيبة إما بالصقل وإما بالتدهور وفق

الظروف التى يعيشها كل منا، فقد تكون تركيبة إنسان ما جامدة متزمتة تؤدى غالباً لأن يكون منطوياً على نفسه، وهذا الإنسان معرض لمرض «كراهية الآخر»، ويكون ذلك نتيجة أنه يلقى اللوم على الآخرين عما يحدث له من صعوبات ومعوقات، بينما تكون نفسية آخر، بحبوحة منطلقة تحمل طموحات مشروعة ويخطط لحياته فيقبل على الآخرين فى يسر ويكون صداقات بسهولة، **وهذا الإنسان مؤهل لقبول الآخر بالطبيعة**، وبعدها– وبالثقافة والقراءة وتفهم الآخر– تتسع دائرة صداقاته، فتقل عداواته ولا يجد صعوبة فى اقتحام مجموعات بشرية مختلفة عنه فى السلالة أو الدين أو المذهب.

ودعنى أذكر خبرة ذاتية، وهى أننى نشأت فى أسرة تنتمى للطبقة الوسطى بحى شبرا بالقاهرة، وفى بيت متدين، وكان طبيعياً أن يكون انتمائى الدينى متزمتاً بعض الشىء فى بداية رحلة الحياة.

دفعتنى أسرتى– فى سن مبكرة– لأن أكون شماسا[*] فى الكنيسة التى كانت تقع خلف منزل جدى مباشرة، ولذلك كان مطلوباً منى أن أقرأ الإنجيل وأحفظ الصلوات بما فيها معرفة ألحان الكنيسة الأرثوذكسية، وكنت أرددها باللغة العربية بفهم، ولكننى أحفظها عن ظهر قلب أرددها مثل الببغاء باللغة القبطية، وفى سن الصبا والشباب انخرطت فى صفوف مدارس الأحد التى جعلتنى أكثر فهما للدين المسيحى، ودفعنى حب الإستزادة من المعرفة لأن أدرس وأتعمق لما يسمى طقوس الكنيسة وأسرارها السبعة، ونتيجة كل ذلك زاد انحيازى إلى المسيحية عموما والقبطية خصوصاً أى الأرثوذكسية، ولكنى استوعبت أن هناك الأديان السماوية الثلاثة والتى أدركت أنها مترابطة تاريخياً، فالمسيحية منذ نشأتها– لدى كل المذاهب– قد جعلت الكتاب المقدس مكونًا من جزءين: الأول هو العهد القديم أى التوراة الخاصة بالديانة اليهودية، أما الجزء

[*] الشماس هو أول درجات السلم الكهنوتى، وغالبًا ما يكون متطوعًا فى الكنيسة فى سن مبكرة، ويقوم بالمشاركة فى الصلوات ليكون همزة وصل من خلال «المردات» بين الكاهن والشعب، وهذه الوظيفة غير موجودة فى الكنائس البروتستانتية.

الثانى (وهو أقل حجماً بكثير) فيطلق عليه عبارة العهد الثانى أو الإنجيل والتى تعنى «البشارة»، ومن ثم فمن غير الممكن دراسة المسيحية دون الالمام باليهودية، وهذا هو سر تعاطف كثرة من مسيحيى أمريكا مع إسرائيل، ولذلك تفاصيل وآثار هامة ثقافية وسياسية ليس هذا موقعها، كما أن المسيحى الذى يعيش فى مصر، لابد أن يلم بالإسلام ويحفظ آيات من القرآن والحديث بل يتأثر بهما باعتبارهما جزءاً من تكوينه الثقافى. ومن المعروف أن قصص ونصوص القرآن تشير إلى كل من اليهودية والمسيحية، ولذلك ترابطت فى وجدانى هذه الديانات الثلاث.

ولكن انتمائى إلى الأرثوذكسية قد جعلنى أضعها فى مقدمة المذاهب والفرق المختلفة فى المسيحية بوصفها «الرأى المستقيم» الذى لم يتبدل أو يتغير على الأقل، هكذا وضعوا ذلك فى عقولنا فى سن مبكرة وجعلونا نعتقد ونؤمن بذلك إيماناً يقينياً.

ظللت على هذا اليقين سنوات التكوين والصبا والشباب إلى أن سافرت فى بعثة دراسية ١٩٤٧ بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة سانت أندروز باستكلندا، وكنا ثلاثة مصريين، أكبرنا هو المرحوم د. على كامل وكان أول من استقر قبلنا فى مدينة داندى حيث كلية الهندسة التابعة للجامعة، وبعد وصولى بأشهر لحق بنا د. مصطفى الحفناوى الذى صار وزيرا للإسكان عام ١٩٧٩ وصرنا نعرف هناك بعبارة الفرسان الثلاثة من مصر، وأصبحنا بالفعل مثل الأخوة، لأنه شيء يربط الناس مثل «الغربة»، وقد رحنا نتعاون ونتآخى خلال الوجود فى دولة أخرى ذات حضارة مختلفة، وقد برز فينا الانتماء الوطنى ورابطة اللغة المشتركة وتفوقت على الانتماء الدينى، وهذه هى «خصوصية مصر».

ثم إذا بنا نفاجأ بزميل رابع يدرس معنا لدرجة الدكتوراه تحت إشراف الاستاذ مارشال ذاته والذى كان أخاً أكبر لنا جميعاً يعاملنا على قدم المساواة وكان إنجليزيا متديناً يذهب كل أحد مع زوجته وأولاده إلى الكنيسة، وكان هذا

الزميل الرابع صيني الجنسية ومازلت رغم مضى نحو نصف قرن أذكر اسمه وهو «شانج نانج هوو» "chung Nung Hoo" ومع الزمن امتزجنا وعرفنا بعضنا تماماً، وإذا بى أجد فى هذا الشاب الصينى شخصية ممتازة فاضلة فهو قليل الكلام، خفيض الصوت لا يؤذى أحداً، يقدم المعونة وبكل الحب لكل من يطلبها، متواضع وبسيط.

ومع الزمن بدأت مفاهيمى القديمة التى خرجت بها من مصر تتغير والتى كانت تتلخص فى أن الأرثوذكسية تحتل المركز الأول بين المذاهب المسيحية كما سبق القول، ثم تتميز المسيحية بين الأديان السماوية الثلاثة، وهذه الأديان السماوية- رغم خلافاتها الجزئية فيما بينها- هى وحدها التى تحتكر وحدانية الله وبالتالى هى المؤهلة دون غيرها للحياة الأبدية الأسعد، ومن ثم فإن الأديان غير السماوية لا ترقى لأن تكون أدياناً بل لعلها تقترب من أن تكون مذاهب فكرية أو فلسفات، ولكن كل ذلك بدأ يهتز ويتغير من خلال زميلى الصينى «شانج نانج هوو»، إذ بدأت بصيرتي تدرك أن التصنيف الدينى الذى أخذته من حى شبرا، ليس بالضرورة هو التصنيف الصحيح، وأن العالم ملىء بالبشر من كل جنس ودين.

وهكذا وجدت شهيتي الثقافية مفتوحة لأن أقرأ عن الأديان، وعرفت أن المختصين فى علوم الأديان قد صنفوا اليهودية والمسيحية والإسلام باعتبارها **«الأديان الإبراهيمية»** لأنها كلها تنتمى فى جذورها إلى سيدنا **إبراهيم خليل الله**، ومن وقتها -وحتى الآن- فإننى أستخدم ذات التوصيف عن الأديان الإبراهيمية، ووجدت فى ذلك سمواً ورقياً، لأن تصنيف الأديان الأخرى بأنها ديانات «وثنية» كان تصنيفاً ظالماً وغير دقيق، خصوصاً عندما حاولت أن أقترب من أشهرها مثل البوذية والكنفوشية والشنتو، فوجدت أنها من خلال ممارستها فى شبه جزيرة الهند وكذا شعوب الشرق الأقصى، قد أوجدت قيماً ومفاهيم متحضرة قدمت نماذج لعلاقات مجتمعية راقية، قد لا تقل سمواً عن الأديان

الإبراهيمية، إن لم تفوقها في نواحٍ، وقد تأكد لي وللعالم -وبعد أن مضى نحو نصف قرن على مقابلتي للشاب الصيني في مدينة داندي- أن شعوب الشرق الأقصى التي تدين بغير الأديان الإبراهيمية حققت تقدمها الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، وأصبح بروزها الحضاري واضحًا، حتى يشار إليها بأنها تمثل الخطر الأصفر على الرأسمالية الغربية، ويطلقون عليها وصف «النمور الاقتصادية» تعبيراً عن قفزتها الرائعة في النمو الاقتصادي، نتيجة قيم مجتمعية راقية، وواضح أن العالم الغربي لا يحاول الصدام معها بقدر ما يعادي ويقهر الدول العربية والإسلامية كما سبق القول.

وخلال الفترة التي عشتها في اسكتلندا ثم إنجلترا أقبلت على قراءات في الفلسفة وتاريخ الشعوب والأديان **فتخلصت تمامًا من الدوجما التي حاصرتني في سنوات الصبا في مصر، وازددت تفهماً للأديان الأخرى،** ومن الطبيعي إن كانت قراءتي الأوسع في تاريخ الإسلام، فمن منا -وهو يعيش على أرض مصر ويعشقها- لا يعرف جذوره ومفاتيح الإسلام على جميع عصوره المشرقة والمظلمة على حد سواء.

وليس معنى هذا أن المطلوب أن يسافر كل منا إلى الخارج حتى يقابل صينياً أو هنديًا أو أمريكيًا فيتعرف على حضارات وثقافات وأديان أخرى **حتى يقبل الآخر،** فقد صار الكوكب مثل القرية الصغيرة لكثرة التنقلات التي صارت متاحة لكثيرين، فبعد أن كان السفر خارج حدود الوطن -أي وطن- أمراً لا يتمتع به إلا قلة قليلة، وذلك حتى نحو نصف قرن مضى- أصبح أمرًا عاديًا يوميًا.

ويجب ألا ننسى أنه منذ قرون قليلة، كان معظم البشر في العالم يولدون ويموتون في القرية ذاتها، وإذا رحلوا ففي إطار الإقليم ذاته أو المحافظة من خلال ركوب الدواب، إلى أن اخترع القطار الذي يسير بالبخار في منتصف القرن ١٩، ثم السيارة عند مطلع القرن العشرين، وجاءت وسائل الاتصالات الأحدث من خلال التليفون والفاكس والمحمول والإنترنت وغيرها، لكي توفر سبل

الاختـلاط دون ضـرورة التنقل، ثم ظهـر التليفـزيون والأطبـاق اللاقطة –المسـماة بالدش Dish– المستقبلة لموجات الأقمار الصناعية المعلقة فى الفضاء والمرسلة بالصواريخ لتنقل المعرفة بالصوت والصورة الملونة الى أربعة أركان الأرض، **ولم يعـد الإنسـان الأمى مـعـزولا عن المعـرفـة ويعـيش فى الظلمـات، كـالسـابق** وإنما وصلت المعرفة بالتليفزيون والفيديو الى أصغر نجع أو عزبة.

ومن هنا فإن فرصة زيادة المعرفة عن الأجناس والشعوب صارت متاحة بما فيـها من ديانة وثقافـة ومذهب وحضـارة «الآخر»، **ولكن تظل نقطة البـداية هى الرغبة الداخلية فى هذا التوجه الرئيسى فى الحياة،** والإطار الذى تجرى فى ظله عمليات التبادل الثقافية، وبمعنى آخر ما يولد معنا وما نأخذه من خلال ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الفرد.

* * *

وإذا كنت قد طرحت فى الصفحات القليلة الماضية **خبرة شخصية جعلتنى أقتنع بقبول الآخر فى مجال الأديان والمذاهب،** فإذا لى خبرة شخصية تتعلق بقبول الآخر فى مجال السلالات أى لون البشرة، **ذلك ان الإنسـان– كلمـا تقدم فى السـن– لا يجد غضاضـة فى أن يطرح خبرته حتى وأن كانت متضمنة مـا قد يتصـوره أسـراراً شـخـصـيـة،** ولكن الكاتب يسـعـد أحيـاناً بأن يعـرى نفسـه وأسراره[*]، إذا كان فى ذلك ما قد يعود بالنفع على آخرين وبالذات بالنسبة للشباب، لكى تنتقل الخبرة من جيل لآخر من خلال الكتاب.

تصادف أن كانت والدتى وكانت اسمها وشهرتها «الحاجة حكيمة» وكانت اسمها على مسمى شاهقة البياض فهى من والدين شقراوين، وكانت جدتى أى أمها «آجية» والتى باللغة القبطية «القديسة»، (وكانت أيضا اسمها على مسمى). شاهقة البياض وكما يقولون لونها مثل القشطة، أما جدى أى أبوها الخواجا

[*] ليحيى حقى عبارة رائعة تقول: «قدر الكاتب أن يتعرى ليكتسى الآخرون»

«جـرجس مـتـرى» فكان له عـينان فى لون الخـرز الأزرق، مع احـمـرار ممزوج بالسمرة للون البشرة ومثله كل إخوته الستة الذكور، وكأنهم «خواجات» وكنت أدهش لذلك فجذوره من قرية شنرى مركز الفشن وهى قرية بسيطة فى «حضن الجبل» أى فى أقصى الجهة الغربية من وادى النيل الأخضر، وكنا نتندر بأن هذا الأمر لابد راجع لأن «العسكر الفرنساوية» قد مروا من هذه الجهة إبان الحملة الفرنسية فى أواخر القرن ١٨، وبينما كان أجدادى وأمى كذلك **جئت أنا «أسمرانياً»**.

وكان الجيران يتندرون -هكذا فيما بعد- عندما كانت أمى ترضعنى ويجدون الفارق الهائل بين لون ثديها شاهق البياض، ولون وجهى الذى يحمل سمرة خمرية واضحة، والتى لابد وأنى ورثتها عن والدى الذى كانت سمرته «مقدوحة».

وعندما صرت طفلا وكنت ألعب مع أولاد خالتى، كنت أدهش كيف أننى أسمر البشرة بينما بعض منهم أو منهن شقر وشقراوات لهن بشرة فاتحة وشعر يميل إلى اللون الذهبى، وعيون «زرق».

لم أكن سعيداً بهذا الأمر، فقد كنت أتمنى أن أكون مثلهم أحمر بشرة «فاتحة» وألوان عيون وتقاطيع تميل إلى أهل حوض البحر الأبيض المتوسط فى بلاد الشام أو تركيا أو إيطاليا.

وفى هذا الإطار كنت أسعد بالأغانى التى «تجبر بخاطر السمر» مثل «أسمر يا اسمرانى» أو «يا ابو العيون السمر» وما إليها، ذلك أن معظم الأسر المصرية فى المدن ومن الطبقة الوسطى تتضمن كل درجات السمار، أما الطبقات الثرية (بمفهوم القرن الماضى) من أهل (الريف) وهم عادة سمر فكانوا يشتهون الزواج من شقراوات وكان ذلك متوافراً فيمن تمتد جذورهم لعائلات تركية أو شركسية، **ولذلك لم يعرف شعب مصر قضية الحواجز بسبب اللون Colour Bar وكنا ندهش عندما نقرأ عن اضطهاد السود فى أمريكا** وكيف أن مارتن لوثر كينج الزعيم الزنجي المعروف كان يناضل من أجل «الحقوق المدنية» ضد التمييز

العنصرى الذى ساد الولايات الأمريكية فى الجنوب، منذ أن كان أصحاب المزارع البيض يستوردون العبيد من إفريقيا السوداء للعمل فى مزارعهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد استمرت هذه التفرقة العنصرية ضد السود لسنوات طويلة حتى الستينيات من هذا القرن مقننة وممارسة بقوانين أو أعراف فالتفرقة فى مرافق الحياة، فى الأتوبيس وجميع وسائل النقل، وفى المدارس والجامعات وحتى فى الكنائس مع أننى أتخيل أن السيد المسيح كان- أغلب الظن- يحمل درجة من السمار أو ما يسمونه «قمحى» وأن صورة السيد المسيح التى تصوره وكأنه رجل أشقر راجعة إلى ابداعات وخيال مايكل أنجلو فى كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان بروما.

القصد، ظلت هذه العقدة محفورة فى وجدانى، ولكننى لم أشعر بها طوال أيام حياتى فى مصر، فبعض الإسكندرانية سمر، وقد تجد فى أسيوط عائلات لدى بعض أفرادها عيون زرقاء، أما أهالى الصعيد جنوبى أسيوط والمسمى «الجوانى» فلهم لون أسمر مقدوح وصولا الى بلاد النوبة حيث لون البشرة داكن، وتستمر درجة السمار جنوباً خلال أقاليم شمالى السودان وصولا إلى السلالة الزنجية فى جنوبى السودان، **من أجل كل ذلك وصفت مصر -فى كتابى الأعمدة السبعة للشخصية المصرية- بأنها بوتقة انصهار الأجناس والسلالات (وليست أمريكا).**

وعندما سافرت إلى انجلترا أول الأمر ثم أمريكا بعد ذلك، كنت أشعر بالقلق والحرج معاً، وفى إحدى المرات وجدت صعوبة فى الحصول على مسكن، فعندما كنت أضع إعلاناً فى مدخل الجامعة أو فى الجريدة المحلية طالباً غرفة مع عائلة لمصرى، كنت أجد استجابة عبر الهاتف، ولكن ما أن يفتح الباب لمقابلتى، حتى أجد امتعاضاً مغلفاً بأدب مكبوت، **فأدركت أن الاعتراض ليس على الجنسية ولكن على لون البشرة،** فقد يكون فى ذلك حرج لهم مع الجيران، وكنت ألمس كيف أن زميلى على كامل لم يكن يجد أى صعوبة فى الحصول على مسكن

بسبب أن بشرته كانت أميل للحمرة والبياض مثل أهل أسكتلندا ذاتهم، لأن جذور والدته كانت تعود إلى روسيا المسماة «البيضاء» بينما كان والده محمد بك كامل له بشرة سمراء في لون بشرة والدي.

ولذلك، وعندما حصلت على منحة لاستكمال الدراسة لمرحلة ما بعد الدكتوراة Research Fellow عام ١٩٥٣ بمعهد ماساشو ستس للتكنولوجيا أشهر معهد هندسي في أمريكا والمعروف عالميًا واختصارًا بالحروف M.i.T.، ذكرت في خطابي ردًا على رسالتكم لي: بأنني فخور بأن اخترت لهذه المنحة رفيعة المستوى»، ذكرت أنني أسمر اللون وكيف أنني لا أود أن أتعرض لمتاعب الملونين، وكان أن خصصوا لي إقامة في منازل الطلبة للدراسات العليا مع رئيس الفريق الراعي لهذه المنحة، ومازلت أذكر اسمه Sandy Wolf ومعه زملاء أمريكان من بينهم Martha Goodway فشعرت أنهما يعاملاني برقة خاصة ويتحاشيان أن أتعرض لاضطهاد الملونين، وبالفعل لم أشعر بأي مضايقة، ولكن ما لمسته -وكما ذكرت كان ذلك عام ١٩٥٣ أي قبل أن يحصل السود على الحقوق المدنية- من تفرقة عنصرية كانت تقززني ولم أكن أتصور أن مجتمعًا متقدمًا مثل أمريكا به هذه التفرقة، ولذلك عندما عرضوا على العمل في بعض المكاتب الاستشارية، بسبب تخصصي في تصميمات المنشآت القشرية Shell Structures، آثرت أن أعمل في إنجلترا وليس في أمريكا، لأن «الشيطان» الذي تعرفه أفضل من «الشيطان» الذي لا تعرفه، ووقتها في منتصف الخمسينات لم تكن إنجلترا (وربما لندن بالذات) مزدحمة بهذا الكم من الملونين الذين هاجروا من جاميكا غربا والهند وباكستان شرقاً.

وهكذا علمتني الحياة أن قضية اختلاف السلالات قديمة بل ومتوقعة، وأن البشر لن يكونوا متساوين تماماً، وأن الفروق في **السلالات ستظل قائمة- ليس بسبب نظرية صموئيل هانتنجتون**- خصوصاً بعد أن هاجر ملايين العرب والأتراك وأهالي يوغسلافيا ثم بلدان الشرق الأقصى إلى أوروبا وأمريكا، وأن هذه الفروق لا ترتب ويجب ألا ترتب لإنسان امتيازا على الآخرين، وفي ظل هذه

الموجات من الهجرة المتدفقة على الغرب من الملونين والصفر فلا عجب أن صارت هناك **أحزاب سياسية يمينية فاشية تطالب بطرد غير البيض من أوروبا**. أما في أمريكا فذلك أمر غير ممكن بسبب أن كل أهالي أمريكا من المهاجرين، وإن كانت هناك الفروق واضحة وظاهرة للعيان بسبب الفروق في ألوان البشرة وتقاطيع الوجه وستظل قائمة لأحقاب قادمة كثيرة وفي مقدمة هذه السلالات تلك المجموعة المسماة اختصاراً بـ WASP'S White, Anglo Saxon Protestants.

تنمية قبول الآخر للفرد

على الرغم - وكما سبق أن ذكرنا- من أن التركيبة العقلية والنفسية والوجدانية للفرد هي التي تحدد توجهه العام تجاه الآخرين وهي إما أن تؤدي إلى التقوقع «والخوف» من الآخر أو بالانطلاق والعمل على كسب وده، نقول على الرغم من ذلك، فإن التوجهات الشخصية لقبول الآخر قد تنمو أو تضمر وفق مسيرة الحياة أو من خلال القرار الذي يتخذه المرء في الأمر المهم. وقد تتأثر بالظروف والثقافة السائدة في المجتمع.

وعلى سبيل المثال تنمو ثقافة «قبول الآخر» بالقراءة والثقافة فكلما اتسعت رقعة **«المعرفة»** على أنواعها، اتجه الإنسان الى **«معرفة»** الآخر، خصوصاً إذا كانت المعرفة والاهتمام في مجال الأدب والفنون، فقراءة القصص الأدبية على سبيل المثال تجعل المرء متعرفاً على شخصيات متنوعة من البشر ممثلة في شخوص القصة **وتجعله اكثر فهماً للطبيعة الإنسانية على تنوعاتها**، كما أن القراءة في علوم الأديان على أنواعها تجعل الإنسان أكثر فهماً- ومن ثم تفهماً- للأديان الأخرى ومقدراً للفوارق بينها، **وذلك إذا كانت القراءة بهدف البحث عن الأرضية المشتركة وليس بهدف اصطياد الأخطاء أو التعرف على نقط الضعف في الإديان الأخرى**.. إن الكثير من المتخصصين في الشئون الدينية لدين ما، يقرأون ويدرسون الديانات الأخرى **بهدف تجريحها**، وهذا يؤدي إلى مزيد من **التعصب ويجعل قضية قبول الاخر أكثر صعوبة.**

فهناك كتاب مستشرقون يدرسون الإسلام بهدف تجريحه وليس بهدف التفاهم والقبول. أما إذا كانت القراءة أو المعرفة فى مجال العلوم الفيزيائية، فإنها تنمي- عادة- القدرات العقلية **والتي تبنى على المنطق أو التسلسل الرياضي،** وغالباً ما يكون إثبات النظريات في مجال العلوم الفيزيائية والكيمياء وعلوم الحيوان والنباتات وتطبيقاتها مبنياً على **تجارب معملية** وبحوث تجرى ربما لسنوات بهدف معرفة حقائق الحياة على تنوعها، وعندئذ يكون النضج الفكرى الذي يجعل الإنسان أكثر تمسكاً بالجوانب العقلية فى الدين وهو ما يمكنه من المواءمة بين العقلي والروحانى فتقل «**الفجوة**» بين الرؤى فى الأديان، وبالتالى تقل «**الجفوة**» فيكون أول الطريق لقبول الآخر.

ومن الأمور التي تؤدي إلى قبول الآخر أن يسعى المرء لتوسيع دائرة الاهتمامات بالتجمعات الإنسانية على أنواعها مع **الانضمام إلى جمعيات أهلية أو أحزاب سياسية أو نواد رياضية**، فالمشاهد أن الإنسان الذي يكتفي بما تراكم لديه من انتماءات موروثة فقط مثل الانتماء العائلي أو القبلي أو الديني أو الوطني غالباً ما يكون متعصباً متزمتاً لكل أو أي من هذه **الانتماءات الموروثة**، لأنه ليس للمرء فضل في الحصول عليها أو اكتسابها، وهي بطبيعة الحال متعصبة ضيقة الأفق لا ترى فضلا ولا خيراً إلا فيها وحدها.

أما **الانتماءات المكتسبة**، مثل الانتماء إلى مهنة أو عمل أو أيديولوجيا أو حتى ناد رياضي، فإنها تجعل المرء أكر قبولا للآخر لأنه **يقبل ويقابل** انتماءات متعددة يحبها لأنها من اختياره ولحبه لبعض أفرادها عندئذ ينتقل تدريجياً **من توجما الكراهية** أو **التعصب الجماعي إلى مناقشة الآخر ثم قبوله وصولا إلى المعايشة**، ذلك أن الأفراد داخل كل جماعة يتباينون في الصفات **ومن ثم يصبح الحب والكراهية مسألة فردية شخصية وليس جماعية**، وهذه هي نقطة البداية في مسلسل قبول الآخر والتي تقود إلى الحوار مع الآخر لاكتشاف الأرضية المشتركة، وهنا بداية «المعايشة مع الآخر».

وبشكل عام يكون قبول الآخر **وارداً في الحضر أكثر منه في الريف** حيث يكتفى المرء بالانتماء إلى العائلة أو أهل القرية، فهي كل حياتهم، ولذا ظهرت مقولة **«أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب»**. ولكن أهل الحضر يتحركون في مجتمع أكبر يمثل خليطاً من البشر المتباينين وعليهم اكتساب مهارة «التعرف على الآخر» ثم التعامل معه ومن ثم تنمو تدريجياً «ثقافة قبول الآخر».

كذلك من يحبون الأسفار ويقبلون على الرحلات الجماعية غالباً ما يتعرفون على مجتمعات أخرى، فيعرفون **أن العالم هو جملة** شعوب لكل منها ثقافة، ومن ثم يجدون أنفسهم ويحققون نواتهم، بتوسيع دائرة الأصدقاء المرافقين لهم في الرحلة الجماعية مما يتضمن «قبول الآخر».

مجمل القول هو أن كل فرد يقرر أن يوسع دائرة المعارف والأصدقاء، يجد ويكتشف لنفسه طرقاً وسبلا لتنمية «ثقافة قبول الآخر» فيجد في ذلك السعادة والحبور والانتشار ثم الأمان، فيدخل في نهج وطريق Process الأقبال على الآخر، ويصير محبوباً ويعرف أن ذلك **«كنز» ما بعده كنز ويفوق كل كنوز المال.**

تشكيل الوجدان للفرد ليس حكرا للدولة

إن تشكيل الوجدان الثقافي العام – وهو غالباً الركيزة الأساسية في قضية قبول أو كراهية الآخر– قد صار خلال النصف الثاني من القرن العشرين صناعة متخصصة، تحرص الدول على المساهمة في صياغتها، وقد يتحول هذا الحرص– وتحديداً في دول العالم النامي– إلى مشكلة، حيث الحكومات – في الأغلب الأعم– شمولية أو عسكرية يحكمها فرد أو حزب واحد له أيديولجية سائدة. وفي قديم الزمان– أي منذ قرون قليلة– كان الاهتمام الأساسي للملك أو الحاكم بوزارات السيادة، وهي التي تناظر الداخلية والخارجية والدفاع في عصرنا، وتسيطر على الأجهزة القابضة لحركة الناس وتسيطر على توجههم

العـام، ولكن في النصف الثـاني من القـرن العـشـرين توافـرت لدى كل دول وحكومـات العـالم النامى أدوات ابتكرها التقدم العلمى والتكنولوجى فى العـالم الغربي، ممثلة في الإذاعة أول الأمر ثم التليفزيون وصولا إلى الأقمار الصناعية، **وذلك صـارت وزارة الإعـلام (أو أى وزارة تحمل اسمـاً آخر ولكنها تسيطر على أجـهزة الإعـلام)** من أهم الوزارات السيـادية وصـار وزيرها من أعـمـدة الحكم ويعرف ما يجرى فى الكواليس ويحمى الحاكم من بعض تصريحاته المنفلتة.

وفي إطار انتشار الأمية في قطاعات عريضة من البشر، فإن نفوذ الصحف قد صار مقصوراً على القلة التى تقرأ وتكتب، ولديها فائض اقتصادى يمكنها من شراء الصحف، أما الكتب فقد صارت سلعة ثقافية مقصورة على فئة خاصة من المثقفين، التي تثمن حرية الفكرة والتعبير، ولذلك عملت الدول على نشر أفكار تبث من خلال وسائل الاعلام الجماعية مثل الاذاعة والتليفزيون فى شكل أخبار أو حوارات وأحياناً فى شكل غير مباشر مثل الدراما والمسلسلات، وكلها تخدم الوضع السـياسى القـائم، بشكل مـباشـر فج أحـيـاناً وبشكل ذكى فى مـعظم الأحيان، لأنه يتسرب إلى وجدان بسطاء الناس والذين ليس لديهم من متعة إلا الإذاعة والتليفزيون **حتى صار لصناعة وجدان، البشر خبراء ومتخصصون** مثلما يحدث فى صناعة الأفكار. وعـادة مـا تستـمـر الحكومـات فى دول العـالم الثـالث لفترات أطول ولا يكون من سبيل لتغييرها إلا بقرار إلهى، بحكم كبر السن ثم الرحيل، أو من خلال انقلاب عسكرى أو اغتيال سياسى، وكلها أمور لا تحدث التـغـيـير المطلوب في الوجـدان الجمـاعي، لأنه أمـر فى حـاجـة إلى وجـود قنوات ديمقراطية غالباً ما لا تكون متوافرة أو فعالة، وفى حاجة لتوافر واستقرار **أسـاليب ثقافة الحوار بدلا من ثقافة التلقين.** وذلك لا يتم بقرار لأنه تراث ثقافى يتراكم عبر آليات مختلفة ويحتاج تعديله لوقت طويل. وفى الوضع الشمولى فإن من أهم الكيـانات المؤثرة فى تشكيل الوجدان المؤسسات الدينية والتى تستمد نفوذها من خلال نصوص تراثية، تؤثر من خلال تفسيرات رجال الدين لها بطرق معينة وكل ذلك يسرى فى دماء البشر عبر رحلة الحياة والتدين.

يبدأ تشكيل الوجدان مع الطفل فى الأسرة، وهنا تختلف الأمور باختلاف مفاهيم وقيم الأبوين الحاملين لأفكار ومفاهيم المجتمع السائدة، فينتقل الفكر السائد إلى الأطفال تدريجياً. وفي المدرسة تحرص الحكومات على أن تصبغ المناهج التعليمية بالمفاهيم التى تدعم نظام الحكم، ولذلك فإن الدول المتقدمة قد أوقفت- ومنذ سنوات طويلة- تعليم الدين فى المدارس الحكومية، أما فى معظم دول العالم النامى- حيث المعاناة من الصراعات العرقية بكافة صورها- فإن تعليم الدين مسألة مستقرة، تصل فى بعض الأحيان لأن يوضع لها نصوص فى الدستور، ولذلك فإن بعض التيارات الأصولية قد خططت بذكاء لكى تتسرب إلى التعليم الحكومى وسيطرت عليه فى معظم الأحيان.

* * *

ثقافة قبول الآخر «جماعيا»

أولا: دولة مؤسسات تصوب ذاتها بذاتها

معظم دول العالم تدعى أن نظام حكمها «ديمقراطى» ولكن فى التطبيق فإن الأمر يختلف كثيراً بل غالباً ما تكون الممارسات مناقضة للنصوص الواردة فى الدساتير المكتوبة، ولكن بشكل عام كلما كان النظام «ديمقراطيا» بالفعل- كما سنتولى بالشرح فى هذا الجزء- كانت ممارسة «قبول الآخر» أمراً ممكناً ومتاحاً وقابلاً للتطور. «فالنظم الدكتاتورية» أو ما صارت تسمى «الشمولية» غالباً ما تقوم أيديولوجيتها على مفاهيم الاعتزاز بالانتماء إلى سلالة أو قبيلة أو دين أو مذهب، ويبدو ذلك واضحاً فى بعض دول إفريقيا شرقاً وغرباً وحول منطقة البحيرات. وتتجمع فى السودان كل التناقضات المؤدية إلى كراهية الآخر بسبب الانتماء الجغرافى «شمال وجنوب» والانتماء العرقي: عرب وأفارقة، والانتماء الديني: أسلام ومسيحية، فضلاً عن الصراعات بين القبائل وتعالى كل منها على الأخرى، ولذا فكل طرف في صراع مع «الآخرين» وإيران كانت تدعو إلى الثورة

الإسلامية وتحاول أن ينتشر نموذجها إلى بلدان أخرى باسم «تصدير الثورة» وإن كانت التغيرات الأخيرة بعد الانتخابات تبشر بمبدأ قبول الآخر. والجماهيرية الليبية تلتف حول «الكتاب الأخضر» باعتباره البديل لكل فكر وتراث البشرية السابق له.

وفي هذا الأمر يبدو أن المفاهيم الثقافية المرتبطة بالبوذية وديانات الشرق الأقصى لا تقوم على التمييز بين الأنا والآخر، وعلى سبيل المثال لا تنص على «دونية المرأة». وصارت المرأة رئيسة الدولة وهو أمر لم يحدث في البلدان العربية.

إن معظم الدساتير الحديثة قد استقرت على مبدأ وجود السلطات الثلاث المعروفة: التشريعية- التنفيذية- القضائية، وكلها تنص على أشكال من الانتخابات، ولكنها في كثير من البلدان تكون انتخابات مملوءة بالتجاوزات التي أحياناً لحد التزوير الفاضح، ومن هنا ظهرت فكرة وجود الرقابة على الانتخابات بواسطة هيئات دولية لها مصداقيتها.

وفي معظم الانتخابات لا يتوافر للأقليات على أنواعها فرص متكافئة للوجود في البرلمان مما يعني ويتضمن **«استبعاد الآخر»** وهو أمر لابد أن يعالج من خلال تشريعات تضمن **«وجود الآخر»**.

ولذلك صور وأشكال مختلفة أشهرها ما هو مقنن بحكم القوانين من حتمية تخصيص نسبة معينة لفئات معينة مثل السود والمرأة والأقليات الأخرى كافة. وتتم الممارسات والقواعد ذاتها في المدارس والجامعات والوظائف العامة وما إليها، **وهي أمور صارت مستقرة في أمريكا** وتكسب أرضية في الواقع عاما بعد عام ولكن لم يتوافر لها المناخ الثقافي العام في الدول التي لا تمارس الديمقراطية بشكل كاف.

وفي مصر- على سبيل المثال- باتت ممارسات الانتخابات مملوءة بالتجاوزات وأحياناً بالتشوهات التي سجلتها تقارير محكمة النقض، كان آخرها انتخابات

أكتوبر عام ١٩٩٥ لذلك انفض معظم الشعب عن المشاركة فيها وأصبحت مصداقية مجلس الشعب ذاتها فى مهب الريح، لأن نتائج الانتخابات أصبحت معروفة قبل أن تبدأ، والمرء يتساءل ماذا كان يضير الحكومة لو أنها مكنت الأحزاب الأخرى فى مجملها لكى يكون لها نحو ٦٠ إلى ٧٠ مقعداً من جملة المقاعد الحالية التى تصل الى ٤٤٤ مقعداً بالانتخابات وعشرة مقاعد بالتعيين وفق نص الدستور منذ زمن عبد الناصر؟

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فقد ارتكب الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم الذى يدير الانتخابات بالتنسيق مع أجهزة الدولة ممثلة فى المحافظين والادارات المحلية والعمد مخالفات سياسية صارخة عام ١٩٩٥ عندما امتنع الحزب عن ترشيح قبطى واحد أو امرأة واحدة ضمن القوائم التى رشحها الحزب بعد تمحيص وفحص ودراسة ثم بعد اعتماد هذه القوائم من كافة مستوياته على تعددها، فجاء ذلك انعكاسه للمناخ الثقافى الذى يبشر بالمساواة دون تفرقة وفق المادة ٤٠ من الدستور المصرى ولولا رسوخ تراث «قبول الآخر» فى مصر، لكانت مشكلة يمكن ان تتفاقم وهو ما حدث بشكل أو بآخر فى انتخابات عام ٢٠٠٠ حيث رشح الحزب الوطنى وزيرا قبطيا فقط لعضوية البرلمان.

ولذلك فإن الدعوة لأن تكون المواقع القيادية فى الحكم المحلى أى المحافظين ورؤساء المدن والقرى لتكون بالانتخابات وليس بالتعيين دعوة مقبولة وإن كانت مكبوتة وكامنة فى صدور الناس دون إفصاح لأنها قد توصل- مع الزمن- ومع عوامل أخرى سنشير إليها فيما بعد- إلى امكانية **«تداول السلطة»** ومن خلال ذلك يتوافر المناخ الديمقراطى الذى يسمح بثقافة «قبول الآخر».

كذلك فإن أى نظام يدعى أنه «ديمقراطى» دون أن يحمل آليات التصويب الذاتى Self- Correcting System، محكوم عليه بالضعف والهوان، وربما يدمر نفسه بنفسه، كما حدث فى يونيو عام ١٩٦٧ **ولذلك يقوم النظام السياسى الأمريكى** على قاعدتى: **التوازن والرقابة** Check& Balance System، أى أن

الكونجرس يوازن ويراقب ما تقوم به المؤسسة الرئاسية ثم تقوم المحكمة الفيدرالية العليا بتصحيح الأوضاع وفض المنازعات بين الأفراد والسلطات الدستورية، فيما يتعلق بالتجاوزات فى استخدام السلطة فى ضوء ذلك تضع مبادىء عامة وكان إنشاء المحكمة الدستورية العيا فى مصر خطوة فى هذا الاتجاه وفى إطار أحكامها يهتدى المجتمع ويلتزم بتطبيقها، وهكذا يصحح النظام الأمريكى نفسه بنفسه ويتقدم للأمام. وقد اكتشفوا أن مدة أربع سنوات كافية لأن يقدم الرئيس أفكاره التى التزم بها فى برنامجه الانتخابى وله أن يستمر مدة أخرى، فثمانى سنوات هى حد أقصى معقول لأى فرد ينفذ فيها خططه وبرنامجه ويتضح للناس قدراته، فتداول السلطة على كافة مستوياته يجدد شباب النظام، وهذا يقدم باستمرار فكراً متجدداً.

وفى مصر- على سبيل المثال- كان النظام الثورى الناصرى موضع تأييد عام من المجتمع لأنه- ومنذ البداية- كان يحاول تغيير الأوضاع المختلفة التى سادت فى السنوات الأخيرة من حكم الملك فاروق، فقرب الفوارق بين الطبقات وقام بإصلاحات كثيرة. ولكنه كان متأثراً بالمناخ التنظيمى للاتحاد السوفيتى وممارسات الاحزاب فى دول أوروبا الشرقية وبالذات فى يوغوسلافيا، حتى وصل الأمر إلى أن الدساتير المتعاقبة كانت تستلهم الفكر الشمولي وتكرسه، فضلا عن الهيكل التنظيمى للاتحاد الاشتراكى ثم القبضة الحديدية «الثورية» للسلطات الرقابية من مخابرات وأجهزة الأمن والرقابة الإدارية وغيرها، وحتى الشعارات العامة مثل «تحالف قوى الشعب العامل» وأفكار «الميثاق» الأساسية وغيرها، كلها مأخوذة من «يوغسلافيا السابقة»، وكان ذلك مجسداً فى الصداقة الوطيدة بين تيتو وعبد الناصر، وفقدت مصر تدريجياً ما تبقى من أفكار ليبرالية كانت مصاغة بطريقة مناسبة فى دستور عام ١٩٢٣، كل ذلك اختفى تدريجياً ليحل محله سيادة **«المؤسسة العسكرية»** ليحل أيضاً بفجاجة مبدأ ان **«أهل الثقة» لهم الأسبقية فى المواقع الأمامية للقيادة عن أهل العلم والاختصاص.**

وقد أدى بنا كل ذلك وتدريجياً لأن تم اصطياد النظام فى هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، لأن النظام قد صار مثل «الطاووس» يملؤه الغرور، ولم يستطع الشعب أن يخلع عبد الحكيم عامر على الرغم من مسئوليته عن هزيمة أكتوبر عام ١٩٥٦، ثم كان المسئول عن الانفصال السورى عام ١٩٦١، ولكنه استمر فى موقعه لأنه قال للرئيس عبد الناصر: «رقبتى يا ريس» ولكن رقبته لم تنج مصر والعالم العربى من هزيمة عام ١٩٦٧ فكان ما كان من تراجع وخيبة أمل **لعدم وجود آلية التصحيح الذاتى من خلال الديمقراطية.**

وفى اعتقادى **أن نظام الاتحاد السوفيتى لم يسقط لأن الفكرة الأساسية كانت مرفوضة من الناس،** بل بالعكس، لقد انبهرت كل من الطبقة العاملة والفلاحين، فضلاً عن شرائح من المثقفين بالحلم الذى تبلور فى عبارة: **«لكل إنسان حسب جهده»،** ولكن فى التطبيق وتدريجياً **صار النظام رافضاً لفكرة التصويب الذاتى باعتبارها قيمة برجوازية مصدرة من الغرب** بهدف دعم الثورة المضادة. وحتى مبدأ وفكرة «النقد الذاتى» التى أنشأها لينين ماتت تدريجياً وصارت شكلا بغير مضمون إلى أن كان ما كان..!

ومن هنا، فإن تعميق الديمقراطية من خلال آليات الرقابة بين السلطات، ووجود حريات فى التعبير، **وشفافية فى توافر المعلومات،** تمكن النظام الديمقراطى من أن يصحح ذاته ويعمق ويطور أشكال وحدود الديمقراطية، **وفى هذا المناخ الديمقراطى يكون «قبول الآخر» جماعياً أمراً ميسوراً.. ولا يتكرر ما قام به الحزب الوطنى من خطيئة فى حق المرأة والأقباط عند تجهيزه قوائم ترشيح الحزب لانتخابات عام ١٩٩٥.** ويتجه إلى مشاركة فعلية من كل الفئات المؤثرة (كالمرأة والأقباط وغيرهم) عند أختيارات المواقع الرئيسية لاتخاذ القرار مثل مواقع المحافظين ومديرى الجامعات وعمداء الكليات والسفراء وغيرهم كثير.

ثانياً: أدوات المجتمع المدنى

تظهر بين الحين والآخر نظريات سياسية تعبر عن أشكال مختلفة لفهم تطور المجتمع وأسس تغييره، ففى الماركسية كانت نظرية «المادية التاريخية» ثم مفهوم «صراع الطبقات» وكيف أنه المحرك للتاريخ، وقد ثبت أن هذا الأمر وحده- ليس كافياً لأن يكون محركاً للتاريخ، وبالتالى ظهرت آراء ونظريات أخرى جديدة وهى أمور تعرضنا لها فى فصول سابقة. إن الماركسية قالت: إن المجتمع الاشتراكى الذى يتلخص فى شعاره «من كل حسب جهده ولكل حسب عمله» سوف يمهد لمجتمع آخر اطلقوا عليه عبارة «المجتمع الشيوعى» الذى يتلخص هدفه فى عبارة «من كل حسب جهده ولكل حسب احتياجه»، وقيل وقتها إن هذه الأفكار رومانسية ولا تتفق مع الطبيعة البشرية حيث الأنانية أى حب الإنسان لذاته أولا وقبل كل شىء..!

ولأن المجتمع الأمريكى قد بنى تحركه وفلسفته الفكرية على أساس إمبريقى أو «براجماتى» Pragmatic أى أنهم يقومون بدراسة ما يجرى على أرض الواقع بالفعل، ويطورون هذا الواقع أى يمارسون مفهوم التصويب الذاتى، حتى أنهم استفادوا من الأفكار الماركسية والاشتراكية ذاتها، فقد ابتكروا نظرية وجود قطاعات ثلاثة فى المجتمع تتنافس وتراقب وتصحح مسار المجتمع، وكان ذلك بديلا لفكرة «**ضمور الدولة**» Withering of the State والتى كانت تنادى بأن التقدم يسير حتماً صوب المجتمع «الشيوعى» حيث تتآكل الدولة، وأن الطبيعة الأنانية بين البشر سوف تختفى حدتها وهى أمور لم يقدر للبشرية أن تمر بها وبالتالى تدخل مرحلة الاختبار الفعلى.

وفى هذا الإطار كان الإبداع الأوروبى- أولا- نتيجة ثمرات الارهاصات الأولى التى بدأت بالوثيقة الكبرى المعروفة بعبارة ماجنا كارتا(*) وبعدها بعدة

[*] Magna Carta في مطلع القرن ١٣ فى انجلترا فى عهد الملك جون يوم ١٩ يونيو ١٢١٥م.

قرون قامت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، وبعدها كان ظهور الدستور الديمقراطى المبنى على الاستقلال بين السلطات وهو المثلث المتربع فى قمة السلطة ممثلا فى البرلمان أى «السلطة التشريعية والرقابية» ثم الحكومة «السلطة التنفيذية التى تملك المال والجيش والسجون» ثم السلطة القضائية «بما فيها المحكمة الدستورية ومجلس الدولة وما أشبه» لكى يقوم من خلال هذه المنظومة على توفير العدل والتوازن، وهى الفكرة المحورية لإستقلال السلطات الثلاث القابضة للحكم الدستورى، كبداية للطريق الديقراطى، وقد أفضنا فى ذلك فى البند أولاً- أعلاه.

غير أن المجتمع الأمريكى وخلال النصف الثانى للقرن العشرين وتوقعاً منه لاحتمال تفكك الاتحاد السوفيتى واهتزاز الفكر والنظرية الماركسية وحتى اهتزاز فكرة الثلاثى الدستورى وفق الفكر الأوروبى قام المجتمع الأمريكى بابتكار «ثالوث» متوازن آخر أطلقوا عليه : القطاع الأول والثانى والثالث، على اعتبار أن «**القطاع الأول» هو الدولة** بكل ما تحتوى من سلطات ومؤسسات. وترى النظرية أن هذا القطاع هو الذى يسيطر على المجتمع ليضمن سلامته وعدم تفككه، ومن الناحية النظرية يحاول أيضاً أن يكون عادلا ومتوازناً بين فرق وطبقات ومصالح الفئات والمجموعات البشرية المختلفة التى تعيش فى إطار رقعة جغرافية لها حدود، وهى «الدول العصرية». وهذا القطاع الأول ينبغى أن يكون مسموحاً له من خلال آلياته بتداول السلطة ويتم ذلك عن طريق انتخابات نظيفة لها أساليب مختلفة مدروسة، ولكنها فى التحليل النهائى تهدف لأن تكون معبرة عن أمانى وتطلعات المجتمع، وهى الضمانة الأولى التى ذكرناها سابقاً فى بند «أولا». أى دولة مؤسسات تصوب ذاتها بذاتها.

ولأن النظام الرأسمالى يقوم على حرية رأس المال فى النشاط ويفرض استمراره وبقاءه من خلال قاعدة ضرورة وجود منافسة فى إنتاج السلع والخدمات، فإن قانون منع الاحتكار Anti- Cartel Law هو شرط متمم،

فالمستهلك هو المستفيد من خلال تنافس القطاع الخاص ليقدم النظام الرأسمالى أفضل سلعة أو خدمة بأقل سعر، وهى الفلسفة التى فرضتها أمريكا على معظم دول العالم عقب تفكك الاتحاد السوفيتى ويحاول البنك الدولى أن يفرض هذه الأيديولوجية على العالم النامى من خلال برامجه ووفق اشتراطات القروض التى يقدمها، إضافة إلى دور منظمة «الجات» الداعم لهما أو المكمل لذات الفلسفة التى تكاد تحكم العالم.

وقد أطلق الأمريكان على هذا النشاط للقطاع الرأسمالى عبارة **«قطاع الأعمال»** Business أو عبارة **«القطاع الثانى»** والذى **يتنافس وينمو من أجل الحصول على الربح** ويطلق عليه أحياناً عبارة المنظمات التى تسعى إلى الربح organizations For Profit، ولتحقيق هذا الهدف فإن التنافس التجارى ليس له أخلاقيات محكمة منضبطة بل غالباً ما يكون الصراع مريراً، وتكون الضحية هى المستهلك أو المواطن العادى، فالغرور قد حاق بهذا القطاع إلى حد أن المفكر الأمريكى الذى تعود جذوره إلى اليابان **«فرانسيس فوكوياما»** قد عبر بوضوح عن رؤياه فى أن النظام الرأسمالى قد انتصر بغير رجعة من خلال مؤلفه الشهير «**نهاية التاريخ**» مما يشير إلى مدى زهو هذا المعسكر بما وصل إليه من نجاحات برغم الأضرار التى تلحق بقطاعات واسعة من بسطاء الناس والتى يعترف هو نفسه بها.

وفى هذا الإطار كان ابتكار ما أسموه **«القطاع الثالث» الذى يقيم التوازن مع «القطاع الأول»** أى الحكومة لأنها قاهرة فارضة نفسها ووجودها من خلال أدواتها الباطشة، ثم مع «**القطاع الثانى**» الذى يسعى ويخطط للوصول إلى أقصى ربح، حتى وإن اقتضى ذلك العدوان على حرية الآخرين أو الأضرار بمصالح بعض الفئات الاجتماعية المقهورة، ولذا ابتكروا التوازن من خلال إنشاء ودعم «**قطاع ثالث**» يشار إليه بالفعل فى الأدبيات المعاصرة بعبارة The Third Sector وأحياناً يطلق عليه عبارة «**القطاع المستقل**» The independent Sector،

وهذا النشاط قد صار معروفا بعبارة هى «**المجتمع المدنى**» The Civl Society، حتى مختلفة عن مجتمع القوات المسلحة أى السلطة العسكرية أو مجتمع رجال الدين أو السلطة المدنية وما إلى ذلك.

وفاعلية **المجتمع المدنى**- فى التحليل النهائى، وبرغم كثرة الأدبيات فى هذا الأمر- يعنى ببساطة حرية تكوين ونشاط الجمعيات الأهلية، وهى ما يسمونها أحياناً الجمعيات غير الحكومية وهى ترجمة حرفية لعبارة -Non Governmental Organizations وإمعاناً فى التفرقة بينه وبين القطاع الثانى الذى يعمل من أجل الربح، والربح وحده، يطلقون على هذه الجمعيات الأهلية توصيفا آخر وهى أنها ليست بهدف الربح Non- Profit Organizations.

وتقوم الفكرة المحورية فى التوازن بين هذه القطاعات الثلاثة على أن يقوم القطاع الثانى- ومن خلال تراكم الأرباح الهائلة لديه- بتخصيص جزء من هذه الأموال يتم تجميدها أو تجنيبها فى شكل **وقفيات** ويسمونها «**المؤسسات**» Foundations حيث توضع هذه الأموال تحت تصرف **مجموعة «أمناء» عليها**، ولذا يسمونها مجالس أو لجان أمناء Board Of Trustees من منطلق أنهم يشرفون على حسن إدارة هذه الأموال باستثمارها فى مجالات عديدة، منها شراء عقارات أو أسهم فى شركات أو البورصة أو غيرها من أوجه الاستثمار المشروعة التى تضمن تدفق الأرباح والعائد. ومن خلال هذه الأرباح أو الريع أو العائد أو الفائدة، يتم الصرف على جميع الجمعيات الأهلية أو غير الحكومية التى تخدم المجتمع بهدف إيجاد التوازن لأنشطة لا تستهوى القطاع الثانى الذى يسعى للربح وحده، فتقام **المستشفيات أو الجامعات أو البحوث أو جمعيات المحافظة على البيئة أو حقوق الإنسان أو ترميم الآثار القديمة** أو إنشاء متاحف لأغراض شتى، أو دعم الفنون وجميع أوجه الفكر والثقافة، أو رعاية المسنين أو المعوقين، وهى أهداف اهتمت بها البشرية على نطاق واسع فى العصور الحديثة.

ومن الطبيعي أن تخصص بعض الأموال للأغراض الخيرية التقليدية مثل رعاية بسطاء الناس (وكانوا يسمونها في السابق بعبارة الفقراء أو المعوزين أو المستضعفين في الأرض) أو الأيتام والأرامل وغيرها من تسميات تتغير وفق التغيرات الاجتماعية المختلفة التي تناسب مفاهيم العصر.

وجدير بالذكر أن المؤسسات الأمريكية أو الأوروبية مثل فورد وروكفلر وفولبرايت وغيرها كثير، ما هي إلا تطبيق أكثر ملاءمة للعصر، للفكرة التي انتشرت على نطاق واسع في العصر العثماني وأسموها **«نظام الوقف»** وأتصور- دون أن أغوص كثيراً في مراجع تاريخية- أن هذا النظام «الوقف» ربما يعود إلى عصور «الفراعنة» عندما كان الملوك والأثرياء يخصصون أراضي زراعية تدار لحساب الإنفاق على المعابد والكهنة.

أياً ما كان من أمر، فإن تنشيط القطاع الثالث أي العمل التطوعي هي أحد العناصر المهمة التي تدعم الديمقراطية؛ لأنها تجعل للبشر حق التنظيم وتشكيل جمعيات تحقق ما يتصورونه في مصلحتهم أو ينمي مواهبهم أو يوفر الخير العام للمجتمع الذي يعيشون فيه.

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن المجتمع الأمريكي من أكثر شعوب العالم- إن لم يكن أكثرها بالفعل- في تقديم تبرعات لأغراض إنسانية على مستوى العالم كله، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي **تقيم التوازن المجتمعي الناجم عن سطو السلطة الحكومية أي «القطاع الأول» وجشع وسطوة رأس المال أي «القطاع الثاني»**.

فكلما تدعمت مفاهيم وآليات إنشاء المجتمع المدني، **تمكنت «الأقليات» العرقية والدينية والمذهبية من إنشاء مؤسساتها الثقافية والخيرية والدينية،** فتنمو خصوصية هذه الأقليات الثقافية وتزدهر ثم تنتشر حتى تصبح من النسيج الثقافي للمجتمع، وإذا ما أخذنا مصر- وعلى سبيل المثال- فإن الجمعيات الأهلية للأقباط وأهالي بلاد النوبة كثيرة ومنتشرة، وهي تقوم بخدمات اجتماعية

فى الطوارىء وبالذات فى المناسبات التى تحتاج إلى سيولة مالية عاجلة مثل الولادة والزواج والوفاة، وهو تراث مصرى قديم ومنتشر حتى الآن بين أهالى بلاد النوبة تحديداً، حيث لديهم **تقاليد عمل «جمعية»** كاتفاق جماعة منهم على **«جمع» مبلغ معين متساو من النقود**- ولتكن عشرة جنيهات شهرياً- ويكون الاتفاق بين عشرة أشخاص مثلا، وعند أول كل شهر يتم «جمع» مائة جنيه من هؤلاء العشرة، تدفع لمن هو أكثرهم حاجة لهذا المبلغ والذى تقام **«الجمعية» لمساعدته،** الشهر التالى تكون (**الجمعية**) من نصيب من يليه فى الاحتياج وهكذا، وهو أمر مازال يتم كل يوم بمقتضى الثقة بين هذه المجموعة أو تلك.

ولعل هذا هو الذى **فرض عبارة «جمعية»** حتى الآن، وهى إحدى وسائل الادخار الشعبى الجبرى المنتشرة بالتحديد بين فئات الموظفين والعمال فى القرى والاحياء الشعبية، أما الأثرياء فلديهم مدخراتهم كما يمكن الحصول على قروض من خلال ما يملكون من عقارات وأراض.

وكان **الأقباط** أول من أنشأوا الجمعيات الخيرية القبطية فى نهاية القرن التاسع عشر ثم تمسكوا بنشاطها لأنها بمثابة الأسمنت الذى يحافظ على ترابطهم الاجتماعى ومقاومة غوادر الزمن وتضمن التكافل الاجتماعى، ولكن للأسف الشديد فإن هذه الجمعيات القبطية فى مجملها كانت- ومازالت- لأسباب خيرية فقط أو مساعدة الفقراء والوعظ ولم يكن بها إلا **جمعية الآثار القبطية** ذات توجه ثقافى أى لنشر الخصوصية الثقافية التراثية للوثائق والمخطوطات فى الكنائس والاديرة.

ما رغبت فى أن أصل إليه هو أنه كلما تدعمت صور المجتمع المدنى(*) والمشاركة الشعبية فى حل مشكلات البشر تدعم النسيج الوطنى وامتزج الناس وشاركوا فى حل مشكلاتهم فينسون أو يتناسون الانتماء إلى الدين أو اللغة أو

[*] كانت بداية تكوين الجمعيات الأهلية فى مصر على أساس دينى، وكان الحراك الإجتماعى من خلال المنافسة بين هذه الجمعيات فى الانشطة الخيرية والإجتماعية ويوجد توجه الأرقى حاليًا، بأن يكون انشاء الجمعيات بنكهة مصرية دون تفرقة بسبب الانتماء الدينى.

المذهب، وهكذا يصبح «قبول الآخر» أو رفضه مبنياً على «كيمياء الأفراد» أكثر منه على أسس فروق جماعية.

أما الفواصل بين القطاع الأول والثاني والثالث فهي في حاجة إليها فحص لأنها ستتغير كثيراً في القرن ولكن تلك قضية أخرى ليس هنا موقعها.

ثالثاً: نشر ثقافة حقوق الإنسان

نتيجة التعذيب البدني والعذاب النفسي اللذين عانت منهما شعوب دول أوروبا، من الفاشية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية وما ترتب على الحرب من دمار رهيب لمدن بأكملها فضلا عن ملايين القتلى في الاتحاد السوفيتي وأوروبا وغيرها أثناء الحرب العالمية الثانية، أدرك المفكرون أهمية عدم قيام الفاشية مرة أخرى، فقد مارست على نطاق واسع قيوداً ضد الحريات، وكرست العنصرية، وسطوة أجهزة التجسس.

لقد ساد العالم جو انساني محتقن تحتم تحاشي قيام حرب عالمية ثالثة، ومنع انتشار وسائل التعذيب، فاجتمعت ارادة الدول الكبرى المنتصرة على إنشاء هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. ولكن الجديد هو أن هذه الهيئة الدولية الوليدة أصدرت وثيقة عرفت بعبارة **«الإعلان»** أو **«الميثاق العالمي لحقوق الإنسان»** استمر الحوار حول صياغتها سنوات إلى أن وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ من ديسمبر عام ١٩٤٨، وإذ بهذا الميثاق يصبح نقطة بداية لسلسلة هائلة من مواثيق وإعلانات دولية كثيرة في مجالات متعددة، نذكر منها على سبيل المثال: الإعلان العالمي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ثم تلاه آخر بالحقوق المدنية والسياسة، ثم صدرت الاتفاقية الدولية لمناهضة التعذيب، وقبل أن ينفجر العالم بما نحن فيه من صراعات عرقية ودينية، أصدرت الأمم المتحدة إعلاناً «للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري» فقد كانت مشكلة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا- وقتها- موضع اهتمام عالمي (يمكن الرجوع إلى نماذج من هذه المواثيق في الملاحق في نهاية الكتاب).

وتدريجياً تحولت هذه المواثيق والإعلانات الدولية لتكون **حركة عالمية لحقوق الإنسان** تنشر ثقافتها، **أو تراقب أي «ترصد»** ما صار يسمى **«انتهاكات» حقوق الإنسان**، وربما كان **القرار الرئاسي الذي أصدره جيمي كارتر عام ١٩٧٧** علامة مهمة على الطريق، **فقد كلف الخارجية الأمريكية بإنشاء إدارة خاصة لترصد أوضاع وتجاوزات حقوق الإنسان في العالم**» وقد اشترط القرار الرئاسي «الربط بين المساعدات الاقتصادية والفنية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية وبين مدى احترام هذه الدول لحقوق الإنسان».

ولم يكن القرار الرئاسي الصادر من جيمي كارتر عام ١٩٧٧ خالصاً لوجه الله أو لدعم حركات حقوق الإنسان بتجرد وإنصاف وإنما كان- في الوقت ذاته- عملا سياسياً بارعاً، فمن خلال جمع البيانات عن أحوال وأوضاع حقوق الإنسان، أمكن للأجهزة الأمريكية **اختراق مجموعة الدول الاشتراكية** حيث كان النظام شمولياً ولا يهتم بمبدأ «الشفافية» ولكنه يقيم الأمور على أنها، إما مع الثورة «الاشتراكية» وإما معادية لها. وتمكنت أمريكا من خلال «إصطيادها» ورصد التجاوزات بانتهاكات حقوق الإنسان، أن **تثير الرأي العام العالمي ضد النظام الاشتراكي**، وقد ساهم ذلك- ولو جزئياً- في أن تتداعى وتتساقط مجموعة الدول الاشتراكية في أوروبا واحدة تلو الأخرى، وكأنها مبنية من كرتون أو ورق، بسبب عدم توافر آليات التصويب الذاتي في بنيتها.

أما بالنسبة لنا- **نحن ابناء الأمة العربية**- لم تتكون أية تنظيمات ذات فاعلية تتعلق بحركة حقوق الإنسان، على الرغم من أن كثرة من المثقفين الليبراليين واليساريين كانوا منبهرين بما يجري في العالم، ويتطلعون لتكوين «تنظيم» يجمع هؤلاء المثقفين، وهو الأمر الذي لم يتم **إلا عام ١٩٨٣**، بمبادرة من **«مركز دراسات الوحدة العربية»** وهو منظمة قديمة تجمع المهتمين - بشكل أو بآخر- لحركة القوميين العرب. ويرأس هذه المنظة- منذ مدة طويلة - **د. خير الدين حسيب**، وهو مناضل عراقي قديم هرب من اضطهاد وقهر النظم العراقية

المتعاقبة واستقر فى لبنان، ومازال يعقد المؤتمرات والندوات لعله يصل إلى **نظرية متكاملة يجتمع حولها المثقفون العرب فى اتجاه «الوحدة العربية الكبرى»** ومن بين ذلك ما رتب له لعقد ندوة عقدت فى مدينة «ليماسول» فى قبرص عام ١٩٨٣، وكان أن فكر أعضاء هذه الندوة فى أن يخصصوا يوماً للنقاش الحر، عقب انتهاء الندوة التى خصصت لفحص قضية **«مستقبل الديمقراطية فى العالم العربى»** فكان أن ناقشوا فى هذا اليوم الأخير فكرة إنشاء **«منظمة عربية لحقوق الإنسان»** لتكون نقطة بداية لتعميق ما هو متاح من مسطح للديمقراطية فى بلاد متفرقة من العالم العربى.

وأذكر- وقتها- أن **فتحى رضوان** الزعيم المصرى المرموق الذى له إسهامات فكرية وعملية فى الفكر القومى والإسلامى، والذى كان لى شرف أن عرفته خلال فترة الاعتقالات الكبرى فى سبتمبر عام ١٩٨١ **وكنت زميلا له فى إحدى الزنازين فيما يسمى «ملحق سجن مزرعة طرة»** - اختير منا بالإجماع فى هذا الاجتماع عام ١٩٨٣ ليكون أول رئيس للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، فقصة حياته ونضاله واعتقالاته المتكررة تؤهله لهذا الموقع الرفيع.

وأذكر أنه من بين من جالوا وصالوا فى اجتماع ليماسول عام ١٩٨٣ المرحومان **د. عصمت سيف الدولة ود. حلمى مراد** وكان مستلفتًا للنظر أن عدداً كبيراً من المشاركين فى تلك الندوة (من مصر) هم ممن تزاملوا ضيوفاً على الدولة تحت عبارة «متحفظ عليهم» فى السجن بطرة قبل ذلك بنحو عامين فى حركة الاعتقالات الكبرى التى شهدتها مصر فى نهاية حكم السادات، وكانت أحد أسباب خلخلة النظام حتى سقط فى ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ كما هو معروف.

وقد ساهمت فى هذا الاجتماع **د. سعاد الصباح** الشاعرة والأميرة الكويتية المعروفة والتى تعضد قضايا الانتماء العربى وحركات حقوق الإنسان، وفى هذا الإطار تبرعت سعاد الصباح بمبلغ ضخم من المال ليكون «**الوقفية**» التى تستثمر فى بنوك سويسرا ليكون إيرادها المورد الرئيسى لتمويل المنظمة العربية لحقوق

الإنسان، وتم شراء شقة تمليك بميدان أسوان بمدينة المهندسين بالعجوزة بالجيزة[*] فكان هذا المكان قبلة كل المثقفين المصريين والعرب الذين التفوا حول مبادىء حقوق الإنسان.

وكانت الثمرة الأولى لهذه المنظمة العربية هي إنشاء فرع لها فى مصر باسم **«المنظمة المصرية لحقوق الإنسان»** وقد اختار لها فتحى رضوان، أحد مريديه ممن كانوا من «شباب» الحزب الوطنى القديم وهو د. محمد إبراهيم كامل الذى كان– وهو فى ريعان الشباب وأثناء الحرب العالمية الثانية– قد أتهم بأنه مشارك فى عملية اغتيال أمين باشاعثمان (وكان وزيراً لمالية مصر فى حكومة الوفد ولكنه كان معروفاً بولائه للإنجليز). وقد اتهم محمد إبراهيم كامل - وقتها - بأنه قد شارك محمد أنور السادات الضابط بالجيش المصرى فى محاولة اغتيال أمين عثمان، ولذلك اختار الرئيس أنور السادات د. محمد إبراهيم كامل عام ١٩٧٨ ليكون وزيراً للخارجية ويستكمل المفاوضات مع إسرائيل بهدفى الوصول إلى اتفاقية سلام، ولكنه استقال قبل أن يكمل المشوار لأن ضميره الوطنى لم يكن مرتاحاً لأن يقوم بهذا العمل وفق الطريقة الساداتية.

المهم فى ظل هذا المناخ، وفى عام ١٩٨٥ أصبح السفير محمد إبراهيم كامل وكان قبلها سفير مصر فى السويد فصار وزير الخارجية الأسبق أول رئيس للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وانتخبت نائباً للرئيس عدة دورات، وظللنا نعمل معاً تحت مظلة المنظمة الأم «المنظمة العربية لحقوق الإنسان» وفى مقر ضيافتها ومن خلال تمويلها، إلى أن عرف بعض الشباب من أعضاء مجلس إدارة المنظمة المصرية بأن هناك ارتكازا لها داخل مصر. وفى هدوء ودون إعلان تم التخطيط لكى تنسلخ المنظمة المصرية عن المنظمة الأم العربية، مكاناً وتمويلا ونهجاً وفكراً وممارسة، فكان ذلك بداية مشجعة لأفراد آخرين لكى يتبعوا النهج ذاته.

[*] تم نقل المنظمة إلى ٩١ شارع المرغنى - بمصر الجديدة - القاهرة

وبدلا من أن تكون هذه المنظمات فى شكل جمعيات أهلية، تحاول أن تسجل فى إطار القانون ٣٢ لعام ١٩٦٤ والمنظم لإنشاء الجمعيات الأهلية لتكون تحت رقابة أجهزة وزارة الشئون الاجتماعية، اختصروا الطريق، واكتشفوا أن حقوق الإنسان ترقى لأن تكون تخصصاً «مهنياً» مثل الطب والهندسة والمحاماة، فأنشأوا لها «مراكز دراسات» وبشكل قانونى مختلف تماماً عن الجمعيات الأهلية فصارت وكأنها مكاتب تقدم «استشارات» فى مجال «حقوق الإنسان». وتسرب من كانوا أمناء المنظمة المصرية واحدا بعد الآخر، وفى سرية وهدوء دعموا علاقتهم الشخصية مع منظمات التمويل الأجنبية كل حسب مواهبه وضميره وخطوطه الحمراء. وهكذا وخلال حقبة التسعينيات تكونت عدة مراكز لحقوق الانسان بعضها تخصص فى التدريب لحقوق الإنسان والآخر فى التبشير بالديموقراطية ومراقبة الانتخابات أو للمساعدة القانونية أو لدعم الوحدة الوطنية، وغيرها كثير وقد أدى كل ذلك لأن حاصرت الحكومة هذه المنظمات عند تعديل القانون كله عام ١٩٩٩.

وهكذا تكونت ثم تشرذمت حركة حقوق الإنسان. وبدلا من أن تصبح «حقوق الإنسان» حركة شعبية تلتف حولها جماهير غفيرة تحميها وتؤمن بها، إذ بأغلبها «شلل» أو جزر، عرفت مصادر التمويل واحتكرت العمل فى هذا المجال وبشكل سرى وكأنها تعيد إنتاج التنظيمات اليسارية والدينية والراديكالية السرية القديمة.

وإذا عدنا من هذه الجولة التاريخية إلى المسار الرئيسى الذى يربط هذا الكتاب بعضه ببعض، نقول **إن وجود حركة حقوق إنسان شعبية ووطنية، وهو إحدى الضمانات لنشر ثقافة وفكر «قبول الآخر»**، ذلك أن مواثيق وبيانات حقوق الإنسان فى مجملها تدعو إلى نبذ التعصب وكافة أشكال التمييز العنصرى، ليس لحماية الأقليات على أنواعها فحسب، وإنما لتحقيق المساواة والعدالة للكافة وتدعو لدعم حركة المرأة وتؤمن حقوق اللجوء السياسى للمضطهدين بسبب

أشكال العنصرية كافة، وتبشر وتنشر النصوص والمواثيق التى تعطى وتؤمن بحقوق الإنسان فى الاجتماع، والتعبير والعقيدة وتقاوم التعذيب وتكفل الحق فى محاكمة عادلة علنية وما إليها، **وكلها قيم تعمل على «قبول الآخر».** وكلما كانت حركة حقوق الإنسان قوية فى وطن أو قطر فإنها غالبا ما تكون من أسباب منع انتشار الصراعات الطائفية والعرقية، ولذلك فإن العمل على تدعيم حركات حقوق الإنسان وإنشاء جمعيات أهلية تنشر الوعى والفكر فى القرى والريف سيكون عملا مؤثراً فى منع انتشار ما صار **يعرف بـ «الحركات الإرهابية» التى تقوم على «كراهية الآخر».** ولو أدركت الحكومات- وبالتحديد فى دول العالم **الثالث- أهمية هذا الأمر، لدعمت وساهمت بالتمويل والتعضيد** لإنشاء منظمات حقوق الإنسان، **ففى ذلك إقلال للنفقات والجهد الذى تبذله الدولة فى المقاومة والاعتقال والتجسس- بأساليب الشرطة- على الأفكار التعصبية التى غالباً ما تنتهى بحوادث القتل على الهوية.**

رابعا: الفكر والمنطق العلمى

مازال أمام العالم سنوات طويلة حتى يسوده الفكر والمنطق العلمى، ذلك أن العديد من دول العالم النامى مازالت ترزح تحت قسوة **الأمية الأبجدية.** وفى بلد مثل مصر، وبرغم الإنجازات الظاهرة فى مجال التعليم الجامعى والبحوث العلمية وما إليها، فإن نصف المجتمع لا يعرف القراءة والكتابة وهو أمر مأساوى كنا نتمنى أن يكون موضع اهتمامات كل من عصور عبد الناصر والسادات ومبارك، وكنا نتمنى أن نرفع شعارات مثل «إقلال نسبة الأمية بين الكبار إلى ٢٥ ٪ فى بحر خمس سنوات» وقد طرحت دول نامية كثيرة شعارات مماثلة وحققتها. ويعزى المحللون نهضة اليابان إلى خطة أسرة ميجى التعليمية فى القرن الماضى حيث جنت اليابان ثمرة غرسها جيل مضى.

أما اليونسكو فقد رفعت عام ١٩٩٥ هدف محو الأمية فى مجال العلم والتكنولوجيا فيما سمى «مشروع ٢٠٠٠»، أى ينبغى تحقيقه مع مطلع القرن ٢١

عن طريق الإلمام كثقافة عامة للشعب المبادىء والإنجازات الأساسية للعلوم الفيزيائية فضلا عن تطبيقاتها في مجالات الطب والزراعة والهندسة أي ما صرنا نطلق عليه عبارة **«التقدم التكنولوجي»**.

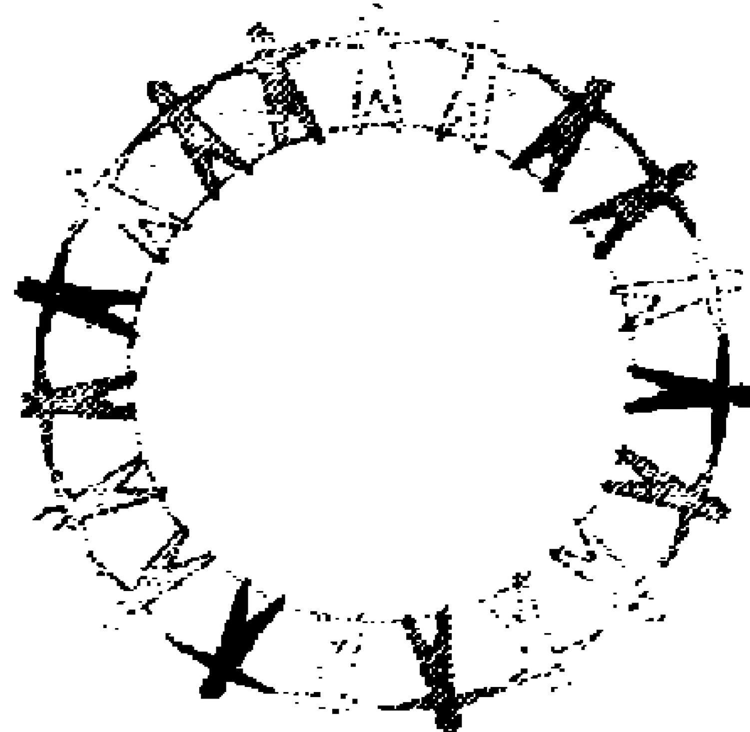
الصورة المقابلة هي أن معظم الدول النامية تخضع **لسطوة الفكر الخرافي وسيادة مفاهيم الحسد والتواكل والقدرية وصولا إلى استخدام السحر** أحياناً، وكل هذه المفاهيم تكون **مرتبطة بالتعصب** على أشكاله **ومن ثم إلقاء اللوم على «الآخر»** متوهمين أن هذا «الآخر» هو سبب التعاسة والفقر. فالطبيعة البشرية **تميل عادة إلى إعفاء «الذات» من اللوم**، ومن ثم ينظر كل منا حوله ويعلل لنفسه أن تعاسته وعدم نجاحه إنما تعود إلى الزميل أو الجار أو الرئيس الذي يضطهده. وأحياناً قد يكون اللوم موجهاً إلى أقرب الناس إليه أي إلى الزوجة أو الوالدين أي باختصار إلى «الآخر» أي آخر وعلى المستوى الجمعي يلُقى اللوم على المجتمع كله أو فريق منه أو دولة مجاورة، ثم يمتد الأمر ليسود فكر: **إن «الآخرين» يتآمرون علينا** وأن جيراننا لا يبغون لنا الخير ويخططون لزرع الفتن وما إلى ذلك، وهي أمور واردة ونعيشها كل يوم، بيد أنها لا تعفي أبداً من الحساب مع النفس داخل الوطن وليس خارجه.

ولذا فإذا ساد التفكير العلمي- الذي يرتكز على تراكم الثقافة بفروعها والمعلومات على أنواعها سنصل كشعب أو أفراد إلى **سيادة العقل** فإنه عندما يجد - اى منا- قصوراً في أدائه يسائل نفسه أولا عن أسباب عدم نجاحه ثم يمارس مفاهيم التصحيح الذاتي، فقد يكون العيب بداخله فيصحح ذاته. وعلى المستوى الجمعي عند ظهور قصور في مجموعة بشرية يكون السؤال: **لماذا تتخلف بلادنا ويتقدم آخرون؟** وهو أمر ثقافي لا ينطبق على المواطن العادي فحسب ولكنه- وبالدرجة الأولى- ينطبق على القيادات السياسية، فما هم إلا بشر مثلنا تكونوا وتربوا ورضعوا لبنا ثقافياً سائداً في الحقبة التي يعيشونها، ومن هنا كانت **أهمية سيادة الفكر والمنطق العلمي في المجتمع**، وهي عملية

صعبة ومعقدة، لأن سيادة الفكر العلمى والثقافة العلمية فى حاجة لمخطط واضح تتبناه الأحزاب السياسية والمؤسسات الثقافية مثل الجامعات والجمعيات الثقافية بأنواعها.

وسيظل الصراع قائماً ومستمراً بين التيار الذى يدعو للتفكير العلمى (وهو عادة التيار الليبرالى والتقدمى وهو ذاته الذى يدعو إلى ديمقراطية حقيقية تقود إلى تداول سلمى للسلطة، وهو أيضا التيار ذاته الذى يدفع آليات دعم المجتمع المدني وحقوق الإنسان) وبين التيار الآخر حيث تتحالف قوى ومؤسسات مبنية على الفكر الغيبى (وهى عادة متحالفة مع قوى مقاومة الديمقراطية ودعم النظم القائمة ولو بشكل غير مباشر وتقاوم إنشاء الجمعيات الأهلية والنقابات باعتبارها نتاجاً للحضارة الغربية التى تقدم لنا حقوق الإنسان بهدف السيطرة علينا). وهذا الصراع بين التيارين والفلسفتين قائم وسوف يستمر - فى مصر وغيرها من الدول المماثلة- لفترة طويلة من الزمن[*].

ومن منطلق موقعى كمؤسس للجنة الثقافية فى المجلس الأعلى للثقافة، أحاول مع زملائى الأعزاء أعضاء اللجنة- وفى إطار المتاح والممكن- أن ننشر الثقافة العلمية، من خلال عقد ندوات ومؤتمرات ليتحدث فيها أساتذة مرموقون يقدمون الجديد فى دنيا العلم وتطبيقاته فى الطب والهندسة والزراعة بما فيها الهندسة الوراثية، لأنه عندما تنتشر الثقافة العلمية من خلال تشويق الإنسان لمعرفة كل ما هو جديد فى مجال العلم وتطبيقاته، **كلما نما لدى الفرد الفكر والمنطق العلمانى، وعندئذ سيتولد تلقائياً مفهوم «قبول الآخر».**



[*] هناك مناطق رمادية، فيما بين هذين التيارين بطبيعة الحال.

الفصــــل الخامس

الاشتراكية الديمقراطية أيديولوچية مناسبة لقبول الآخر

- الصراع قديم بين الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية
- الأحزاب النازية والفاشية تقوم على «كراهية الآخر»
- النظم الشمولية يمينًا ويسارًا لا تساعد على قبول الآخر
- الليبرالية والاشتراكية الديمقراطية تحث على حق الاختلاف والتعددية
- الاشتراكية الديمقراطية لها نكهة أوروبية وليست مقبولة ثقافيًا فى العالم العربى
- قدم حزب السادات طلبًا للاشتراكية الدولية ورفض برغم وعد كرايسكى
- الحــزب الوطنى الديمقــراطى، لا هو بالديمقــراطى ولا بالاشتراكى
- الاشتراكية الديمقراطية تطور نفسها حتى لا تصيبها لعنة «الشيوعية»
- الطريق الثالث مصطلح جديد للاشتراكية الديمقراطية يناسب العولمة والألفية الثالثة

الاشتراكية الديمقراطية
أيديولوجية مناسبة لقبول الآخر

إن كل العوامل التي سبق أن طرحناها لتوفير قبول الآخر مجتمعياً يمكن أن تبلور في شكل **«أيديولوجية»** توفر المناخ العام لقبول الآخر، ذلك أن كل النظم أو **الأيديولوجيات الشمولية** تقوم في الأساس على **«كراهية الآخر»**. وعلى سبيل المثال، فإن الفكر الفاشي أو النازي- كما تم بالفعل في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية - قام على أساس كراهية الآخر، أو تعليق مشكلات المجتمع على الآخر. ففي ألمانيا النازية كانت الركيزة الأولى هي أن **«ألمانيا فوق الجميع»** وفي ذلك الوقت نشروا فكرة أن اليهود هم سبب **المشكلات في المجتمع**، فظهرت عبارة **«معاداة السامية»**، وهرب الآلاف منهم بالفعل إلى خارج ألمانيا وقتل آخرون دون محاكمة عادلة علنية، وكان ذلك أحد المبررات لإنشاء إسرائيل، ودفع عرب فلسطين ثمن أخطاء النازية الألمانية كما هو معروف.

وعلى الرغم من أن الشيوعية أيديولوجية نقيض للفاشية تماماً، فإن الممارسات التي تمت في الاتحاد السوفييتي عبر نحو ٧٠ عاماً (١٩١٧ - ١٩٨٩) كانت تدعو لكراهية الرأسمالية، وبالتالي ناصبت مجمل دول أوروبا الغربية وأمريكا العداء باعتبارها دولاً رأسمالية، وكان رد الفعل هو كراهية مقابلة من أمريكا وأوروبا للشيوعية في حملة ضارية مخططة وفاعلة، وهو الأمر الذي ساد **حقبة الحرب الباردة**. وسخرت أمريكا ممارساتها لزيادة الكراهية بين الاديان والشيوعية، وقام الفاتيكان بوسائل معلنة وأخرى تحتية لتعضيد ذلك، كان أبرزها ما تم من خلال «نقابة التضامن» في بولندا التي أنشأها ليخ فاونسا

ويرى كثيرون أن مناهضة عمال بولندا الكاثوليك كانت بداية تحلل النظم الشيوعية في بولندا، إلى أن صار ليخ فاونسا نفسه (وهو عامل بسيط لا يعرف أية لغة أجنبية) رئيساً للدولة ثم تم الاستغناء عنه بعد أن أدى دوره.

قبل ذلك خطط جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا، في مرحلة الخمسينيات – لاشعال نار الحرب الباردة، فكرياً، ووجد ان مجمل الأديان في العالم يمكن أن تكون حليفاً له في صراعه مع الشيوعية، فأنشأ تنظيماً – باسم «معبد التفاهم The Temple Understanding، **وكان هذا التنظيم مظلة لتحالف الأديان كلها في مواجهة خطر الشيوعية.** وربما كان هذا الأمر نقطة البداية في تقوية جماعات **الإسلام السياسي** من خلال تمويل أمريكي، إلى أن كانت الذروة في تنظيم «المتطوعين» من كل البلدان الإسلامية في فرق **«المجاهدين» الذى تدربوا في باكستان بواسطة خبراء أمريكان،** بهدف العمل مع التنظيمات الإسلامية المسماة أيضاً «المجاهدين الأفغان» في مواجهة النظام الشيوعي الذى كان موالياً للسوفييت.

وعندما قرر **جورباتشوف** الانسحاب من أفغانستان، تفجر الصراع الداخلي بين فرق المجاهدين الأفغان، ومازال الأمر كذلك حتى الآن. ونشأ مرض الحرب بين الفرق التي كانت متحالفة لعل أشهرها هو الصراع بين طالبان ومسعود حتى صار الخطر المسمى «المتمزق الأفغاني» وارداً في دول أخرى فقيرة كانت تتمنى الاستقرار.

ومن سخريات القدر أن الأمريكان والنظم العربية والإسلامية التي قدمت المتطوعين للعمل في أفغانستان، كانوا أول من اكتووا بنار كراهية الآخر من خلال الارهاب فعندما تفكك الاتحاد السوفيتي، وانتهى دور المتطوعين أو المجاهدين في تحرير أفغانستان، انتشر هؤلاء الشباب الذين تدربوا تحت مظلة وكالة المخابرات الأمريكية C.I. A. وصاروا مصدر خطر، وأداة لتصدير الإرهاب الى دول كثيرة.

وعلى الجانب الآخر نجد ظاهرة مماثلة وهى أن اليهود الذين اضطهدوا من النازية تحت أيديولوجية **«معادة السامية»**، (أى كراهية الآخر المسبقة دون سبب شخصى إلا لأن المرأ ينتمى إلى دين معين)، قد صار منهم أحزاباً معادية للعرب بعد أن حصلوا على الهوية أو الجنسية «الإسرائيلية» أى أن النظم السياسية يمكن أن تجد ضالتها فى أيديولوجية «كراهية الآخر» باعتبارها وصفة سحرية للتماسك الداخلى.

وللأسف الشديد، فقد كان **درس التاريخ** فى حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية عند تحليل واقعة تسليم شامبرلن رئيس وزراء انجلترا لهتلر النازى فى ميونخ عام ١٩٣٨، هو أن **أى تنازلات للنظم الفاشية، تؤدى إلى زيادة قوتها وطغيانها**. ولم يكن فى الاستطاعة قهر **النظم الفاشية أو النازية إلا من خلال الحرب العالمية الثانية ويثمن باهظ للأرواح والممتلكات على أنواعها. والعبرة والعظة أن النظم الفاشية لا تترك مواقعها بسهولة ومن ثم تفرض الحرب نفسها بديلا وحيداً ونهائياً، ويوجد فى العالم الآن نظم فاشية كثيرة – كما فى السودان وغيرها – وإن كانت تأخذ أسماء مختلفة.**

* * *

صراع فكرى قديم

وحقيقة الأمر، أنه كان هناك صراع فكرى، بدأ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بين الماركسيين أنفسهم، إذ انقسموا إلى تيار المتشددين والذين أسموا أنفسهم **«شيوعيين»** وتيار آخر أكثر اعتدالاً وليبرالية، لأنه جمع بين **الاشتراكية والديمقراطية**، ومن هنا صار يعرف بالاشتراكية الديمقراطية، وهى أيديولوجية سادت وتطورت من حقبة إلى أخرى، ولكنها مازالت باقية، **وسائدة بالتحديد فى دول أوروبا الغربية**. ووصلت أحزاب «الاشتراكية الديمقراطية» إلى الحكم فى معظم دول أوروبا الغربية وإن كانت قد تمكنت (فى دول إسكندنافيا

بالتحديد: السويد - النرويج - الدانمارك) من أن تستمر فى الحكم لسنوات طويلة حتى صارت **«ثقافة» الاشتراكية الديمقراطية** هى السائدة فى المجتمع. ووصل الأمر لأن تصور البعض - وربما أكون بينهم- **أن النموذج الثقافى والسياسى لمجتمعات دول الشمال هو الشكل الأرقى للمجتمع الذى يعبر عن** تطبيق «الاشتراكية الديمقراطية» وربما كان ذلك أحد أسباب ارتباطى الوجدانى بالسويد.

جاء تعريف «الاشتراكية - الديمقراطية» فى معجم الشيوعية العلمية (من إصدارات دار التقدم - موسكو)، على أنها تيار فى الحركة العمالية العالمية المعاصرة ينطلق **من مواقع الاشتراكية الإصلاحية** (الارتقائية). وتتميز الاشتراكية - الديمقراطية باختيارها **الطرائف السلمية والتدريجية فقط،** أى الإصلاحية، والسعى لأن **يستبدل النضال بالتعاون الطبقى،** وتصوير الدولة على أنها «فوق الطبقية» وفهم الاشتراكية باعتبارها مقولة أخلاقية أدبية والأطروحات الفكرية السياسية للاشتراكية الديمقراطية تتعارض مع الاشتراكية البروليتارية الثورية، أى مع النظرية «الماركسية اللينينية».

ويستكمل المعجم التعريف، فيتطرق إلى تاريخ نشوء مصطلح الاشتراكية الديمقراطية وإلى أساس الحركة الحزبية التى قامت عليه وتطورها، وهنا نجد صفات مثل : الانتهازية/ التحريفية/ طبيب لدى سرير الرأسمالية المريضة/ تغلب اليمينية والشوفينية/ التخلى نهائيًا عن الماركسية لصالح الأيديولوجيا الاصطفائية (التعددية)/ التبعية للنظام الرأسمالى .

وبرغم كل هذه الأوصاف فإن التعريف ينتهى بعبارة جاءت فى **تقرير برجنيف** السكرتير العام إلى المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى يقول فيها: «لا ريب أننا لن نقبل حتى بمجرد التطرق إلى أى تقارب أيديولوجى بين الشيوعية العلمية وبين إصلاحية الاشتراكيين الديمقراطيين الذين **يعون مسئوليتهم حيال قضية السلام،** إذ يجمعنا وإياهم الحرص على أمن الشعوب والسعى لكبح جماع التسلح وردع الفاشية والعنصرية والاستعمار».

وهناك تفاصيل كثيرة تحكى تاريخ هذا الصراع غير المبرر غالباً بين الشيوعية أى الماركسية – اللينينية وبين الاشتراكية أى الماركسية الممزوجة بالليبرالية، والتى نشأت وترعرعت فى أوروبا الغربية لنحو قرن من الزمان ووصلت إلى الحكم بطرق سلمية شرعية دون عنف فى العديد من دول أوروبا الغربية، ومازالت كذلك.

فقد عاد عام ١٩٩٧ «تونى بلير» لقيادة حزب العمال البريطانى إلى الحكم ولكن برؤية جديدة، وكذلك الحال فى فرنسا، وينتظر أن يفوز الحزب الاشتراكى الديمقراطىSPD فى ألمانيا فى الانتخابات عام ١٩٩٨[*]، ولذا فإن الأمر قد يستدعى إلقاء بعض الأضواء على التغيرات التى حدثت، وينتظر أن تحدث فى أيديولوجية «الاشتراكية الديمقراطية إلى ما صار يعرف بالطريق الثالث فقد اختفت الطبقة العاملة المتشددة حتى فى دول أوروبا وحل محلها طبقة وسطى اكثر رفاهية.

دعنى أقطع هذا السياق التاريخى الأوروبى لكى أروى ماذا جرى فى مصر فيما يتعلق بـ «الاشتراكية الديمقراطية» لأن هذه الجزئية التاريخية لم يلق عليها ضوء كاف وقد تندثر مع التاريخ بين طيات الحركات الأصولية من جانب وتفجر ثم تعثر الليبرالية فى معظم بلدان العالم العربى.

هل توجد جذور للاشتراكية الديمقراطية فى مصر؟

واقع الأمر، هو أن أيديولوجية «الاشتراكية الديمقراطية» ليس لها جذور أو قواعد جماهيرية، فى مصر ولا فى معظم بلدان العالم العربى، ذلك أن الثقافة – على تاريخها الطويل– كانت أميل **للالتفاف حول نصوص قطعية تقدم دليل الفكر والعمل،** وغالباً ما يتجسد ذلك فى رمز أو فرد له شخصية كاريزمية، لذلك أمكن لأيديولوجية الماركسية – اللينينية أن تتواجد فى العالم العربى فى شكل جزر

[*] كتبت هذه المقولة قبل إجراء الانتخابات وقد فاز الحزب بالفعل عام ١٩٩٩.

قوية متماسكة هنا وهناك، بل وصارت مؤثرة في الواقع السياسي المصرى - كا في بعض بلدان العالم العربي - مثل سوريا ولبنان والسودان والأردن والعراق، ولكنها لم تتحول لتكون حركة شعبية عامة إلا في لحظات تاريخية خاصة كانت مرتبطة بحركة التحرر الوطني أساساً مثلما هو الحال **مع منظمة حدتو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني»** إذ كان لها دور تاريخي مع حركة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢.

وقد أمكن لأيديولوجية حزب البعث الاشتراكي أن تجد لها مكاناً عند بعض الجماعات من المثقفين، وأن تخترق تنظيمات القوات المسلحة حتى أمكنها الاستيلاء على السلطة كما حدث في العراق وسوريا ولكنها لم تتحول - في الواقع العملي - إلى حركة شعبية جماهيرية واسعة إلا عندما **تبنى عبد الناصر أفكار وشعارات حزب البعث الاشتراكي** ولكنه طورها عندما قام الأستاذ محمد حسنين هيكل بتمصيرها في نصوص **«الميثاق»** الذي صار الوثيقة الفكرية لحزب أو تنظيم **الاتحاد الاشتراكي العربي،** ثم قام بتغيير هذه الايديولوجية فأسماها بـ**«الاشتراكية العربية»** وعندئذ تحولت لأن تكون أيديولوچية **«ناصرية»،** وقد نلاحظ أن تنظيمات الاتحاد الاشتراكي العربي في الستينيات كانت متأثرة - إلى حد كبير- بما مارسه الرئيس جوزيف بروز تيتو في يوغسلافيا قبل ذلك.

وفي هذا الإطار، عندما وصل الرئيس السادات إلى الحكم ثم قام بالانفراد بالسلطة وعزل ثم حاكم رفاقه في رحلة عصر عبد الناصر، رغب في أن يبني حزبه وعهده بفكر جديد، وقد ساعده في ذلك بعض المثقفين المصريين ممن عايشوا الناصرية وتنظيماتها، ولكنهم خرجوا عليها مع السادات، ولذلك - وبعد نجاحه في الحركة التي أسماها «ثورة التصحيح» في ١٥ من مايو عام ١٩٧١- قام بصياغة الدستور المصرى الجديد في ١١ سبتمبر عام ١٩٧١ وتم تعديله باستفتاء أخر في ٢٢ مايو عام ١٩٨٠. ومن عجب أن المادة الأولى لهذا الدستور، والذي مازال سارياً حتى الآن، على الأقل من ناحية الشكل تنص صراحة على ما يلي:

مادة ١: جمهورية مصر العربية دولة نظامها اشتراكي ديمقراطي يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة.

وحقيقة الأمر، أن الرئيس السادات قد رغب في أن يخرج من عباءة عبد الناصر، أى من الميثاق والاشتراكية العربية، فكان أن فكك الاتحاد الاشتراكي العربي - أول الأمر- إلى ثلاثة منابر في ابريل ١٩٧٦ ثم تركها لاختيار القوة، فتصارعت في انتخابات أكتوبر عام ١٩٧٦ وبعدها تحولت بقرار منه إلى أحزاب مستقلة، وبعد ذلك بنحو عام أو أكثر انضم إليها **حزب العمل الاشتراكي** بقيادة المهندس إبراهيم شكرى الذى كان أمين المهنيين للاتحاد الاشتراكي العربي، وقد انضم لقيادة هذا الحزب الاستاذ / محمود أبو وافية بمباركة من السادات، ثم انضم إلى الحزب أيضاً د. حلمي مراد وزير التربية والتعليم في عهد الرئيس عبد الناصر وقد صار نائب رئيس الحزب بعد ذلك واستمر د. حلمي مراد المنظر والمفكر والرائد للحزب يجمع بين الفكر الليبرالي القانوني الممزوج باشتراكية ذات نكهة إسلامية إلى أن مات عام ١٩٩٨.

ثم كان أن وافق السادات على إعادة إنشاء حزب الوفد عام ١٩٧٨ وأخذ اسم **«الوفد الجديد» برئاسة فؤاد باشا سراج الدين.** ومن خلال انتخابات تكميلية في دائرة الجمرك بالإسكندرية كانت هناك مبارزة كلامية عبر خطب عامة بين السادات وفؤاد سراج الدين حيث تبادلا الاتهامات والعبارات العنيفة وكلف السادات مستشاره الصحفي موسى صبرى بأن يفتح النيران على فؤاد سراج الدين.

وفي ١٧، ١٨ يناير ١٩٧٧ كانت الهبة الشعبية التلقائية نتيجة صدور قرارات رفع أسعار المواد الغذائية الأساسية بشكل مفاجيء ودون إعداد الرأى العام لقبول هذا القرار الخطير، فكانت المظاهرات التى عمت مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان. كل ذلك جعل السادات يشعر بأن تجربة الديمقراطية قد لا تحمد عقباها، فكان أن قال إن **«للديمقراطية أنياباً»**. وفي الوقت ذاته كان في

حاجة إلى واجهة ديمقراطية تجمل شكل الحكم **وكان الحل هو فى تبنى «الاشتراكية الديمقراطية»** والتى اعتقد السادات **أنها البديل لعبارة «الناصرية» أو «الاشتراكية العربية»** وما إلى ذلك، وكان على اتصال مستمر بقيادات أوروبا فى مجملها من تيتو فى يوغسلافيا إلى تشارشسكو فى رومانيا - والذى زين له مغامرة **زيارة القدس فى ١٩ من نوفمبر عام ١٩٧٧ - إلى كرايسكى رئيس ومستشار النمسا** وهو يهودى ومن قيادات الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا والذى **أقنعه** بأنه قادر على أن يجعل الحزب الوطنى الديمقراطى (الحزب الذى أسسه ورأسه السادات عام ١٩٧٩) عضواً، فى المنظمة الدولية لأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، وهى المسماة **الاشتراكية الدولية** Sociaist International لأن هذه العضوية كفيلة بأن تقدم السادات بأنه رئيس حزب له نكهة «اشتراكية» فلا يهاجم من الناصريين أو الشيوعيين، كما أنها تعطيه خاتم النسر الدولى بأنه قد صار «ديمقراطياً»، وهذا الأمر يؤكد أنه قد خرج عن عباءة الشمولية التى كان عبد الناصر يتصف بها، **وبالتالى يكون له قبول عام فى الغرب.**

على أن قصة دخول الحزب الوطنى الديمقراطى - الحزب الحاكم فى مصر - ليكون عضواً كامل العضوية فى منظمة الاشتراكية الدولية، قصة ذات دلالة، بدأها السادات عام ١٩٧٩ ولكنها لم تتحقق إلا بعد ذلك بعشر سنوات فى المؤتمر الدولى للاشتراكية الدولية والذى عقد فى إستكهولم عام ١٩٨٩، ولذلك تفاصيل عاصرت بعضاً منها فوجدت من المناسب أن تسجل على ورق قبل أن يأكلها التاريخ.

فى نوفمبر عام ١٩٨٠، سافرت إلى مدريد لحضور المؤتمر الدولى للاشتراكية الدولية، ممثلا لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى باعتبارى رئيساً للجنة العلاقات الخارجية للحزب، وكنا قد تلقينا دعوة من الاشتراكية الدولية تعطينا حق الحضور باعتبارنا حزباً سياسياً **ولكن بصفة «مراقب»** أى

حضور الجلسات العلنية المفتوحة دون المشاركة في المناقشات أو التصويت **أو حضور جلسات العمل المغلقة** لبحث أجندة المنظمة ومن بينها التصويت على قبول طلبات الأحزاب الجديدة التى تتقدم للحصول على العضوية الكاملة للمنظمة الدولية.

وقد دهشت بمجرد وصولى إلى مدريد بأخبار تفيد أن هناك حزبين مصريين آخرين قد حصلا على حق الحضور بذات الصفة أى كحزب «مراقب» وهما **الحزب الوطنى الديمقراطى** وكان يمثله كل من **د. بطرس غالى** وزير الدولة للشئون الخارجية وقتها ويرافقه **الاستاذ كمال الشاذلى ود. مصطفى السعيد** -والذى صار وزيراً للاقتصاد عام ١٩٨٤- ثم د. محمد عبداللاه رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب وهو وفد ضخم ليؤكد الاتفاق مع كرايسكى - أن الحزب سيصير له العضوية الكاملة، وهو الأمر الذى لم يتم فى مؤتمر عام ١٩٨٠. وكان ممثلاً لحزب العمل الاشتراكى الدكتورة ليلى تكلا، وكانت متحمسة لأن ينضم حزبها (حزب العمل الاشتراكى) والذى كانت له نكهة اشتراكية فى تلك الحقبة ثم تحول تدريجياً ليكون أحد ألوان الطيف فى مجمل التيار الإسلامى السياسى). وكانت د. ليلى تكلا قد بذلت جهدا هائلاً فى ترجمة وثائق الحزب وبرامجه لكى تؤهله للارتقاء من موقع «مراقب» إلى موقع «العضوية الكاملة» فى الاشتراكية الدولية، وهو الأمر الذى لم يتحقق عند التصويت على الأحزاب الجديدة المقبولة.

والحزب الوحيد الذى كان قد قبل من المنطقة العربية هو **الحزب الاشتراكى التقدمى فى لبنان** والذى يتزعمه - ولا يزال - وليد جنبلاط، وكان يمثله فى هذه الاجتماعات **دريد ياغى**، وهذا الحزب - فى مجمله - ينتمى أغلب أعضائه إلى طائفة الدروز. وقد انضم خلال السنوات العشر الأخيرة كذلك الحزب الحاكم فى تونس «الحزب الدستورى» وكذلك حزب التجمع الاشتراكى للقوى الشعبية فى المغرب وكذلك قبل حزبان بصفة استشارية هما جبهة القوى الاشتراكية التى يرأسها حسين آية أحمد فى الجزائر وحركة الوحدة الشعبية التونسية.

وكان الأستاذ خالد محيي الدين قد أوصاني بأن أتصل فور وصولي بالأستاذ **عصام سرطاوي**[*]**، وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية** في تلك الحقبة الدقيقة من حلقات الصراع العربي - الإسرائيلي، وكانت له شبكة اتصالات واسعة مع معظم قيادات الأحزاب في أوروبا، وأتصور أنه كان ممن مهدوا في وقت مبكر لحوار «الكواليس» غير المعلن مع بعض الشخصيات الإسرائيلية. وقد عرفت أنه كان من بين الأشخاص الذين قاموا بجهد في هذا الحوار هانس يوجن فشنفسكي HANSJ. WISCHENSKY والذى كان ممثلا للحزب الاشتراكى الألمانى ورئيس لجنة الشرق الأوسط بالحزب وكان له موقعه فى الاشتراكية الدولية، وعبر السنين كون صداقات واتصالات بكل من بلدان العالم العربى وإسرائيل، ولذلك كنت متصورا أن فشنفسكي كان أكثر قدرة وديناميكية ليصل إلى اتفاق يناظر ما صار يعرف الآن **باتفاقيات أوسلو**، ووقتها كان من الممكن الوصول إلى مذكرة تفاهم بون مثلاً.. ذلك أن مجال الاشتراكية الدولية كان مناسباً لإجراء حوارات مع حزب العمل الاشتراكى فى إسرائيل، ذلك أن **شيمون بيريز** كان أحد نواب الرئيس فى المنظمة الأم أى الاشتراكية الدولية، وأن أسرائيل كانت من الدول القليلة الممثلة بحزبين فى الاشتراكية الدولية أعنى بهما حزب العمل الإسرائيلى الذى كان يقوده إسحق رابين إلى أن تم اغتياله فى أواخر عام ١٩٩٥ وحزب، آخر باسم اتحاد العمال فى إسرائيل المعروف اختصارا باسم مابام MAPAM، ولكن ليس له الشهرة السياسية ذاتها مثل حزب العمل الإسرائيلى.

أياً ما كان من أمر ،فإن عصام سرطاوى - والذى تم اغتياله فى أوروبا بعد ذلك بسنتين أو ثلاث - قد قدمنى إلى العديد من قيادات الاشتراكية الدولية من بينهم **أولف بالم**[*] **OLOF PALME** رئيس وزراء السويد والذى اغتيل عام

---

[*] اغتيل سرطاوى عند حضوره مؤتمر الاشتراكية الدولية فى لشبونة عام ١٩٨٣ ففقدت برحيله منظمة التحرير الفلسطينية فارساً وطنياً ليبرالياً عظيماً.

[*] الطبعة الأولى من هذا الكتاب كانت مهداة لهذا الرجل العظيم.

١٩٨٦ وهويغادر دار سينما معبراً عن بساطة الحياة لأى رئيس وزراء فى العالم، **وفيللى برانت رئيس الاشتراكية الدولية** حتى مماته عقب انعقاد المؤتمر التاسع عشر فى برلين فى سبتمبر ١٩٩٢، وكان هذا هو أمله الذى سعى إليه لأنه كان عمدة برلين طوال سنوات الحرب الباردة، وعاش إلى أن تحطم هذا الحائط البالغ الدلالة، وعادت برلين غير مجزأة إلى العالم الغربى. وتعرفت كذلك على كرايسكى، وهو شخصية فذة نفاذة، والذى سألنى: «لقد تقدم كل من الحزب الوطنى الديمقراطى (حزب الرئيس السادات) بطلب عضوية كاملة للمنظمة الدولية، كذلك تقدم حزب العمل الاشتراكى (والذى نسمع أن له نكهة إسلامية) **فلماذا لم يتقدم حزب التجمع التقدمى بطلب مماثل؟ فقد سمعت أن حزبكم واضح فى انتمائه إلى الاشتراكية وربما كان طلبه سيمر بشكل أكثر يسراً فيما لو كان قد تقدم»**، ولم أستطع أن أجيبه، إذ أننى لم أكن على يقين بأن الحزبين المصريين الآخرين قد قدما طلبات انضمام للعضوية الكاملة، وظل السؤال معلقاً إلى أن عدت للقاهرة، وطرحت الأمر على الأستاذ خالد محيى الدين الذى علل الأمر: بأن الاشتراكية الدولية منحازة بشكل واضح لإسرائيل، وتقديم طلب انضمام من حزبنا قد لا يرحب به فى العالم العربى لأن موقف حزب التجمع واضح فى أنه يسعى للوحدة العربية ومن هنا كانت عبارة «الوحدوى» ضمن توصيفاته فى عنوانه.

ومن خلال عصام سرطاوى، تعرفت إلى أحزاب أخرى أصغر، وكانوا يسألوننى: **ما رأيك فى حزب السادات؟** وهل تتناغم أو تتفق برامجه وتوجهاته مع الأيديولوجية العامة للاشتراكية الدولية ؟ **وكانت إجابتى فى عبارة قصيرة وهى: أن هذا الحزب ليس ديمقراطياً** (لأن للديمقراطية أنياباً فيصادر الصحف ويضطهد الأحزاب الأخرى)، **ولاهو باشتراكى** (لأن سياسته الاقتصادية تقوم على الانفتاح الاقتصادى الذى يتضمن العودة إلى النظام الرأسمالى على حساب إقلال المكاسب الاشتراكية التى تحققت أيام جمال عبد الناصر).

وعلى أي حال، **فإن الحزب الوطنى الديمقراطى – عند التصويت فى جلسات العمل المغلقة لم يحصل على الأصوات التى تؤهله لأن يقبل عضواً كامل العضوية فى الاشتراكية الدولية،** وظل الأمر على هذا النحو إلى أن تم ما تم فى سبتمبر عام ١٩٨١ من حركة اعتقالات واسعة ثم رحيل الرئيس السادات فى ٦ من أكتوبر عام ١٩٨١، وتولى الرئيس مبارك المسئولية، ثم صرت رئيس لجنة الإسكان بمجلس الشعب فى ٢٤ من يونيو عام ١٩٨٤.

فى عام ١٩٨٧ صار مطروحاً فى الكواليس إمكانية القيام بمحاولة ثانية ليكون الحزب الوطنى الديمقراطى عضواً فى الاشتراكية الدولية، وكان المناخ مواتياً، وتم التصويت فى مؤتمر الاشتراكية الدولية، الذى عقد فى إستكهولم عام ١٩٨٩، وهكذا أصبح الحزب الوطنى المصرى عضواً فى الاشتراكية الدولية. وقد حضر مؤتمر برلين– حسبما جاء فى وثائق المؤتمر – كل من: د. مصطفى خليل، أباظة فهمى، فاروق رخا، عبد الرحمن شديد، محمد الزرقانى (ولا أعتقد أن أياً منهم – فيما عدا د. مصطفى خليل – معروف لدى الرأى العام المصرى بأن له نشاطاً سياسياً، أو أنه عضو فى الحزب الوطنى الديمقراطى، أو أنه ينتمى إلى فكر ومبادىء الاشتراكية الديمقراطية).

ومن عجب أن الحزب الوطنى الديمقراطى بدلا من أن يتحول لأن يكون حزباً له أيديولوجية فى اتجاه «الاشتراكية الديمقراطية» إذا به **يتحول لأن يكون وكأنه إدارة أو تنظيم تابع ومرتبط ومتداخل مع أجهزة الدولة،** ينشط بالفعل فى مواسم الانتخابات وتنتهى مأموريته بانتهاء إعلان نتائج الانتخابات المحلية أو لمجلس الشعب أو لمجلس الشورى. ولأن فاقد الشىء لا يعطيه، ولأن المواقع المختلفة فى الحزب هى بالاختيار، لذا لا تجرى داخل الحزب انتخابات بالمعنى الحقيقى، فكان **أن اختفت «الديمقراطية» فى مصر كلها،** كما أن شعار «الاشتراكية» غير موجود إلا فى المادة الأولى من الدستور – كما سبق الذكر – لذلك فإن ارتباط الحزب الوطنى بالاشتراكية قد ضمر حتى أصابه السكون والموات، فيما **عدا هذا**

العضوية الورقية والموسمية مع الاشتراكية الدولية عندما ينعقد مؤتمر عالمي كل عدد من السنين، وهو أمر مظهرى يتضمن سفرات وبدل سفر دون أى فاعلية أو تفاعل.

هكذا تكون أيديولوجية «الاشتراكية الديمقراطية» غير موجودة فى مصر – ولا حتى من ناحية الشكل – وتبقى قضية أعم وأهم وهى : ما مصير هذه الأيديولوجية على مستوى العالم؟ وهل ستتطور لتواكب المتغيرات العالمية، أم يكون مصيرها كمصير الأيديولوجية الشيوعية»؟ وهو الأمر الذى نختتم به هذا الفصل.

نحو أيديولوجية «اشتراكية - ديمقراطية» تناسب العصر

أمام أيديولوجية الاشتراكية – الديمقراطية تحد مهم يتلخص فى قدرتها على أن تطور نفسها وفق المتغيرات الدولية الجديدة التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين، أى التقدم التكنولوجى ثم ثورة المعلومات فضلا عن التغيرات التى نجمت عن كل ذلك، ومنها الاستعاضة عن القوى البشرية للعمال – وحتى الموظفين أصحاب الياقات البيضاء – بمعدات إلكترونية تتقدم عاما بعد عام، ثم ما حدث من العولمة الاقتصادية، **فكان أن استقرت ظاهرة البطالة فى معظم دول العالم والتى تبدو كأنها بلا حل جذرى. ولم تعد التفسيرات السابقة والعتيقة التى قدمتها الماركسية فى القرن ١٩ كافية لتفسير ظاهرة «البطالة»؛** كما تلاحظ الفجوة والتفاوت اللذين يزدادان بين مجمل الدول الثرية ومجمل الدول الفقيرة ويشار إليها عادة بعبارة التفاوت بين الشمال والجنوب، فضلا عن التفاوت.. والفجوة الاقتصادية التى تزداد اتساعا بين الفقراء والأثرياء فى داخل كل قطر، ثم كان أن ظهرت مشاكل اضطراب فى البيئة نتيجة عدوان البشر عليها وتفاقم ظاهرة «تلوث البيئة» مما أوجد «حركة الخضر» فى العالم منذ حقبة السبعينيات وصار لها أحزابها المستقلة والتى يزداد عدد مؤيديها والمهتمين بها عاماً بعد عام. ومن التطورات أيضاً علاقة كل ذلك بمواثيق حقوق الانسان وقد غدت حركة عالمية (نقدم فى الملاحق لهذا الكتاب نصوص الإعلانات الدولية

المسماة «حقوق الأقليات» والتى اعتمدت فى ديسمبر عام ١٩٩٢ ثم وثيقة القضاء على التعصب والتمييز الدينى الصادرة فى نوفمبر عام ١٩٨١ وغيرها).

وهناك سؤال أكثر صعوبة وهو: **هل سيظل فكر الاشتراكية الديمقراطية مقصوراً على أوروبا الغربية وحدها،** أم سوف ينتشر ليكون مقبولاً عالمياً شرقاً فى أوروبا الشرقية ثم غربًا فى أمريكا ثم جنوبًا فى الدول النامية..؟

وقد تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلى عرض لما يجرى على ساحة فكر المهتمين بتطوير أيديولوجية «الاشتراكية – الديمقراطية» وهو جهد نظرى ممتد ومتباين، ولكننى أكتفى هنا بالإشارة إلى **توماس ماير** وقد صار **أستاذ العلوم السياسية بجامعة درتموند عام ١٩٩٤** بعد أن ساهم فى عهد فيللى برانت فى تطوير توجهات الاشتراكية الدولية وربط بين الأفكار السياسية والتطبيق، إذ عمل لسنوات مديراً لأكاديمية جوستان هينيمان التابعة **لمؤسسة فريدريك ريبرث** وهو التنظيم المنتشر فى بلدان كثيرة (من بينها مصر) لتقدم خدمات ثقافية مرتبطة بتوجهات الحزب الاشتراكى الألمانى.

وفى دراسة نشرت أخيراً فى يوليو عام ١٩٩٦ بعنوان «التحديات المعاصرة للاشتراكية الديمقراطية» كتبها د. توماس ماير[*]، نقتبس منها العبارات الآتية :

- تهدف الورقة لمناقشة **«أزمة» الاشتراكية الديمقراطية** التى طبعت حياة أوروبا لفترة طويلة ومهمة من حياتها وتطورها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. والتحدى الرئيسى الذى تواجهه الاشتراكية الديمقراطية هو تحدى **«الهوية»** وتبرير الاستمرارية بعد أن استنفدت أغراضها، كما أن أحزاب هذا التيار تتعرض لمراجعة نقدية واسعة حتى تتواءم مع المتغيرات الدولية المعاصرة مثل العولمة الاقتصادية وتعقد الحياة الاجتماعية والسياسية وبروز تيارات متفاوتة الحظ نتيجة آثار التحديث. فضلاً عن التحديات فى مجال البيئة والانقسامات الداخلية فى الأحزاب.

[*] نشرت هذه الدراسة باللغة العربية مؤسسة فريدريك إيبرت الألمانية فى مصر، وهذه المؤسسة تقدم الخدمات الثقافية ذات النكهة الاشتراكية الديمقراطية.

إن كل ذلك يشكل تحديات أمام الاشتراكية الديمقراطية، **غير أنها لا تزال التيار الأكثر قدرة وتأهلا على مواجهة هذه التحديات المعاصرة، بعد أن تقوم بعملية تجديد شاملة فى بنائها الداخلى.**

- على إثر انهيار الشيوعية، انقسم الرأى العام إلى فريقين يتشابهان فى المغزى الحقيقى لمقولاتهما، الأول يقلل من أهمية الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها تياراً سياسياً، **والآخر ينظر إلى مقولات الاشتراكية الديمقراطية من خلال أزمة واندحار الشيوعية.**

إن المجتمعات الصناعية تشهد درجة متزايدة من التعقيد، كما أن الاقتصاد الدولى يتجه إلى العولمة، والعلاقات الخارجية تتشابك عبر أنحاء العالم **والنموذج الشيوعى لاقتصاد الدولة قد انهار تماماً.**

لم يعد من الممكن واقعياً قبول الأفكار الاقتصادية الكبرى مثل **التخطيط المركزى والملكية العامة لوسائل الإنتاج وإمكانية بناء اقتصاد جديد عادل وغير معرض للأزمات.**

- منذ قرابة قرنين من الزمان، تشهد أوروبا ما يمكن أن نسميه **«ثورة صامتة»** تصطحب نوعاً من التغيير فى منظومة القيم لدى قطاعات متزايدة من الشباب والفئات الأفضل تعلماً والأكثر تحضراً فى المجتمع، بينما نجد الفئات الأكبر سناً والأكثر اهتماماً بالإنتاج والتصاقاً بالقيم التقليدية والتوجهات المادية العريقة فى الغرب، لا تزال على توجهاتها الأساسية من حيث إعلاء أهمية الأمن الذاتى والسعى إلى زيادة الدخول والاستهلاك وتطوير المستقبل المهنى والتأييد الجامح للأشكال التقليدية للسياسات الحزبية.

نلاحظ أن قوى معسكر اليسار قد انقسمت على نفسها، فهناك فريق من اليسار لايزال يحافظ على القيم المادية مع تغليف مقولاته بمسحة يسارية، وهناك فريق آخر – وهو الذى يضم الفئات الشابة فى الأغلب – يتحدث عن قيم ما بعد المادية، وهم يعملون فى المجالات الثقافية (حوالى ٢٠ ٪).

• إن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية **ليست مطالبة بالتجديد السياسى فحسب** وإنما هى أيضاً مطالبة بالتغلب على نوعية جديدة من التحديات الثقافية الاجتماعية التى تشهدها أوروبا اليوم ولا توجد إستراتيجية واضحة المعالم وفعالة فى مواجهتها.

• إن الجمهور المستهدف بالنسبة لأحزاب الاشتراكية الديمقراطية يضم نوعين من الأفراد، وهم **عمال النقابات المنظمين** وممثلو الفئات الاقتصادية الوسطى والموظفون والبيروقراطيون، والثانى يمثله المدرسون والمثقفون والطلاب والمشتغلون بالحقل الثقافى والعمل الاجتماعى وطلاب المدارس الثانوية.. وهؤلاء ينتمون فى أغلبهم إلى منظومة قيم ما بعد المادية.

* * *

إن هذه العبارات -كنماذج- تدل على الأزمة التى تواجهها الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا، وهو أمر يحتاج إلى طرح فى بلادنا حتى نفهم ماذا يجرى من حولنا.

وهناك ورقة أخرى للمنظر ذاته د. توماس ماير بعنوان «الأصولية السياسية فى العالم المعاصر»، ربما تكون أكثر دلالة بالنسبة للقضية المطروحة فى هذا الكتاب فيما يتعلق بـ «قبول الآخر» نقتبس منها العبارات التى تعطى وجهة النظر الأوروبية بالذات النكهة الاشتراكية الديمقراطية نذكر منها:

• تسعى هذه الورقة لمراجعة ما تعتبره «سوء فهم» حول العلاقة بين «الثقافة الدينية والأنماط الحضارية من ناحية وتيارات أصولية دينية ذات طابع سياسى متشدد من ناحية أخرى»، هناك دائماً عدة أنماط ثقافية سياسية متنافسة داخل الحضارة الواحدة أهمها الاتجاهات الليبرالية والتقليدية ثم الأصولية. فالأصولية تيار ونمط حضارى يوجد فى أغلب الأديان، ولكن ليس بصحيح اعتقاد أو قبول زعم الأصولية أنها المرادف «للدين» أو ما

تراه جهادها الأكبر وهو «مقاومة الحداثة» فالأصولية تيار سياسي يزدهر في ظروف الأزمات بوجه عام.

- إن المتابع للتيارات الثقافية في مختلف أنحاء العالم، يلاحظ أن هناك سوء فهم في نظرتنا للأصولية، بحيث نميل إلى ربط هذه الأصولية بأديان أو ثقافات محددة ممايجعلنا نعتقد أن التيار الديني سوف يتنامى لا محالة في هذه الثقافات، وبالتالي سوف يعزز مزيداً من الأصولية السياسية بها، وقد شاعت هذه النظرة في الوقت الحالي على اتساع نطاق الجدل حول الأصولية خصوصاً بفعل الأفكار الهشة التي يقدمها عالم السياسة الأمريكية الشهير صموئيل هانتنجتون. إن الحكمة تقتضي إذن أن نحاول التخلص من تلك النظرة الضيقة والفكاك من أسر هذه المسلمات الفكرية غير الواقعية.

- هناك أنماط حضارية أصولية وأخرى غير أصولية تتعايش معاً في جميع الثقافات الدينية في العالم، وهذه الأنماط تتنافس فيما بينها في التعبير عن الموروث الثقافي، وهذا الأمر المهم قد أبرزته الدراسة المهمة التي أجراها مارتن مارتي وسكوت أبليبي تحت مظلة الأكاديمية الأمريكية للعلوم والآداب.

وهكذا فإن مختلف ثقافات العالم تحتوي على ذلك التمايز والتنافس بين الأنماط الحضارية التي تعيش داخلها، سواء أكانت الثقافة كنفوشية أم بوذية أو هندوكية أم إسلامية أم مسيحية. [لاحظ هنا الفرق الواضح بين هذا التوجه الراقي المبني على قبول الآخر وعلى الخلاف والتمايز بين الأنماط الحضارية لكل ثقافة أو حضارة وبين مفهوم صموئيل هانتنجتون الذي يبث الكراهية بحتمية الصراع بين الحضارات][*]:

- في معظم ثقافات العالم توجد ثلاثة أنماط حضارية أساسية هي:

[*] العبارات التي بين القوسين تعليق من مؤلف الكتاب.

أولا : النمط التقليدى:

وهو نمط حضارى يعلى من شأن التقاليد وأساليب الحياة الموروثة عبر مراحل التطور التاريخي ويدافع عنها ضد الاتجاهات التحررية والتحديثية وفى مواجهة التأثيرات «الأجنبية».

ثانياً : نمط الحداثة أو الليبرالية:

وهى تأخذ من الموروث الثقافى بالقدر الذى يعزز نطاق الحرية الفردية ويدعم اتجاهات العقلانية والتعددية (أى قبول الآخر).

ثالثاً : نمط «الأصولية»

وهو نمط حضارى يرتكز على أحد المنظورات العتيقة [والتى يتصورها عريقة] فى الموروث الثقافى، ومن ثم تكون العقيدة الأساس المطلق [والوحيد]، لتحديد الهوية وتبرير المقولات التراثية، ولذا فهى منزهة عن الشك ويسعى أصحاب الأصولية لفرضها على الآخرين وإعادة تشكيل الحياة الثقافية والسياسية بأسرها وفقاً لهذا المنظور، وعادة ما يترتب على هذا النمط المقلق تحريم القيام بأى محاولات تفسيرية بديلة واستبعاد الاختلاف فى الرأى فى الحياة السياسية، مقابل هيمنة وجهة النظر الدينية، فيكون النظر إلى الأمور من خلال ثنائيات وتصنيفات حادة يطرحها هذا النمط فيكون تحديد: الحق والباطل، المقدس والمدنس، الصديق والعدو، الصواب والخطأ، الإيمان والكفر.

- لا يجوز النظر إلى الأصولية على أنها مجرد عودة الدين إلى السياسة، فهى أكبر من ذلك، وأخطر، فالأصولية تقوم على صيغة معينة من التدين، ومقاومة الصيغ الأخرى البديلة، حتى وإن استمدت أفكارها من مصادر الموروث الثقافى نفسها ثم نفى هذه الصيغ عند الوصول إلى السلطة، ولهذا فإن الأصولية فى بنيتها الأساسية غير قادرة على التعايش مع الاختلاف

الثقافي والسياسي، فهي تنزع إلى عدم التسامح الثقافي والسياسي، حيثما تجد أنصاراً ومؤيدين لها، كما تميل إلى القمع عندما تصل إلى السلطة، فالأصولية تحظر الاختلاف والتنوع، بدلا من تحفيزه والتعايش معه، حتى يتمكن الأفراد والجماعات من ممارسة حرية الاختيار العقلاني بين البدائل بعد تبين حجج كل منها.

● من المحتمل أن تستمر الأصولية بوصفها تياراً ثقافياً، بل وتتحول إلى حركة جماهيرية وقوة سياسية فى الظروف التى تتشابك فيها ثلاثة أنوا ع من الأزمات، سواء فى دول الشمال أو دول الجنوب، وهذه الأزمات هي:

١- أزمة الهوية الثقافية حينما تصبح المعايير والتفسيرات وأنماط الحياة الموروثة موضع تساؤل.

٢- أزمة اجتماعية، حينما تتهدد الأوضا ع الاجتماعية للجماعات على النحو نسبى أو مطلق.

٣- أزمة اقتصادية أى عندما تتدهور المقومات المادية للحياة.

وعندما تتشابك تلك الأزمات وتشتد حدتها، يتدافع الأفراد إلى المقولات الإيمانية والمقدسة التى تطرحها الأصولية، ويتم التخلى تدريجياً عن اقتناعهم بالأشكال الأخرى للحياة الاجتماعية كالديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان.

● إن الأصولية هى بمثابة اتجاه ثقافى معاد للحداثةوهى تناقض نفسها لأنها لا تسعى إلى نشر الدين فى الحياة وإنما تقوم بقهر جميع صيغ التدين فى الحياة ولدى الرأى العام حينما لا تتعانق تلك الصيغ مع معتقداتها اليقينية القشرية.

● إن الأصولية لا تزدهر إلى فى ظروف الأزمات، وربما تنجح ولو جزئياً فى إبراز المشكلات، ولكنها بطبيعتها غير قادرة على حل هذه المشكلات أبداً.

الاشتراكية الديمقراطية نهج مناسب لقبول الآخر

هناك ربط وعلاقة بين الأيديولوجية السائدة في المجتمع وثقافة «قبول الآخر»، فالنظم الشمولية فى مجملها تدعو لكراهية الآخر، فقد قامت النظرية الفاشية على أساس أن السلالة العرقية هي التي تحدد مكانة الإنسان، فالجنس الأبيض هو أرقى الأجناس ويتربع العرق الأنجلوسكسوني على قمة هذا الجنس. ولم يكن ممكناً قهر الفاشية إلا من خلال الحرب العالمية الثانية، ودفعت البشرية ثمناً باهظاً للقضاء على الفاشية، من خلال تحالف النظام الرأسمالي الليبرالي في أوروبا الغربية وأمريكا مع النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي. ثم جاءت حقبة الحرب الباردة بين الأيديولوجية الليبرالية الرأسمالية وبين الماركسية التي تتبنى النظام الشمولي، وقد انتهت بتفكك الاتحاد السوفيتي لأن الأيديولوجية التي كانت تتبناها تقوم - رغم معادتها للفاشية- على تقسيم البشر إلى ثوريين ومعادين للثورة، ولذا ظهرت عبارات: عملاء الاستعمار - وعملاء الرجعية - وعملاء الشرطة. وشهدت الحركة الماركسية - في مصر وفي غير مصر - تشرذما وتفتيتا، و «صحوة» لمفهوم «كراهية الآخر» عند أول صدام فكرى أو خلاف في الرأى. وثبت أن المناخ الذى ساد هذه الشعوب خلال فترة الحكم الشيوعى لم يكن صحياً وكان الناس العاديون يخشون سطوة السلطة، وكان البشر يتجسسون على بعض، ومن ثم كان المناخ «الشك في الآخر» وانتهى بالمجتمع إلى الانتكاسة كما هو معروف.

ثم انتهى الأمر بعد حرب الخليج إلى مناخ «صراع الحضارات» والذى أشرنا إليه في فصول سابقة، ونعيش الآن حقبة الصراع بين الغرب والإسلام، وكل طرف يحاول أن يثير النعرات لكراهية الآخر.

ففى بلدان أوروبا الغربية وأمريكا هناك عداوة للإسلام، وربط بين الإسلام والإرهاب ومن ثم كراهية العرب والمسلمين، وكان رد الفعل الطبيعى هو كراهية الغرب لمعظم الدول التى يسيطر عليها ويحكمها التيار الاسلامى، كما فى إيران

والسودان وباكستان وغيرها. وهذا الصراع محكوم عليه بالفشل، لأنه صراع غير قابل للحسم.

وعندما وصل نتنياهو إلى الحكم عام ١٩٩٦، اعتمد حكمه على أن أمن إسرائيل يسبق السلام، فأكد على كراهية العرب وقهرهم، ولذلك تعثر السلام. ويبدو الأمر حالياً عام ٢٠٠١ كما لو أن الحرب محتدمة بين العرب وإسرائيل بسبب الكراهية المتبادلة التي أوجدت مناخ عدم الثقة من جانب، وفي ظل سياسة أرييل شارون من جانب آخر وفي هذا الإطار، فإن أيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية قد تكون هي البديل الذي يمكن أن يوفر مناخ «قبول الآخر». ذلك أن أساس الاشتراكية الديمقراطية مبنى على العقلانية والفكر العلمي، وصولا إلى العلمانية أي طرح الأفكار الدينية جانباً بعيداً عن السياسة وهو ما يلخصونه في عبارة «فصل الدين عن الدولة»، ثم تزيد على ذلك بالأفكار الاشتراكية التي تدعو لتقريب الفوارق بين الطبقات وإقلال الفجوة بين الأثرياء والفقراء، وهو مناخ يوفر «قبول الآخر». ولذا فإن الاشتراكية الديمقراطية -من وجهة نظري- هي الأيديولوجية الأكثر ملاءمة لمناخ وثقافة «قبول الآخر». ومرة أخرى فإن المرء لا يدعو إلى الاشتراكية الديمقراطية لأنها توفر قبول الآخر - إسرائيل - الدولة المغتصبة للأرض والحقوق الفلسطينية، ولكن يدعو لقبول الآخر المختلف اقتصادياً واجتماعياً وفي الديانة والثقافة والتشكيل، لعل ذلك في جانب منه يفيد الطرفين في الوصول إلى صيغة مقبولة وعادلة، دون إكراه أو إملاء، لحل الصراع العربي الإسرائيلي.

* * *

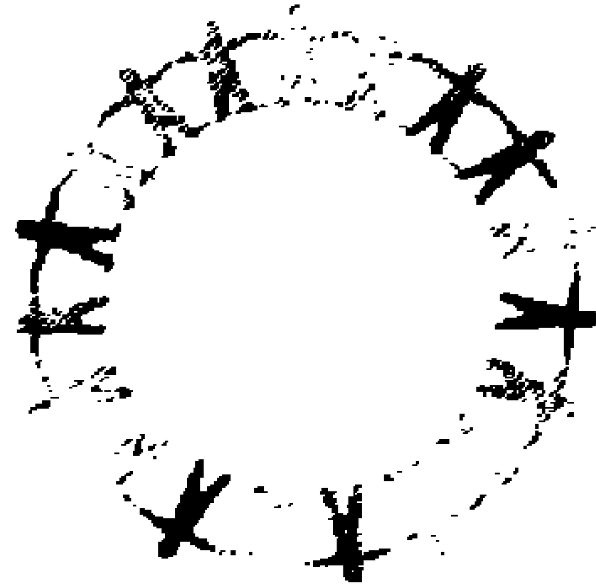
وكما ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى في هذا الكتاب، أنه قد سُطّر عبر ١٩٩٦، ١٩٩٧، والمناخ الثقافي العالمي قد تغير كثيراً خلال هذه الأعوام، فقد تحركت دول أوروبية كثيرة في اتجاه نشر ثقافة قبول الآخر، وفي مقدمتها دولة

السويد حيث تسود بالفعل أيديولوجية «الاشتراكية الديمقراطية»، وقد دعيت في خريف عام ١٩٩٧ لإلقاء محاضرات عن أفكارى ورؤيتى المناقضة لنظرية صراع الحضارات والتى كنت قد نشرت بعضاً منها فى مقالاتى وكتبى، وكان من نتيجة ذلك أن منحنى جلالة ملك السويد، بناء على ترشيح الحكومة - وسام النجم القطبى بدرجة «كوماندور» فى ٩ فبراير ١٩٩٨.

بعد ذلك دعيت إلى مؤتمرين تصادف أن عقدا فى مدينة استكهولم، الأول دولى حيث اجتمع ممثلو نحو ١٥٠ دولة ممثلين لوزراء الثقافة، من ٣٠ مارس حتى ٢ أبريل ١٩٩٨، وقد أصدر هذا المؤتمر وثيقة مهمة ممثلة فى خطة عمل تنفذها وزارات الثقافة التى التزمت بها للربط بين الثقافة والتنمية، وهو توجه جديد، اقتنعت به دول كثيرة عقب أن نشر تقرير أعدته لجنة دولية برئاسة بيريز دى كويار السكرتير العام للأمم المتحدة الأسبق للدكتور بطرس غالى، وقد نشر المجلس الأعلى للثقافة الترجمة العربية لهذه الوثيقة المهمة بعنوان «التنوع البشرى الخلاق».

وبعده دعيت إلى ورشة عمل فى استكهولم أيضاً وبدعوة من الخارجية المصرية لاجتماع مثقفين من مجموعة دول إعلان برشلونة وذلك يومى ٢٣، ٢٤ أبريل ١٩٩٨، وقد سجلت توصيات هذه الندوة المهمة فى ملاحق الكتاب.

إن العالم كله يتحرك ليواجه هذا المرض اللعين المسمى صراع الحضارات، بنشر فكر وثقافة قبول الآخر، وأرى أن هناك حركة عالمية بين مثقفى العالم الراغبين فى حصار الحروب الأهلية من خلال ما يتم الآن من «حوار بين الثقافات والحضارات» وخير مثال على ذلك إعلان الجمهورية الإيرانية الإسلامية للحوار بين الحضارات، والذى آثرنا أن نضعه بين دفتى ملاحق هذا الكتاب.



الفصل السادس

«قبول الآخر» نموذج مصر

- «قبول الآخر» يحمل في مصر اسماً كودياً هو «الوحدة الوطنية»
- ثقافة قبول الآخر في مصر نتاج لتراكم الرقائق الحضارية التي مرت بها مصر.
- التسامح في مصر يجب ألا يؤخذ بوصفه قضية مسلماً بها، وعلينا أن ندعمه ونرعاه وإلا تعثر.
- لعبة التبادل بين الوطنية والانتماء الديني في التاريخ المصري الحديث.
- حول رؤى القيادات الدينية (شيخ الأزهر والبابا ود. زقزوق والقس د. صموئيل حبيب والأنبا يوحنا قلتة (في قضية الاستنارة الدينية.

«قبول الآخر» - نموذج مصر -

تتمتع مصر بخاصية **«قبول الآخر»**. ولقد أطلقوا على هذه الموهبة - النعمة الربانية - تهذباً وتأدباً - عبارة كودية هى **«الوحدة الوطنية»** لتعبر - فى واقع الأمر - عن العلاقات الحميمة بين الديانتين الرئيسيتين فى مصر وهما: **الإسلام والمسيحية**. ذلك أن الظروف التاريخية والحضارية التى مرت بها مصر، قد جعلتها **«نموذجاً» فريداً** بين دول المنطقة، حيث الصراع القومى والدينى والعرقى على أشده فى فلسطين بين إسرائيل والعرب وقد يخف قليلاً فى المرحلة القادمة ولكنه لن يختفى إلا عندما تسود ثقافة قبول الآخر بين الجانبين وأراه أمراً غير قريب لأنه فى حاجة إلى إعادة صياغة الفكر فى إسرائيل حتى وإن احتفظت باسم الدولة ثم هناك الصراع الدينى السياسى المحتدم فى السودان بين الشمال والجنوب، وفى الجزائر حيث سادت مجازر بشرية لسنوات، ثم فى العراق حيث الاضطهاد الجماعى للأكراد والشيعة.

ويعود «قبول الآخر» فى مصر إلى أن بها تاريخياً **تراكمات لرقائق من الحضارات**، أولها وأطولها زمنا ومدى رقيقة الحضارة المصرية القديمة المدونة، والتى تعود - وفق تقديرات علماء الآثار الأوروبيين - لنحو ٣٢٠٠ عام ق.م عندما توحدت مصر فى عصر الملك مينا (نارمر) فكانت بالنسبة لهم بداية للتاريخ المكتوب.

وعموماً فداخل كل مصرى فرعون صغير أو كبير، وربما يكون ذلك هو السبب فى وجود واستمرار شخصية «سى السيد» التى رسمها باتقان نجيب محفوظ

فى ثلاثيته المشهورة. ويشترك فى هذا الأمر كل شعب مصر بصرف النظر عن انتمائه الدينى، **إن الرقيقة الفرعونية المتمثلة فى آثار وعلم وفنون وحضارة مصر هى - بوعى تربط بين أبناء الوطن جميعاً**، ومن ثم تكونت هذه الأساسات لـ «قبول الآخر» تاريخياً **وصار من الممكن إقامة البناء الحضارى فوقه.**

وتلا هذه الرقيقة الحضارية العريقة عميقة الأثر، رقيقة أخرى «هشة» وأقل سمكاً، وهى الحقبة المسماة **اليونانية الرومانية**، والتى يمكن أن تؤرخ من الناحية الرسمية بعام ٣٣٢ ق.م، وهى السنة التى دخل فيها الإسكندر الأكبر مصر فرحب به المصريون لأنه خلصهم من قهر واستعباد الفرس. ولكن سرعان ما استوعب المصريون كل حكامهم المنتمين من ناحية العرق والسلالة إلى اليونان، من بطليموس الأول المسمى سوتير وتعنى «المخلص» حتى بطليموس الثالث عشر (ويمكن الرجوع للتواريخ والتفاصيل فى كتاب الأعمدة السبعة للشخصية المصرية) فقد كان الحكام اليونانيون يعبدون الإله آمون، وقد أقاموا عشرات المعابد لآلهة المصريين القدماء، حتى صارت هذه المعابد (من دندرة فى قنا إلى كوم أمبو ومعبد فيلة فى أسوان) امتداداً للتراث الفرعونى ذاته، ولا يمكن التفرقة بينها وبين حضارة الفراعنة ذاتها، بل وفى عصرهم ازدهرت الحضارة، حتى صارت الإسكندرية مركزا لحضارة المصريين بل مركز إشعاع للمنطقة كلها متجسداً فيما صار يعرف «بمكتبة الإسكندرية» - والتى كان لحريقها أثر سلبى فى انقطاع وتواصل الحضارة المصرية - وأغلب الظن - حضارات المنطقة كلها. ولو كانت وثائق وبرديات ووثائق مكتبة الإسكندرية قد أمكن العثور عليها ولم تحرق، ربما كان تاريخ الفراعنة واليونان والرومان والآشوريين وغيرها من حضارات العالم القديم (حول المتوسط والذى كان يسمى وقتها بحر الروم) قد تم توثيقه بما أثرى التاريخ القديم كله.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أننى أود أن أسجل فى هذا الكتاب اقتراحا تحمست له أخيراً، وأتمنى أن يتحقق قبل الرحيل وهو عن أهمية أن نعكف -

ومن خلال مجموعة خبراء **أكثرهم مصريين** – على إعادة فحص تاريخ مصر القديم لنحدد ونعمل – على قدر ما تسمح به الوثائق والأدلة التاريخية المتاحة – على رصد التاريخ القديم ملكا ملكاً ومدة حكم كل منهم سنة سنة، لكى نصل إلى بداية **«التقويم الفرعونى»** ليكون مواكباً لبداية تسجيل التاريخ المكتوب لمصر، أى مع بداية – توحيد مصر أى عندما تكونت أقدم دولة مركزية فى التاريخ، **لأن إعلان هذا التقويم** – وقد كتبت ذلك مراراً فى جريدة الأهرام – وفى مقدمة الطبعة الرابعة لكتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» – سيكون **تأكيداً على «وحدة الثقافة» والتاريخ المصرى ويزيد من الرباط بين المسلمين والأقباط، أى يدعم قضية «قبول الآخر»** ويجعل مصر متفردة بتقويمها الخاص بها، ويرد على التقويم العبرى الذى يبدأ مع بداية «الخليقة» كما هو وارد فى الإصحاح الأول من سفر التكوين مع قصة آدم وحواء، **وسيكون الخلاف الجوهرى بين التقويمين فى أن التقويم الفرعونى سيكون مبنياً على حقائق علمية موثقة، بينما التقويم العبرى يرتكز على مصادر مختلفة، معظمها قصص وأساطير شفوية تم تناقلها من جيل إلى آخر ولا تستند إلى حقائق موثقة.**

فكتاب التوراة قد كتب أكثره فى حقبة سبى اليهود إلى بابل أى فى القرن السادس قبل الميلاد أى بعد أحداثه الرئيسية بنحو ألف عام.

وفوق كل من الرقيقة الفرعونية السميكة والرقيقة «اليونانية – الرومانية» تأتى الرقيقة الثالثة التى مرت بها مصر وهى **«الرقيقة القبطية»** التى تعبر عن الحقيقة التى اعتنقت فيها مصر المسيحية تدريجياً وعبر قرون. **وقد بدأت مع القرن الأول الميلادى وظلت مستمرة حتى الآن،** أى أن تاريخ المسيحية المصرية يعود إلى عشرين قرناً من الزمان، فكنيسة الإسكندرية التى أنشأها مرقص الرسول (كاتب إنجيل مرقص وأحد السبعين تلميذاً من الحواريين) تأسست فى نحو منتصف القرن الأول الميلادى، قد مرت بمراحل وظروف مختلفة متباينة (ليس هذا موقع ذكرها). **وهى أقدم كنيسة فى العالم المسيحى ولا ينازعها تاريخياً فى ذلك إلا كنيسة روما الكاثوليكية.**

وهذه الرقيقة القبطية التى عاشت ٢٠ قرنا ومازالت مستمرة **متداخلة مع الرقيقة السابقة لها وهى «اليونانية - الرومانية»**. فنقطة البداية للحقبة القبطية يمكن تحديدها تاريخياً، ولعل الاتفاق بأنها كانت فى القرن الثالث الميلادى عام ٢٨٤ ميلادية **حيث بداية التقويم القبطى للشهداء** ثم تفاعلت وتعايشت مع الرقيقة الأخيرة وهى الحقبة الإسلامية التى بدأت فى القرن السابع مع دخول العرب مصر عام ٦٤١م، ومازالت موجودة حية ونشيطة ومستمرة حتى الآن وإن كانت قد مرت بظروف مختلفة عبر ١٤ قرنا من الزمان؛ ولذلك تفاصيل ذكرتها فى كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية».

فى هذا الإطار، فإن **للإسلام المصرى خصوصية فى** أنه قد تأثر بكل رقائق الحضارات السابقة عليه، ومن ثم فله نكهة خاصة به يلمسها المرء فى ارتفاع درجة «التسامح» عند المصرى بشكل عام، وتراه مختلفاً حضارياً ومنهجياً وقيمياً عن نموذج المسلم السعودى أو الخليجى بشكل عام، ورغم التقارب الشديد بين مصر والسودان فإن المسلم المصرى أكثر تسامحاً من المسلم السودانى، ولذلك فإن ما حدث فى السودان من صراعات وحروب أهلية لن يحدث فى مصر. كما أنه مختلف عن المسلم الليبى رغم الحدود المشتركة وتواصل الصحراء الغربية المصرية. فالمسلم المصرى - وفى الأغلب الأعم - محب للقبطى المصرى بسبب أن هذا القبطى «الآخر» هو أيضاً له خصوصية». وقد دعانى هذا لأن أعبر عنه «بأن **الثقافة المصرية لها ساقان**[*]: الإسلام المصرى والمسيحية القبطية أى المصرية، وأن الساقين الثقافيتين ترتكزان على صخرة الثقافة الفرعونية ضاربة الجذور فى التاريخ».

رغم أن قضية «قبول الآخر» فى مصر لم تكن عبر التاريخ كلها سمناً وعسلاً أو ما كانوا يسمونها بالفرعونية «وكانى وزلبانى». فقد مرت بعصور مظلمة قاسية، كان الاضطهاد يعم على المصريين جميعاً لكى يعزينا أن ذلك كان منطق

[*] دراسة بعنوان: «الثقافة المصرية لها ساقان ضمن كتاب الهلال بعنوان «ما بعد عام ٢٠٠٠»، عدد مارس عام ١٩٩٦.

ذاك الزمان – أي العصور الوسطي المظلمة – وأحياناً كانت درجة اضطهاد القبطي أشد وأقسى فهو «الآخر» ولا شك في أن توافر المودة ورسوخ ثقافة وفكر قبول الآخر هي التي أثمرت عام **١٩١٩ تحول «قبول الآخر» إلى «الانصهار في الآخر»** وقد أدى ذلك إلى إعلان بيان استقلال مصر في ٢٨ من فبراير عام ١٩٢٢، وقد رفض الأقباط شرط هذا الإعلان الخاص بـ «حماية الأقليات» وقالوا إن عبارة الأقليات قد تنطبق على الأقليات الشام، **أما الأقباط فهم من أهل مصر الأصليين وليسوا بأقلية.**

وقد استمر هذا الوضع والفهم إلى أن رغب أحد مراكز البحث في أن يعقد مؤتمراً عام ١٩٩٤ لبحث مشكلة الأقليات في العالم العربي، ومنهم أقباط مصر، فكان أن سجل الكاتب **محمد حسنين هيكل** في مقال شهير نشر «بالأهرام» بأن **الأقباط مواطنون مصريون وليسوا أقلية،** وكان ذلك نقطة انطلاق جديدة لتفجر الطاقة الكامنة للوحدة الوطنية في مصر، ورفض كل من المسلمين والأقباط عبارة أن الأقباط أقلية لأن المصريين جميعاً قد شعروا بالإهانة في أن تناقش هموم ومشكلات الأقباط **(على الرغم من وجود مشكلات بالفعل، ليس هذا موقع ذكرها)** في الزمان والمكان ذاته الذي تناقش فيه مشكلات أقليات أخرى في العالم العربي مثل قضية الأكراد في العراق أو البربر في الجزائر أو السود في السودان وغيرها(*).

[*] تفجرت مناقشات حامية في مصر في شهري مارس وأبريل ١٩٩٨، وذلك أثناء اعتزام الإدارة الأمريكية والكونجرس إصدار تشريع بشأن فرض –عقوبات على الدول التي لا تحترم حقوق الأقليات، وقد اعتبر مقدمو القانون إلى الكونجرس أن من بينها «الأقلية» القبطية المصرية، لقد أجمع المصريون على رفض تدخل الأمريكيين في هذا الشأن والإصرار على أن يجيء حل المشاكل التي تواجه مسيحيي مصر على أيدي مسلمي ومسيحيي مصر ممن يؤمنون بالديمقراطية والتسامح والوحدة الوطنية والعدالة وكل القيم الإنسانية الرفيعة، مهما كان هذا الطريق صعباً، وقد اقترحت –منذ سنوات– ضرورة وجود الية لحل المشاكل اليومية التي تواجه الأقباط مثل إنشاء وكالة وزارة تابعة لوزارة الأوقاف أو مجلس أعلى للوحدة الوطنية تابع ومرتبط بمجلس الشورى أقترح أن يكون مرتبطًا بالرئيس مباشرةً أو ما شابه، تصدر الدولة تباعا تشريعات تحقق وتنفذ المساواة الواردة في المادة ٤٠ من الدستور، وتعاقب من لا يلتزم بها كما هو الحال في أمريكا فيما يعرف بعبارة «قانون الحقوق المدنية» وقد سجلت في آخر الكتاب رسالة كنت قد كتبتها إلى الرئيس حسني مبارك وأرسلتها إليه عبر د.عاطف عبيد والذى صار رئيس الوزراء في ١٩٩٩/١٠/١٠.

وبرغم كل هذا، فإن قضية «قبول الآخر» - فى مصر وفى غير مصر - لا ينبغى أن تؤخذ كقضية مسلم بها، مثل الحقائق الثابتة كجريان المياه فى نهر النيل، أو رسوخ أهرامات الجيزة فى مواقعها، **ولكنها قضية ينبغى أن تدعم عبرالزمان فلكل مرحلة تاريخية ملامحها وخواصها.**

ففى الحقبة الحالية تتعرض الوحدة الوطنية أى قبول الآخر **إلى خطر الانتكاسة،** لذا تلزم العودة إلى الجذور التاريخية التى تؤكد الثقافة المشتركة الموحدة لشعب مصر، وهو أمر ينبغى أن يعلن على السطح حتى يعرفه الشباب والأطفال، من خلال برامج التعليم فى المدارس **ليتأكد كل طفل مسلم أن زميله القبطى هو شريكه فى الوطن عبر القرون الطويلة،** وأنه كما أن مصر عاشت الإسلام منذ بدايته، فقد دخل العرب مصر فى حقبة عمر بن الخطاب، كذلك دخلت المسيحية مصر فى القرن الأول الميلادى ومن خلال مرقص الرسولى أحد كتاب الأناجيل الأربعة.

الملاحظ فى الحقبة الأخيرة ونتيجة رحيل الجيل الذى عاصر ثورة عام ١٩١٩، هبوب رياح ثقافية من صحراوات مجاورة لنا، وانتشار الجهل بالتاريخ مما حدا بأن توهم بعض الأغبياء - بسذاجة أو عمد - أن الأقباط مسيحيون قد قبلوا المسيحية من خلال فرق التبشير الإنجليزية أو الأمريكية أو الفرنسية خلال القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر..!!

أكثر من هذا فإن مصر لم تقدم للعالم خبرة فريدة فى مجال التسامح الدينى فحسب وإنما قدمت أيضاً نماذج فى مجال التسامح الفكرى والفلسفى.. والأيديولوجى (حديثاً). فالحقبة الليبرالية قبل ١٩٥٢ بلورت بشكل عام نموذجاً للتعايش بين التيارات السياسية من حزب الأحرار الدستوريين والسعديين يميناً مروراً بحزب الوفد (والذى كان يمثل جبهة عريضة من الطبقات الوسطى وصولا إلى كافة الفرق اليسارية وكذلك الجماعات الدينية) فقد دار الصراع السياسى بينها جميعاً دون نفى للآخر أو اغتيال معنوى.

ولعل أفضل ما يمثل تلك الحالة التى أشرت إليها، ذلك المشهد الذى لا ينسى خلال اعتقال السادات لرموز الحركة الوطنية فى سبتمبر عام ١٩٨١ وهو مشهد أبو العز الحريرى القائد اليسارى وهو يتقدم لمساندة فؤاد سراج الدين باشا قطب الوفد (الليبرالى) فى كل مرة أراد فيها الأخير أن يقف حين كانا فى زنزانة واحدة بمعتقل طره .

ومنذ سنوات تشهد مصر إحتفالات الإفطار الرمضانية بين تيارات الفكر السياسى المصرى ورموزه صار يطلق عليه عبارة « إفطارات الوحدة الوطنية » والتى تسير جنباً إلى جنب مع « موائد الرحمن » التى تقيمها النخبة ذاتها بكل ألوانها للجماهير السابلة والعابرين والمحتاجين .

مصر إذن ليست بلد التخندق والتبندق (أى الإمساك بالبنادق) لكنها بلد التفاعل القبولى، **وبلد التصارع ولكن على أرضية خضراء.** إن الناس فى مصر –وربما فى غيرها– يعشقون الكرة لهذا السبب . إن الملعب الذى يجرى عليه التصارع الحامى على الفوز هو بساط أخضر يرمز للسلام والوئام. ويزيد هذا المعنى عمقاً أن الملعب الأخضر هو «سرة» المشهد فى استاد حيث تحيط كتل الأسمنت –المدرجات– من كل جانب فلا يكسر صلابتها وقسوتها إلا التقاء العين بالأخضر.

مع هذا كله، ومن أجل هذا كله فإن التاريخ المشترك يغذى ويقوى «قبول الآخر» لأنه يحيي الوجدان المدعم بالانتماء إلى الأرض أى إلى ذات الوطن من خلال التاريخ المشترك أو وحدة التاريخ.

على أن الاستناد إلى الماضى وحده لايكفى، بل ينبغى أن يمتد «قبول الآخر» إلى «الحاضر» أيضاً. ولقد ذكرنا – على سبيل المثال– كيف أنه فى «النضال المشترك» فى الحركة الوطنية، وفى الحقبة من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٢ كانت «الوحدة الوطنية» فى أزهى عصورها لانتعاش المعايشة والانصهار بين الأقباط والمسلمين، ومازلنا نستمتع ونستمع لصدى الصوت يرن فى آذاننا منذ تلك الحقبة ولكنه **سيختفى مع الزمن ليتحول من حاضر حى إلى تاريخ منسى.**

وفي المرحلة الناصرية، ناضل المصريون جميعاً -بقيادة وزعامة عبدالناصر- من أجل إقامة مجتمع «علمانى» أو **بلغة العصر «مجتمع مدنى» أى لا يرتكز على الانتماء الدينى**، ثم محاولة إقامة دولة مصر الحديثة بانتماء عربى واضح، وقد ضربت تلك الأيديولوجية في حرب يونيو ١٩٦٧، ثم تحمس الناس لفكر تقريب الفوارق بين الطبقات أى نشر مظلة العدالة الاجتماعية (وقد ضربت هذه الأيديولوجية مع الانفتاح الاستهلاكى عام ١٩٧٤ ثم الخصخصة وانتشار الفساد في مرحلة التسعينيات). ولذلك لم نسمع كثيراً عن «الفتنة الطائفية» (وهى تجسيد لفكر كراهية الآخر) إلا فى عصر السادات حيث كانت البداية هى حريق كنيسة الخانكة عام ١٩٧٢، ومروراً بمسلسل حرق الكنائس والعدوان عليها، وصولا إلى اقتحام كنيسة فى مدينة أبو قرقاص بمحافظة المنيا في مارس عام ١٩٩٧ وهو أمر غريب على مصر.

ومن كل هذا العرض يتضح أن نموذج «قبول الآخر» فى مصر، لم يعد بالمتانة والقوة والرسوخ الذى كان عليه منذ سبعين عاماً وحتى أواخر الستينيات، ولذلك لم أدهش لوجود محاولات جادة من هيئات وشخصيات دينية قيادية مختلفة تتدارس الخلل القائم حالياً، وتعمل على توفير البديل الذى يوفر الكفاح المشترك والذى صهر المصريين عام ١٩١٩ من خلال الحركة الوطنية، لقد تحقق الاستقلال ولم يعد هناك «مشروع قومى» **يلتف حوله المصريون فتتفوق روح الانتماء الوطنى على الانتماء الدينى.**

فمشروع تعمير منطقة توشكى أو تعمير سيناء أو زيادة الرقعة التي سنعيش عليها فى مصر من ٥٪ عام ١٩٩٧ إلى نحو ١٥٪ عام ٢٠٠٧ أو ٢٥٪ عام ٢٠١٧ كل تلك ليست مشروعات حماسية وطنية مثل مشروع «استقلال مصر» أو «القومية العربية» أو معركة «إنشاء السد العالى» فى مواجهة أمريكا التى رفضت بوقاحة تمويله، فكلها مشروعات عمرانية يقوم ويتفاعل فيها المهندسون والفنيون، خصوصاً وقد أصيب معظم المصريين بحالة من السلبية التدريجية

نتيجة عوامل كثيرة كنا قد أشرنا إليها فى فصول سابقة وليس هذا موقع تكرارها.

وفى هذا المناخ ظهرت الحاجة لخلق آليات جديدة تكون «معوضة» عن المشروع الوطنى القومى المشترك، فظهرت الحاجة إلى إنشاء جمعيات الوحدة الوطنية، وكان الحماس والإقبال عليها قوياً وشديداً أول الأمر، حيث بلغ ذروته فى اجتماع جماهيرى عقد فى ٩ من أكتوبر عام ١٩٩٢ أمام نقابة المحامين والصحفيين حضره نحو عشرة آلاف مواطن. **وقد انزعجت السلطات وقتها من حماسة الناس للوحدة الوطنية.**

ولكن هذه الجمعيات الأهلية. أصابتها تدريجياً أمراض السلبية السائدة فى المجتمع فضمرت فاعليتها وصارت شكلا بلا مضمون أو تنظيماً بلا روح، ولذلك تفاصيل عشتها ولم أشأ أن أسجلها على ورق حتى الآن، - ومن منطلق ذاتى - أبحث عن نصف الكوب الملآن بالماء، وأتحاشى بحث أسباب وجود وزيادة حجم نصف الكوب الخالى، وربما تجد ظروف - إن طال بى العمر - فأسجل فى مذكراتى ماذا جرى فى الكواليس لعرقلة تكوين تنظيمات الوحدة الوطنية وكيف أن أجهزة الدولة كانت تقاوم وتعرقل إنشاءها أو تحتويها.

وكانت هناك محاولات من الهيئات والمؤسسات الدينية ذاتها، والتى أدركت خطورة المناخ الثقافى العام الذى يفرز «كراهية الآخر»، فإذا بالمجتمع المصرى بعبقريته التاريخية وفى لحظات اليأس يفرز قيادات مؤمنة بأهمية استمرار وتعميق «قبول الآخر». ولعل الرموز الموجودة فى قيادات هذه الهيئات والمؤسسات الدينية هى الدليل على إصرارها على «قبول الآخر» **ففضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، نموذج لسماحة الإسلام**، وكل عظاته وأحاديثه تجسد روح «قبول الآخر» وهو لا يمل من تكرار عبارة «لهم مالنا وعليهم ما علينا».

ثم رزقنا العلى القدير **بوزير أوقاف قلما يجود بمثله الزمان، هو أ. د محمود حمدى زقزوق**، فهو أساساً أستاذ وفقيه فى الدين فى آن واحد، وأستشهد

بعباراته التى قالها في مؤتمر **«الاستنارة الدينية والتفكير العلمى»**، والذى عقد بالاسكندرية عام ١٩٩٧:

«إن مصطلح **الاستنارة والتنوير** وما يتصل بهما يرجع فى العربية **إلى أصل واحد وهو «النور»**. ومن المعروف أن العقل الإنسانى يعد «نوراً» **لأنه يبدد ظلمات الجهل** أمام الإنسان، وينير له طريقه بالعلم والمعرفة، ومن هنا وصفه حجة الإسلام بأنه «أنموذج من نور الله». فمصطلح الاستنارة إذن يعنى **بالضرورة إعمال العقل والتمسك به والرجوع إليه وتمكينه من أداء دوره كاملا فى الحياة:** «فإذا وصفنا الاستنارة بأنها دينية، فمعنى ذلك أن نعمل العقل فى فهمنا للدين وأن نقرأ الدين فى ضوء مقررات العقل السليم، وإذا كان الأمر كذلك، فإن السؤال الذى يفرض نفسه: وهل يتناقض الدين حقاً مع مفهوم الاستنارة الدينية؟».

«إن الإجابة عن هذا السؤال – من وجهة النظر الإسلامية . هى النفى القاطع لوجود مثل هذا التناقض، لسبب بسيط هو أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الدين والعقل فى الإسلام».

«وقد أكد الشيخ محمد عبده على ذلك حين أشار إلي أن الدين إذا جاء بشىء يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل على العقل، كما قرر أيضاً أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة» (انتهى نص مقولات د. زقزوق).

ومن الأسماء اللامعة فى المجال الدينى المسيحى الأنبا يوحنا قلته النائب البطريركى للأقباط الكاثوليك وهو يقدم رؤية متقدمة عن كل من الحياة والعلم ففى دراسة مقدمة إلى المؤتمر ذاته بعنوان «مدخل إلى العقل العربى» يقول :

«إن صراعاً حقيقياً يدور فى العقل العربى، بين تراث الماضى بما فى ذلك التدين القديم والتقاليد الموروثة، والخرافات المنتشرة التى علقت به خلال قرون

الجمود والعزلة والانطواء، وبين حقائق علمية تفرض على الإنسانية نمطاً جديداً فى الحياة، وتضع إطاراً جديداً للعلاقات بين الشعوب، وقد يكون الصراع بين نزعات قديمة فى أعماق الوجدان العربى ترفض أن تتنازل عن السيادة أو القبلية أو سيادة الرجل أو التعصب العرقى والمذهبى، وبين نزعات فرضتها ثقافة العصر ودعوته إلى الحرية والمساواة والأخوة الإنسانية»

«إن العقل العربى لا يزال يئن من عصور الغزو والقهر وكأن العلم قادم من الشاطىء الآخر يلبس ثوب اللصوصية أو ثوب الإلحاد» (انتهى نص مقولات الأنبا يوحنا قلته).

وفى الندوة ذاتها التى عقدت بمدينة الإسكندرية من ٢ إلى ٤ من سبتمبر عام ١٩٩٧ **قدم القس د. صموئيل حبيب - رئيس الطائفة الإنجيلية فى مصر، وكان هو الداعى للندوة والمنظم - فى ورقة بعنوان «موقف الدين من التفكير العلمى»** اخترت منها العبارات الآتية[*].

- ليس للدين أن يحكم على العلم، مهمة الدين أن يشجع العلم والعلماء لخدمة الإنسان، فمتى استخدم إنسان العلم كوسيلة لإلحاق الضرر بالإنسان، كان للدين أن يوجه الإنسان بأن يرفض الشر ويدعو للخير.
- ليس بين الدين والعلم صراع أو تنازع اختصاص، فكما رأينا فإن كل واحد منهما مستقل عن الآخر، والدين لا يتدخل فى العلم، بل يتدخل فى استخدام البشر للعلم ليقيم الضوابط القيمية والسلوكية الصحيحة.
- لا مكان لمن يترحمون على الماضى، فهم لا يقدرون أن يستبدلوا بالحاضر الماضى، وسوف يتقدم الحاضر على الماضى بالعلم والتكنولوجيا، ولا مكان لرفض العلم، فالعلم سيتواجد ويثبت ذاته ويفرض نفسه.

---

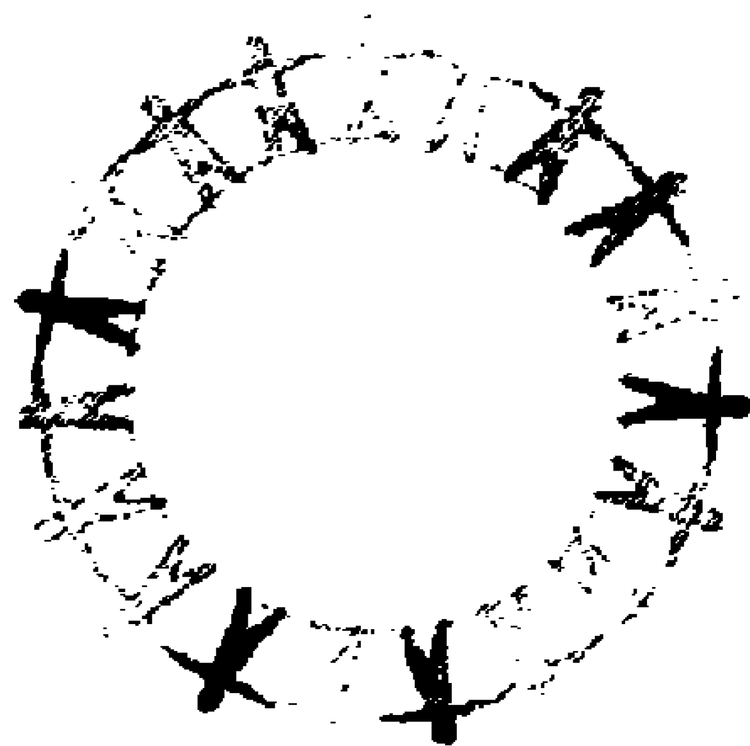
[*] كتبت هذه السطور قبل رحيل القس صموئيل حبيب فى أواخر سبتمبر عام ١٩٩٧.

● لا شك فى أن الحاضر فيه تقدم علمى عظيم، والمستقبل الذى نتطلع إليه سيكون باهراً، فنحن نتطلع لمستقبل مشرق مع ما يمكن للعلم أن يقدمه من معلومات أساسية جديدة وتكولوجيا تخدم البشرية والخليقة.

(انتهت النصوص المقتطفة من ندوة «الاستنارة الدينية والتفكير العلمى»)

* * *

نحن إذن أمام أفكار وأيديولوجية جديدة، سوف يلتف حولها أول الأمر المثقفون والمفكرون ثم تنتقل تدريجياً إلى باقي البشر العاديين وسيكون ذلك بديلاً عن التفاف الناس حول قضية التحرر الوطنى التى بدأت مع مطلع القرن، فقد انتهى دورها مع استكمال الاستقلال - ولو من ناحية الشكل - وصرنا فى حاجة إلى أيديولوجية وفكر جديد يزاوج بين الدين والعلم ولا يضعهما فى مواجهة، كما أنه ينظر إلى التراث والماضى ليس لكى يعود فنغرق فيه، وإنما لكى يدفعنا إلى رؤية العالم والآفاق الجديدة، ومن خلال كل ذلك نتعرف على الأرضية المشتركة ومن ثم «قبول الآخر».



الجــزء الثانى

عن الأديان والأيديولوچيات

مقدمـــــة

99 *ما حدث من تفجيرات بطريقة غير مسبوقة، وحيل لم تخطر على ذهن بشر، وبوسائل وتكنولوجيا عالية، وبقلوب جسورة أدت إلى ما حدث من تفجيرات، كان حدثا تاريخيًا مشهودًا، فيومها انهار برجا مركز التجارة العالمى فى نيويورك -رمزا الحضارة الأمريكية- ومبنى البنتاجون -رمز الغطرسة والقوة العسكرية الأمريكية- فى واشنطن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقد صار بالفعل يوما فاصلا فى التاريخ بين حقبة وأخرى، ثم كان ما تلاه من إعلان أمريكا الحرب ضد أفغانستان فى خطة تردد أنها (أى الحرب) ستكون طويلة الأمد ضد ما أسمته أمريكا بـ"الارهاب الدولى" والتى بدأت يوم الأحد ٧ أكتوبر ٢٠٠١، كل تلك الامور قد هزت العالم كله وصار فى حالة من القلق لحرب لم تتضح نهايتها بعد، وكل ذلك خلق واقعا جديداً، كنا نتمنى أن لا يقع من خلال قناعة عدد أكبر من البشر بنظرية "قبول الآخر"* **66**

أما وقد تمت كل تلك الأحداث المفزعة فقد انزعج أهل الفكر وتأكدوا أن العالم فى حاجة لمزيد من التحليل والمعرفة، وكل ذلك فرض علينا أن نناقش موضوع **"الأديان والأيديولوجيا"** فى هذا الجزء الثانى من ذات الكتاب الذى يحمل عنوان "قبول الآخر"، وفى هذه الطبعة الرابعة حيث تمت إضافة هذا الفصل السابع بعد هذه المقدمة للجزء الثانى الذى كُتب فى نوفمبر عام ٢٠٠١.

ومن جانب آخر فإن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م- ١٩٤٥م) كانت حرب "أيديولوجيات" إذ تجمع "الحلفاء" ضد "**النازية**" الهتلرية والتى تحالفت مع

"الفاشية" الايطالية "والتعالي" الياباني، وأثناء الحرب ظهرت خلافات مكتومة بين التيار الليبرالي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية مدعمة من دول أوروبا الغربية من جهة، في مواجهة الأيديولوجية الماركسية- اللنينية بزعامة الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى، وبالفعل وعقب أن انتهت الحرب الساخنة عام ١٩٤٥ بهزيمة ألمانيا وايطاليا ثم قيام أمريكا بقذف مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان بأول قنابل ذرية أدت إلى استسلام اليابان، نقول بعد انتهاء الحرب قامت الأمم المتحدة بصياغة ميثاق يناسب الرؤية المستقبلية وقتها بحيث كان الهدف هو ضمان عدم قيام حرب ساخنة بين الدول الكبرى مرة أخرى، وبالفعل أنشئ مجلس الأمن ليراقب ما يجرى في العالم **من "نزاعات قد تفضي إلى حروب"**، وكانت الضمانة لعدم تضاد المصالح بين الدول الخمس الكبرى هي من خلال حق **النقض "الفيتو" للدول الخمس الكبرى** التي خرجت منتصرة في الحرب، وصار لها مقاعد دائمة في مجلس الأمن وهي: أمريكا- الاتحاد السوفيتي- انجلترا- فرنسا- الصين، ولم تكن الظروف والواقع السياسي والاقتصادي قد فرضت وجود أهمية عالمية للدول التي خرجت منهزمة وبالذات ألمانيا واليابان، والتي صار- من الضرورة- وجودها الآن مع هذه الدول الخمس الكبرى في مجلس الأمن.

مهما يكن من أمر، فقد دخلت البشرية حقبة الحرب الباردة بين الرأسمالية والشيوعية كماهو معروف، وأنشيء حلف الأطلنطي ويقابله حلف وارسو، **ثم كان أن قامت أمريكا بإدخال الأديان كعنصر ثقافي ووجداني في مواجهة الشيوعية،** وأنشيء بالفعل ما سمي بـ "معبد التفاهم" The Temple Understanding وتفرع منه مجلس الكنائس العالمي، وصار تنظميا مستقراً له مساهمات في تشكيل الوجدان الديني في العالم المسيحي المترامي الفروع والمذاهب في كل بلدان العالم، كما أنشيء "المؤتمر الاسلامي" لذات الهدف ونشأت تنظيمات فرعية كثيرة تحت شعار ما صار يعرف بـ "الصحوة الإسلامية".

وكانت "الصهيونية" - كحركة يهودية بدأت مع هيرتزل عام ١٨٩٨- قد حققت إنجازا سياسيا وأملا طالما انتظره اليهود مع إنشاء اسرائيل على جزء من أرض فلسطين عام ١٩٤٨، واستمر سباق التسلح وانتشار النفوذ السياسى لكل من الاتحاد السوفيتي وأمريكا في معسكرين واضحين يتنافسان في **عالم توازن مع هذا التنافس وهو أمر نعتقده الآن.**

قام الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٩ بغزو أفغانستان فاستثمرت امريكا هذا الخطأ الاستراتيجي- ومن خلال المخابرات والتنظيمات التي كانت قد استقرت ولها التوجه الديني الإسلامي، فجمعت "المجاهدين" من كل بلدان العالم العربي والإسلامي- ليساهموا كمتطوعين في معاونة الأفغان تحت راية "الجهاد الديني" في مواجهة الاتحاد السوفيتي "الملحد".

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فإن أحداث المجاهدين في أفغانستان تحت راية الإسلام كانت **متزامنة ومتسقة مع ما قامت به الكنيسة الكاثوليكية** عندما ساهمت بدور فعال في دعم **"حركة التضامن" للنقابات العمالية في بولندا** بزعامة فاونزا، فكانت تنظيمات الكنائس الكاثوليكية هي المدخل إلى "اختراق" الكتلة الشيوعية في شرق أوروبا طوال حقبة الثمانينيات، وتم ترويج أفكارها في هدوء لداخل الاتحاد السوفيتي من خلال عبارات "البروسترويكا والجلاسنوست" التي ابتكرها ميخائيل جورباتشوف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي، وكل ذلك أدى إلى تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ دون أي حرب ساخنة بينه وبين أمريكا، مما يعطي انطباعا بأن **فلسفة "الفكر البرجماتي" لأمريكا** قد استطاعت أن تنتصر على ايديولوجية **"حتمية انتصار الاشتراكية"** وهو ما يتفق مع نهج "أن الانسان هو محرك التاريخ" كما ذكرنا في فصل٢.

ثم كانت حرب الخليج عام ١٩٩٠ وما صاحبها من تغيرات في منطقة الشرق الأوسط أوصلتنا إلى مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو، ولكن كل ذلك لم يفلح في صلح وسلام، بل فشلت اتفاقية كامب ديفيد الثانية بين عرفات وباراك وبضغط ووساطة

من كلينتون عام ٢٠٠٠ ثم تعثرت المفاوضات النهائية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية منذ ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠ لأن الصراع العربي- الاسرائيلي قد **تحول إلى حرب دينية بين اليهودية والإسلام.**

وكل ذلك يحمل على فحص ملف **"الايديولوجيات والأديان"** لوجود علاقة "جدلية" بينها في العصر الحديث إذ يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به. ومؤخرا قال الرئيس جورج بوش الابن في أكتوبر عام ٢٠٠١: إن حرب أمريكا ضد الإرهاب الدولي هي **حرب "صليبية"** وقد صور بعض المحللين والأمريكان هذه المقولة وكأنها "زلة لسان" ولكن ما جاء من نصوص صريحة في كتاب صموئيل هانتجتون "صدام الحضارات" أكدت أن ما تنبأ به من أن "الحرب القادمة- إن نشأت- ستكون بين الحضارات"، ثم كان أن ردت قيادة طالبان في أفغانستان بالمثل وقالت إنها **تحارب أمريكا وأوروبا وإسرائيل باعتبارهم "كفارا".**

ألخص ما رغبت طرحه في هذه المقدمة للجزء الثاني من "قبول الآخر" فأقول إن الحرب العالمية الثانية وما تلاها من حرب باردة **كانت حربا "أيديولوجية"** بين الرأسمالية الليبرالية والاشتراكية الماركسية، ثم كان أن استخدمت أمريكا فيها **الأديان** على جميع مسمياتها ونجحت بالفعل في قهر "الشيوعية" من منطلق أنها "ملحدة" أي ضد الأديان، ثم جاءت حرب "الأولى" في القرن ٢١ لتكون -بشكل مباشر أو غير مباشر- **حربًا بين "الأديان"** أو وفق عبارات هانتجتون هي "صراع بين الحضارات" أي **بين الغرب والإسلام**، ومن ثم فقد آثرت أن أخصص هذا الجزء الثاني من هذه الطبعة الرابعة لمناقشة موضوعية حول **"الأديان" والأيديولوجيات"**، وهو يحتوي على فصلين: الأول يأخذ رقم ٧ (ليكون من حيث الرقم استمرارًا لباقي الكتاب) وهو فصل جديد تمامًا من وحي ما جرى من أحداث جاءت في الاسابيع القليلة الماضية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعنوان " **دور الأديان الإبراهيمية والايديولوجيات في صياغة ثقافة "قبول الآخر"** ليشرح- في نوع من الصراحة- الخلافات بين الأديان الإبراهيمية وكيفية التغلب على

احتمالات الصدام من خلال الحوار "غير المسبوق"، وليساهم في تفسير بعض ما يجرى حاليا، ثم يتطرق في نهاية هذا الفصل إلى خبرة الكثلكة في التفاعل مع الثقافات والأيديولوجيات الأخرى والتي أوصلتها إلى مفاهيم "لاهوت التحرير"، أما الفصل ٨ فيقدم نموذج "التلقيح الثقافي بين الكثلكة والماركسية" كما حدث في أمريكا اللاتينية وكان قد سبق نشر هذا الفصل قبل تعديله تحت رقم ٣ في الطبعة الثالثة السابقة.

وختاماً فإنني أتقدم بالشكر للأستاذ والصديق أشرف عامر، مدير ومسئول الشركة الإعلامية -ستامبا- وكل العاملين معه، والذين قدموا معونة وجهداً في مراجعة وإخراج هذه الطبعة الرابعة.

القاهرة ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١ **د. ميلاد حنا**

1

دور الديانات الابراهيمية والايديولوچيات الغربية فى صياغة ثقافة "قبول الآخر"

- عرفت الحضارات القديمة الأديان لتتأمل ماذا وراء الموت وما أسباب الكوارث الطبيعية
- الديانة اليهودية "مغلقة"، بينما الديانتان المسيحية والإسلام تبشر وترغب الانتشار
- المسيحية خرجت من رحم اليهودية ولكنها لم تقضِ عليها
- عندما تتحول الأديان إلى السلطة، تظهر الخلافات الداخلية وتنمو الصراعات والحروب الداخلية
- مارتن لوثر راهب كاثوليكى تمرد على الكثلكة وانتشرت البروتستانتية ولكن بقيت الكثلكة
- عندما يغزو دين مجتمعًا له حضارة قديمة، يحدث تأثير متبادل، ومن هنا تنوع الإنسان المتدين باختلاف المكان والزمان
- العالم الإسلامى يكون معتدلاً إذا تكلم العربية، وأكثر تشددًا إذا عرف الإسلام عن غير طريق العربية
- الإسلام المصرى: سنى الوجه، شيعى الدماء، قبطى القلب، فرعونى العظام
- "الحوار بين الأديان" يعالج المظهر ويتحاشى مناقشة المسائل الحساسة
- توجد نصوص فى الأديان الإبراهيمية تبرر "التعالى" والتفاخر لأصحاب كل دين
- الحروب الصليبية تلقى بظلالها القاتمة بين الحين والآخر، وحان وقت أن يدخل متحف تاريخ عصر قد مضى وانتهى
- الأيديولوچيات مصطلح جديد نسبيًا ويعبر عن رؤية مستقبلية للحياة فى الدنيا
- الكثلكة تطور نفسها من خلال حوار ديمقراطى حول مشاكل الحياة وبالتفاعل مع الأيديولوچيات المعاصرة أو الأديان السابقة للمسيحية

نشـأة الأديـان

منذ عرف الإنسان الحضارة الزراعية والاستقرار فى وديان الأنهار، **بدأ يفكر فيما وراء الموت، وما أسباب الكوارث الطبيعية** أو الشخصية، وهكذا اتجه تفكيره تدريجيا الى "**الأديان**" على أنواعها وأشكالها، وكانت الاديان أول الأمر "محلية" وكأنها جزر منعزلة، ثم تواصلت وازدادت انتشاراً مع معرفة الإنسان لطرق المواصلات على اليابسة من خلال الجواد ثم " قوافل" الجمال أو الإبل عابرة الصحراوات ثم مكنته المراكب الشراعية الأكبر من أن يبحر قرب شواطيء البحار وبمحاذاتها، فكان انتشار الاديان ممكنا على نطاق أوسع من موقع نشأتها.

وعبر مسيرة التاريخ لنحو ثلاثة آلاف سنة انتشرت بعضها، وصار لها وجود على تاريخ الإنسانية جمعاء مثل المسيحية والإسلام والبوذية والهندوسية والكنفوشية واليهودية وغيرها، واختفت ديانات اخرى مع اختفاء وضمور حضاراتها مثل الزرداشتية فى فارس وديانات الفراعنة فى مصر وديانات أشور وبابل وفينيقيا وغيرها.

ولسنا بصدد التعرض لتاريخ الأديان وأسباب ظهورها وانتشارها أو ضمورها فهذا يخرج عن السياق العام لهذا المؤلف، ولكن المؤكد - وكما ذكر صموئيل هانتنجتون نفسه -أن "**الدين له دور محورى فى العالم الحديث**".. وربما كان *الأداة المركزية التى تحول البشر وتحشدهم*، فالحضارة- عنده- هى "**الكيان الثقافى الأوسع الذى يضم الجماعات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية**

والدينية، فيها يُعَرِّف الناس أنفسهم بالنسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والمؤسسات الاجتماعية بدرجات متفاوتة وفقا للجماعات الثقافية الداخلة تحت حضارة واحدة"

وكل من الأديان الرئيسية له مسار تاريخي مختلف، تحدد خصوصيته الفكرية وسبل انتشاره ومعاركه الداخلية والخارجية، والتي كونت له صورة بذاتها، حددت مكانته المحلية لدى أتباعه فأثرت في تكوينهم الثقافي، كما رسمت لهذه الديانة أو تلك، السمعة العامة لها عند الآخرين.

إن درس التاريخ هو أن معظم الاديان حاول- بشكل أو بآخر- أن تكون له السيادة أو النفوذ الأوسع مع انتشار الحضارة التي ينتمي إليها، غير أن الأحداث والصراعات- وحتى الحروب- لم تتمكن أي منها- من أن تفرض سيادته على كل الأديان الاخرى ولا حتى في منطقة واحدة ومن ثم "**حتمية المعايشة**" وهو صلب توجه هذه الدراسة.

مسار الأديان الإبراهيمية

بحكم السياق التاريخي، وبحكم الموقع الجغرافي أيضا، فإن هناك خصوصية داخلية في العلاقة بين الأديان المسماة بـ"السماوية" (وأفضل أن أسميها بـ"الإبراهيمية") وهذه الديانات وفق ترتيب ظهورها هي: اليهودية والمسيحية والإسلام: وكلها نشأت في منطقة الشرق الأوسط وكان طبيعيا أن كلا من هذه الديانات **قد اعترفت وتأثرت بالديانات التي سبقتها**، فاليهودية- وعلى الرغم من تأثرها بعقائد التراث الفرعوني وبالذات عبادة أخناتون التوحيدية وظهر ذلك في نصوص بعض "المزامير" حسبما ذكر عالم المصريات جيمس هنري بيرستد- في كتابه الشهير "**فجر الضمير**" نقول، رغم ذلك فإن اليهودية ومن حيث صياغتها كديانة لها مفاهيمها وعقيدتها وعباداتها وطقوسها وتاريخها، **تقف متفردة ظاهرة كبداية لكل من المسيحية والإسلام**، وذلك بصرف النظر عن أن أتباع

اليهودية فى العالم لا يتجاوزون ٢٥ مليون نسمة، بينما أتباع أى من المسيحية أو الإسلام يتجاوز المليار بكثير، فالثقل العددى أمر والوزن التاريخى أمر آخر..!

وفى ذات السياق فإن الديانة اليهودية تختلف عن كل من المسيحية والإسلام من ناحية الدعوة للانتشار وصولا إلى العالمية، **فاليهودية ديانة "مغلقة"**، لا تدعو آخرين لدخولها وهذا مصدر ضعفها وقوتها معًا، فما قلّة ومحدودية عدد اليهود فى العالم إلا بسبب أنها مقصورة عليهم وحدهم ولذا فإن الانغلاق كان وسيظل مصدر قوة **لأنه أعطاهم تفرداً** وميزة وهو **أحد أسباب "التعالى"** لأن من يولد من "أم يهودية" يكن يهوديا، **ولذا صارت "اليهودية" ديانة علاوة على انها انتماء إلى جنس أو عرق أو سلالة** أى لها خصوصيتها، وكل ذلك كان سببا لتماسك اليهود عبر قرون طويلة، قاوموا فيها الاضطهاد والكراهية، فتمسكوا بالتقاليد المتوارثة وعلموا أولادهم العبرية وقدسوا يوم السبت دون أى عمل، إلى أن حققوا- ولو بشكل مؤقت- حلمهم فى تكوين "**دولة اسرائيل**" فرغم صِغَر تعداد اليهود وكذلك تعداد إسرائيل ولكنهم نجحوا فى أن يكون لهم وزن وتأثير ملحوظ على الساحة العالمية.

أما المسيحية فقد خرجت من رحم اليهودية، **فالمسيح ذاته ولد يهودياً** "وإلى خاصة جاء وخاصته لم تقبله" فذهبت رسالة المسيح إلى "الأمم" وانتشرت المسيحية إلى أربعة أركان الأرض، وواجهت المسيحية -خلال القرن الأول والثانى والثالث- اضطهاداً من الامبراطورية الرومانية القديمة، حتى خلخلتها فى نهاية المطاف، فكان قرار انتقال الامبراطورية إلى بيزنطة عندما أسس قسطنطين الأول الامبراطورية البيزنطية، وأعلن إيقاف اضطهاد المسيحية عام ٣٢٤م .

وما أن تحولت المسيحية من رسالة يتسابق "المضطهدون" لاعتناقها والتبشير بها ثم الاستشهاد فى سبيلها، نقول، ما أن تحولت إلى دولة بل وامبراطورية وأجهزة ثقافية ودينية، إلا ودب داخلها خلاف عقائدى **حول شخص المسيح**،

فكانت "الهرطقة" الأولى الكبرى مع ظهور **بدعة "آريوس"**، مما دعا لانعقاد مجمع مسكونى (ويمكن النظر إليه بمصلحات زماننا حاليا وكأنه مؤتمر دولى)، وذلك فى **مجتمع نيقيه** (وهى مدينة صغيرة من ضواحى العاصمة القسطنطينية) عام ٣٢٥م، واستمر ظهور "هرطقات" أو بدع أخرى كثيرة موضع اهتمام ودراسة المتخصصين من علماء اللاهوت، وكان آخرها وأهمها هو **مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م** حيث كان هناك انقسام لا رجعة فيه، وصل إلى حد "الانشقاق" بين أقطار الامبراطورية البيزنطية، وأدت إلى ظهور "مذاهب" ربما كان أبرزها هو وجود كنائس احتفظت بالعقيدة الثابتة الأصلية فأطلقت على نفسها عبارة **المذهب "الارثوذكسى"**، وأخذت التنظيمات الدينية المختلفة أسماءها بأن تُوصف نفسها بصفتين الأولى معبرة عن الانتماء الجغرافى والثانية تأخذ اسم المذهب، فظهرت كنائس، بعضها قديم قدم هذه الخلافات، والانشقاقات، فهناك مثلاً الكنيسة القبطية (أى المصرية) الأرثوذكسية، ثم كنيسة الأرمن الارثوذكس، وكنيسة اليونان أو "الجريك" الأرثوذكس وفيما بعد ظهرت كنيسة الروس الأرثوذكس وغيرها، أما الفريق الآخر فأطلق على نفسه عبارة "الملكيين" أو "الملكانيين" أى المنحازين لرؤية الامبراطور أو الملك مرقيانوس إمبراطور بيزنطة وملك القسطنطينية وهو الذى دعا لمؤتمر خلقيدونية عام ٤٥١م.

واستمرت هذه الكيانات أو المؤسسات الدينية ومعظمها فى المشرق، وفى المقابل تزايد نفوذ كنيسة أو أسقفية "رومية" فى الغرب، وتوسعت وانتشرت مع تقدم حضارة العصور الوسطى فى أوروبا إلى أن صارت "الكنيسة الكاثوليكية" قوة دينية وسياسية كبيرة فى القرن العاشر. وكان مركز الفاتيكان فى مدينة روما (وكلمة الكاثوليك تعنى "الجامعة") وانتشرت الكثلكة وتقوت إلى أن قامت وقادت الحرب الصليبية لمدة قرنين من الزمان (١٠٩٥م إلى ١٢٩١م) واستمرت هذه الحرب بعد ذلك بشكل متقطع إلى القرن الخامس عشر، وترك كل ذلك أثره على صراعات دينية- دينية داخل المسيحية عندما قام مارتن لوثر بثورة "احتجاج" عام ١٥١٧، كما سيأتى ذكره، ثم صراعات بين المسيحية الغربية من

جانب والإسلام المشرقى فى العالم العربى من جانب آخر، ولذلك لم يكن مفاجئا لدارسى التاريخ، إثارة نعرة "الصليبية" مرة أخرى مع أحداث انفجارات نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما صاحبها من إعلان الحرب على أفغانستان فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١.

وإذا عدنا إلى بداية الإسلام، نجد مساراً مناظراً إلى حد ما، فمع بداية الوحى فى إحدى ليالى رمضان عام ٦١٠م بسورة "العلق" إلى عام ٦٣٢م مع وفاة الرسول أى خلال ٢٢ عاماً، شهدت الجزيرة العربية ظهور إحدى أهم الديانات فى المنطقة، فقد انتشر الإسلام فى المنطقة بالحرب أى بغزو البلاد المجاورة والتى كانت تتبع أيا من الامبراطورية البيزنطية شمالاً والامبراطورية الساسانية (أى الفرس) شرقًا، ثم كان الخلاف بين المؤيدين لعلى ابن أبى طالب وكونوا- من وقتها وإلى الآن- مذهب "**الشيعة**" أى من تشيعوا للإمام على ثم المؤيدين لمعاوية بن أبى سفيان وهم الذين من حرصوا على "وحدة الأمة" وأطلقوا على أنفسهم عبارة "**السنّة**". وظهر وقتها فريق آخر رافض لكلا الفريقين وعرف تاريخيا باسم "الخوارج" وقد حدث هذا الانقسام الكبير بشكل حاد وواضح مع معركة صفين بالعراق عام ٦٥٧م، وذهبت كل من هذه الفرق الرئيسية إلى طريق، وظهرت داخل كل منها فرق ومذاهب شتى، يعرف تفاصيلها أهل الاختصاص، ولكن ما رغبت أن أبرزه هو أن كلا من المسيحية والإسلام قد عاصر خلافات (فى المسيحية تسمى خلافات "لاهوتية" وفى الإسلام خلافات تسمى "فقهية") أدت أحيانا إلى مواجهات وربما حروب.

ومن ثم فإن تاريخ مسيرة انتشار الأديان عبر الألفيتين الأولى والثانية عرفت التمييز والتشرذم والخصام والحروب والكراهية، كانت أولا ولسنوات وقرون "داخلية" أى بين أنصار وأتباع الدين الواحد، ثم ما هو أخطر مواجهات خارجية بين الأديان وبالذات بين المسيحية والإسلام.

وسنعود لتحليل وأثر كل ذلك على الأوضاع المعاصرة بعد وقفة هامة وقوية عندما خرج **مارتن لوثر الراهب الكاثوليكى** "محتجًا" فى ٩٥ بندا على ممارسات

الكنيسة الكاثوليكية عندما أصدرت الأخيرة "صكوك الغفران" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

الزلزال بالاحتجاج على صكوك الغفران

ولد مارتن لوثر في ١٠ نوفمبر عام ١٤٨٤ في قرية متواضعة من إقليم ايزيناك Eisenac الألمانية باسم هانز لوثر وعند عماده وهو طفل أُعطي اسم "مارتن" لأنه ولد في ليلة عيد القديس مارتن وهكذا أصبح اسم الطفل من وقتها "**مارتن لوثر**" والذي احتل موقعا رائدًا كمصلح ديني طوال النصف الأول من القرن السادس عشر، ففي ١٨ يوليو عام ١٥٠٥ استقال الشاب مارتن لوثر من وظيفته في التدريس الجامعي ليصبح راهبا في دير القديس أغسطينوس وكان هدفه من ذلك هو حصوله على "الخلاص"..!! وبعد حياة عزلة في الدير اقتنع ستوبيز Stauptiz عميد كلية اللاهوت في مدينة فيتمبرج، أن مارتن لوثر يحسن أن يدرس الفلسفة ليتابع دراسته في كلية اللاهوت وليلقي محاضرات عن أرسطو.

ولا أود أن أستطرد كثيرا لسرد قصة حياة هذا الراهب الكاثوليكي الذي أحدث تغييرات هائلة في الفكر المسيحي، وذلك من خلال ثورته واحتجاجاته على ممارسات "صكوك الغفران".

كانت بدايات ظاهرة صكوك الغفران أثناء الحملة الصليبية حيث كان باباوات روما يمنحون هذه الصكوك إلى بعض الفرسان المتطوعين للمخاطرة بحياتهم، بالاشتراك في هذه الحرب، ولصكوك الغفران فلسفة دينية- ليس هذا مكانها- ولكن لها منطقها الديني اللاهوتي، ولكنها أصبحت مع الممارسات الخاطئة أسبابا للحصول على المال، ومن ذلك أن البابا ليون العاشر عندما تم تجليسه على كرسي القديس بطرس عام ١٥١٣، ورغب في إجراء توسعات وإصلاحات في كنيسة القديس بطرس في روما، فأصدر قرارا في ٣١ مارس ١٥١٥ ببيع

صكوك غفران، واعترض "البيرخت" albyrecht رئيس أساقفةماينز الألمانية، وتم الاتفاق بينهما على أن يقتسم ثمن بيع الصكوك مع البابا لسداد ديون بنك فوجر Fugger الذى كان مُقرضا الأسقف بسعر فائدة وصل إلى ٢٠ ٪.

استفز هذا الأمر الراهب مارتن لوثر، وفى ٣١ أكتوبر عام ١٥١٧ علق مارتن لوثر اعتراضاته أو احتجاجاته Protest ومنها جاءت كلمة وصفه أتباعه "البروتستانت" أى "المحتجين".. وقد سجل وجهة نظره فى ٩٥ نقطة (احتجاج) وقد قام الباحثون بتصنيفها إلى توجهات رئيسية هى:

- إن سلطان البابا لا يمتد لأبعد من الأرض أى ليس له سلطان على أرواح البشر بعد الممات، **وأن الغفران هو بالتوبة الحقيقية ولا يشترى بأموال**، لا بالنسبة للأحياء أو الأموات.
- إن دخول السماء أى الحصول على "الخلاص" ليس طريقا سهلا يشترى بالمال لأنه مكتوب "أنه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت السماوات" (أع١٤: ٢٢).

ويعتبر أتباع البروتستانية أن **٣١ أكتوبر عام ١٥١٧ هذا هو بداية "الإصلاح الديني" للكثلكة فى أوروبا**، وتوالت الخلافات والصراعات والمحاكمات، وكان التقرير الأول عن هذه الاحتجاجات هو أن لوثر يهاجم الكنيسة الكاثوليكية فى مبدأين لاهوتيين هما:

١- إن "الخلاص" هو من خلال الأعمال الطيبة التي يقوم بها الفرد ومن ثم **فهى مستحقات شخصية.**

٢- **إن السلطة الكنسية غير معصومة من الخطأ**، وعلى كل مسيحى أن يرجع إلى الكتاب المقدس، ومن هنا فإن البروتستانت عادة ما يشار إليهم بعبارة "الإنجيليين "لأن مرجعهم هو النصوص الواردة فى العهد الجديد أى الإنجيل.

وبناء على هذا التقرير أصدر بابا روما أمره إلى لوثر لكى يحضر للمحاكمة فى الفاتيكان خلال ستين يوما من استلامه هذا الأمر، ورفض لوثر الذهاب إلى روما وكان البديل محاكمته فى مدينة هيدلبرج فى ألمانيا، وظلت الحوارات التى انتهت بقرار حرمانه يوم ١٥ يونيو عام ١٥٢٠ وأصبح سارى المفعول بعد عدة أشهر، وفى قرار الحرمان كان الرد على ٤١ من احتجاجات لوثر فضلاً عن أنه يحرم لوثر من الوعظ وتحرق كتبه التى كتبها وكذلك عدم التعامل مع كل من يعتنق مذهبه.

بدأ لوثر بنشر أفكاره فى ثلاثة كتب الأول بعنوان: **"إلى الأمة المسيحية الألمانية النبيلة"** وهى رسالة وطنية موجهة إلى الشعب الألمانى باللغة الألمانية، جاء بها: "على الشعب الألمانى أن ينفض عن كاهله التدخل الأجنبى فى شئون الأمة الألمانية"، إلى أن قال: "إن الرومان (كناية عن كنيسة روما) قد وضعوا حواجز لكى يحتفظوا بالسلطان بعيداً عن ألمانيا" ونذكر فيما يلى بعض أهم فقرات هذا الكتاب:

- **إن الكنيسة الرومانية تضع السلطان الروحى فوق السلطان الزمنى**، وأن مارتن لوثر يرفض هذا المفهوم لأنه لا يوجد أمام الله أكليروس (وهى تعنى كل رجال الدين على كل رتبهم) وعلمانيون (وهى كلمة تعنى الشعب المتدين الذى لا يحمل رتبة كهنوتية) ومن ثم **فلا يوجد طبقة إكليروس كهنوية مسيطرة وطبقة علمانية مسيطر عليها** فكلنا ملوك وكهنة الله".
- **إن الكنيسة الرومانية جعلت حق الاحتفاظ بتفسير الكتاب المقدس للإكليروس فقط**، ونادى لوثر بدعوة الجميع ليس لقراءة الإنجيل والكتاب المقدس فحسب، **بل حق تفسيره أيضا**.

أما كتابه الثانى فكان عن **"أسرار أو عقائد الكنيسة السبعة"** والتى نقض خمسة منها وأبقى على اثنين هما «المعمودية» و«العشاء الربانى».

وكذلك جاء الكتاب الثالث عن **"الحرية المسيحية"**، مناديا بأن **"المسيحى إنسان حر وسيد لكل الاشياء"**، كما أن المسيحى خادم مطيع للجميع، أى أن "الانسان الذى حررته نعمة الله **أصبح إنسانا جديدا وخليقة جديدة ليثمر الثمار الصالحة"**.

وفى ١٠ ديسمبر عام ١٥٢٠ دعت جامعة فيتمبرج إلى اجتماع عام وأعدت حجرة معدة لإشعال النار بكيفية تناظر ما كان متبعا عند حرق ملابس المرضى المصابين بمرض الطاعون، وتقدم مارتن لوثر وألقى فى النيران بكتب "القانون الكنسى" والقرار البابوى الذى يحتوى حرمانه، وكان طبيعيا أن يصدر البابا ليون العاشر فى ٣ يناير عام ١٥٢١ قرارا بحرمان لوثر وأتباعه.

وكان طبيعيا أيضًا أن تنتهى كل تلك الهزات العنيفة فى المؤسسات الدينية والاجتماعية إلى **ثورة الفلاحين ضد الأمراء والنبلاء** (بعد أن كانت قد قهرت وكبتت عدة مرات فى ظروف وبلاد مختلفة: فى فرنسا عام ١٣٥٧، وفى انجلترا عام ١٣٨١، وفى سويسرا عام ١٥١٣، وفى النمسا والمجر ومدن الراين عام ١٥١٧) ففى نوفمبر عام ١٥٢٤ أثار الفلاحون فى جهات كثيرة فى ألمانيا ويقدر من راحوا ضحية هذه الثورة الشعبية بنحو ١٠٠ ألف شخص، وقد اتهم مارتن لوثر بأنه هو وحركته كانوا وراء ثورة الفلاحين **فاختلطت أوراق الدين بالسياسة وربما كان ذلك أحد أسباب انتشار البروتستانتية فصار بداية لعصر النهضة فى أوروبا كلها.**

على أن أعجب ما حصل لهذا المصلح الدينى الفذ، هو **واقعة زواجه وهو ابن ٤٢ عاما** من الشابة كاثرين ابنة ٢٦ ربيعا والتى كانت- فى الأصل- متجهة إلى أحد أديرة الراهبات وقد تم زواجهما فى ١٣ يونيو عام ١٥٢٥ **وأنجبا عدة أولاد وبنات** ولكنه فقد -قبل وفاته- ثلاث بنات وترك ذلك فى قلبه جرحا عميقا.

صار **اسم مارتن لوثر علامة بارزة على تاريخ المسيحية وتاريخ أوروبا وحركة الإصلاح الدينى** وقد أثر كل ذلك على العالم، وانتشرت **اللوثرية أو البروتستانتية**

أو الإنجيلية فى أربعة أركان الأرض وتفرع منها كنائس أخرى كثيرة تقع تحت هذا التصنيف العام، وعندما اكتشفت أمريكا عام ١٤٩٢، عبرت البروتستانتية إلى العالم الجديد، توسعت وترعرعت وظهرت مذاهب فرعية جديدة، فقد كان مارتن لوثر أول من كسر القيود الحديدية وفتح باب "الاجتهاد" المسيحى والتفسير أى "التأويل" للنصوص، فاللوثرية بكل تنوعاتها وتفريعاتها قد فتحت نوافذ **"التجديد"** على مصراعيه.

نعود لكى نكرر ذات المبدأ الذى سبق أن ذكرناه وهو أن البروتستانتية على أنواعها قد خرجت من رحم الكنيسة الكاثوليكية، لكى تصلحها أو تكون بديلا لها، واستمرت البروتستانتية وكذلك استمرت الكثلكة بل وصارت تلك الأخيرة أكبر المجمعات والمذاهب المسيحية عدداً ونفوذاً فى العالم ولكنها وتعايشت مع كل الأديان والمذاهب السابقة واللاحقة لها.

غير أن استمرار بقاء الكثلكة كان له شروط وظروف ومعطيات جعلت الاستمرار ممكنا إذ **لم يتحول إلى ديانة تاريخية قديمة تراثية** وذلك بفضل آليات التطوير والتغيير وكان آخرها مؤتمر الفاتيكان الذى تم فى أوائل الستينيات، وكذلك من خلال **التلقيح الثقافى مع أيديولوجيات أديان** أخرى كما سيأتى ذكره فى الفصل الثامن القادم عن «لاهوت التحرير».

وحدة النصوص الدينية لكل دين واختلاف المنتج الإنسانى

من هذا السرد التاريخى، ننتقل إلى واقع الأديان حاليا، فنلاحظ أن كل دين يستند إلى مرجعية نصية واحدة، ولكنها تختلف -منطقيا- من دين لآخر اختلافاً بيننا، وبالنسبة للأديان الإبراهيمية فإن هذه المرجعيات ممثلة فى التوراة لليهودية والإنجيل للمسيحية والقرآن للإسلام.

وكما ذكرنا فى السرد التاريخى، فإن الأديان تبدأ نقية ثورية إصلاحية وتجذب الناس للدخول فيها ولكنها تتحول من رسالة إلى دولة أو خلافة أو

إمبراطورية، فتظهر فئة من رجال الفقه "أو اللاهوت" تحاول تفسير النصوص بالاجتهاد والفقه وعلم الكلام لتكرس نفوذ الحاكم وحوارييه، وتركز على نصوص تبرزها وأخرى تخفيها، كذلك فإن الدين عندما يغزو أو يبشر بنصوصه لدولة أو مجتمع له حضارة وعقيدة أخرى، فإنه يؤثر فى القديم ويتأثر به، **فالمسيحية عندما دخلت مصر تأثرت بالعقائد المصرية القديمة**، فمثلاً هناك فكرة وجود الكهنة وعلامة "عنخ" مفتاح الحياة والتى تحولت لتكون علامة الصليب وهو رمز الخلاص فى المسيحية، كذلك حدثت تأثيرات مختلفة بالاحتكام للفكر والفلسفة اليونانية، ويبدو ذلك فى رسائل بولس الرسول لأنها كانت أفكارًا سائدة وقت ظهور المسيحية.

وهذه القواعد العامة تبدو جلية فى التطبيق على معظم الأديان، فقد انتشرت المسيحية في القرون الأولى وكان حماس المقهورين والعبيد من الشعوب للدخول اليها واضحًا ومبشراً بأهميتها لنقائها ونشر المساواة بينهم، وعندما انتقلت المسيحية إلى مرحلة تالية وصارت امبراطورية واسعة فى القرن الرابع حدثت انشقاقات بسبب تفسيرات حول قضايا عقائدية لاهوتية كما سبق القول، ومع تدافع الزمن ظهرت توجهات جغرافية سياسية قديمة تجددت، فزاد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب بزعامة روما إحياءً للامبراطورية الرومانية القديمة، وتشرذمت وزادت الخلافات بين الكنائس المشرقية القديمة والتى كانت منارات فكرية فى القرون للمسيحية الأولى، وبعدها جاء الفتح الإسلامى الذى فرض ثقافته وشريعته فتحولت الفرق المشرقية إلى **ملل ونحل وأهل الذمة** وتأثرت ممارساتها بأسلوب المعيشة تحت مظلة الحضارة العربية الإسلامية" فى عصر ازدهارها وقوتها.

وحدث مسار مماثل مع الاسلام -بشكل أو بآخر- فرغم وحدة النصوص الدينية -وكما قال **الخليفة على بن أبى طالب**- فإن القرآن "حمَّال أوجه"، أى أن النص الديني يمكن تفسيره بوجهات نظر ليست متطابقة، كان الشقاق الأول إلى

سنّة وشيعة وخوارج كما سبق القول، ثم انتشر الاسلام إلى دول وشعوب لها حضارات قديمة وعبر قرون الفتح الأولى غيرت بعض الدول والشعوب لغتها إلى العربية، وهو ماتم لمعظم دول الوطن العربى والتى تتكلم الآن العربية، ولكن هناك دول أخرى **قبلت الإسلام ولكنها احتفظت بلغتها الأصلية كما فى إيران وآسيا الوسطى والصين والهند وأندونيسيا** وغيرها، والمشاهد أن الشعوب التى لا تعرف الاسلام إلا من خلال ترجمة النص الدينى إلى لغتها، تكون أكثر تشددا فى ممارسة الإسلام.

وعندما قام الإسلام بفتح أو غزو دول وشعوب أخرى، كان أن قهر الديانات السابقة وبالفعل اختفت المسيحية واليهودية فى معظم بلدان الجزيرة العربية وفى الدول التى تقع غرب مصر من ليبيا حتى المغرب، وفى بلاد أخرى استمرت المسيحية والإسلام معا، كما فى مصر وبلاد الشام والعراق، أما فى المغرب فقد استمرت جالية يهودية كبيرة صاحبة نفوذ عندما هاجروا من الاندلس مع غزو المسيحية لها خلال القرن الـ ١٥ والملاحظ أن الدول التى استمرت فيها الديانات السابقة على الإسلام كانت الممارسات الدينية للإسلام فيها أكثر سماحة، وكان ذلك هو السبب فى استمرار هذه الديانات أعنى المسيحية أو اليهودية أو هما معا، وذلك بسبب **التفاعل أو التلقيح الثقافى بين الديانات.**

التعالى والتآخى

وفى إطار الديانة المسيحية ذاتها وبسبب ظروف تاريخية مرت بها المذاهب الرئيسية الثلاثة كما سبق الشرح. فقد لُوحظ وجود مشاعر مختلفة بين هذه المذاهب الثلاثة على مستوى المنطقة العربية وكذلك على المستوى العالمى، **فهناك "تعالى" للمنتمين للمذهب البروتستانتى على أتباع المذهب الكاثوليكى،** ويبدو ذلك واضحًا فى أمريكا أكثر منه فى أوروبا.

أما أتباع الكنائس الأرثوذكس، فمعظمهم موجودون فى المشرق وينظر إليهم بأنهم أقل المذاهب المسيحية تمسكًا بالقديم، ولم يتغيروا كثيرًا عبر قرون طويلة

ليس فقط فى الجوانب العقائدية والطقوس، وإنما فى الجوانب المجتمعية، والمشاهد أيضًا أنهم أكثر خضوعًا للقيادة الدينية أو السياسية ولذلك فهم -فى الأغلب الأعم- يؤثرون حياة "الجتو" ويتحاشون الأضواء والحياة العامة.

وما ينطبق على المسيحية ينطبق على الإسلام إلى حد كبير، فإنه -ورغم وحدة النصوص الدينية-، فإن المنتج الحضارى وهو "الإنسان" يختلف من قطر إلى آخر، فالمسلم المصرى متأثر برقائق الحضارات السابقة على الإسلام، أعنى المسيحية القبطية والفرعونية، ولذا يكون أكثر سلاسة فى تعامله من جيرانه ومجتمعه ومقتنعا بثقافة "قبول الآخر"، فأوجد التاريخ فى مصر اسلاما واحدا لا يتحزب لمذهب معين أو فقه خاص، ومن هنا ظهرت هذه المقولة المعبرة وهى:
"أن الاسلام المصرى: سني الوجه، شيعي الدماء، قبطى القلب، فرعونى العظام"

والمسلم المصرى يختلف فى تكوينه النفسى -بشكل عام- وبصرف النظر عن الفروق الطبيعية بين البشر -عن المسلم السعودى أو الإيرانى أو الأفغانى أو الصينى، وذلك أن الدين يتفاعل مع المجتمع الذى عاش لقرون طويلة تحت مظلة حضارات وديانات سابقة على دخول الاسلام، كما وأنه يتأثر بالظروف الجغرافية والمناخية، فالحياة البدوية فى الصحراء تفرض نمطًا ثقافيًا يختلف عن حياة الجبال والمناخ القارى فى أفغانستان وهذه وتلك تختلف عن الحياة الوادعة الزراعية حول مجرى نهر النيل فى مصر.. وهكذا

وفى إطار الأزمة السياسية الحالية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ اتضح أن هناك أنواعا مختلفة من الإسلام: فالإسلام المتشدد الأصولى -والذى أفرخ الارهاب- يستند إلى **نصوص دينية** مبنية على فلسفة وفكر "الجهاد" وله جذوره لدى بعض الفقهاء المعروفين، وهناك الإسلام السلفى ثم الاسلام الصوفى ثم هناك التيار الرئيسى الغالب Main Stream من الإسلام الوسطى المعتدل الذى يعتنقه أغلبية المسلمين، وهو الأمر الذى دعا زعماء الغرب مثل بوش وبلير وشيراك إلى التفرقه بين الإرهاب والإسلام، ولكن السؤال هو أى إسلام..؟

وإذا كنا قد ذكرنا حركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى أوائل القرن ١٦ فى أوروبا وكيف أنها كانت البداية لمسار تغيير هائل فى اتجاه بزوغ الحضارة الغربية "المسيحية" المعاصرة، فربما "يطمع" التاريخ فى **حركة إصلاح دينى إسلامية فى القرن ١٥ الهجرى،** تكون بداية لتغيير مفاهيم تقليدية وتكون خطة انطلاق لمشاركة الحضارة العربية الإسلامية مع حضارات العالم بقبول التنوع والاختلاف وليس سيادة حضارة واحدة أو دين واحد.

الصراع بين الأديان قديم ومتجدد... لم يحسم بعد

منذ سنوات طويلة يجرى ما صار يعرف ويشار إليه بعبارة "الحوار بين الأديان"، حيث يجتمع ممثلو بعض الأديان أو بعض المذاهب داخل دين واحد، بهدف إيجاد علاقات "مودة" - ولو مؤقتة أو ظاهرية - يكون الأطراف فى حاجة إليها - لتخفيف حدة "الصراعات" المتراكمة عبر التاريخ والتى تتأزم ثم تنفرج بين حين وآخر، وتنتهى هذه الاجتماعات عادة دون الوصول إلى "إعلانات" أو نتائج واضحة **تؤدى إلى "تصفية" أو خلق صياغة جيدة لهذه الصراعات،** ولذلك فهى تخمد ثم تعود لتشتعل نتيجة أحداث طارئة تظهر على السطح بين الحين والآخر فى هذا القطر أو ذاك، وهى ناجمة عن أفكار وتوجهات كامنة داخل نفوس وعقول البعض، من هذا الفريق أو ذاك، وربما تكون قد تولدت نتيجة جروح أو تراكمات تاريخية وخلافات عميقة فى نصوص العقيدة، فالكل يتحاشى الاقتراب منها، لأنها تمثل "ألغاما" قابلة للانفجار وظهرت عبارة "دع الفتنة نائمة، لعن الله من يوقظها".

وعندما حدث ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وقامت الحرب بالفعل فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ ضد "الإرهاب الدولى" وتم غزو أفغانستان، ظهرت الحاجة - أكثر من أى وقت مضى - إلى "إعادة فتح" الحوارات بين الأديان، **وبالذات بين المسيحية والإسلام،** باعتبار أن الغرب ينتمى إلى ما يمكن أن يسمى "الحضارة الغربية المسيحية". كما أن الصراع العربى - الإسرائيلى قد تحول تدريجيا - منذ

زيارة شارون للمسجد الأقصى فى ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠- ليكون صراعًا دينيًا، لذلك اختلطت الأوراق بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة بكل ما تحمل داخلها من "تحالفات" ظاهرة أو خفية و"تناقضات" عميقة أو سطحية، فصار إلقاء "بعض" الضوء على ما يمكن أن يسمى جروحا "قديمة" للصراعات بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة أمرًا مستحبًا، إذا كنا راغبين حقًا فى خلق مناخ "جديد" فى عالم "جديد" تخف فيه الصراعات من خلال ثقافة وفكر "قبول الآخر" أى المعايشة والحوار ...

وفى هذا الإطار نستعرض -فى رفق وحساسية- بعض الملاحظات والمشاهدات العامة القائمة بالفعل:

[١] كل من هذه الديانات الثلاثة لديه إحساس بـ"التعالى" والتفاخر الداخلى على الآخرين.

فلدى اليهود إحساس -إن حقا أو باطلا- بأنهم "الأصل" بين هذه الديانات الثلاثة لا أقول "الأقدم"، فهم بالفعل "الأقدم" "The oldest" ولكنهم يودون أن تكون لديهم "المرجعية" أو The Original فهى الديانة الأولى التى عرَّفت البشرية بالخالق الواحد العظيم أو بالرب أو الله أو العلى القدوس أو "يهوه"، ومن ثم فهى ديانة "السماء" الأولى، وقد حصلوا كشعب على لقب "**شعب الله المختار" الذى وعدهم ببلاد "تفيض لبنا وعسلا".**

وبالنسبة للديانات الأخرى فإن اليهود يتباهون بأن المسيح يهودى المولد، وأحيانا "يغالون" بأن المسيح الذى يدين به وله كل مسيحيو العالم، ليس هو المسيح الذى ينتظرونه والذى لم يظهر بعد، ويؤكدون أن الإسلام يعترف بهم وبتاريخهم وقصصهم وأن ذلك مسجل فى كتابهم الكريم، ولكن لا يوجد لدى اليهود ما يشير إلى ظهور سيدنا محمد..!

وكل من يتعامل مع يهودى- متدينا أو غير متدين- يلمس هذه الرؤى بين أقواله الظاهرة أو الخفية.

أما المسيحيون فلديهم إحساس "بالتعالى" من منظور مختلف، فالمسيحيون في مجملهم- إن لم يكونوا أكثر الديانات عدداً- فهم من أكثرها أهمية، وتأثيراً في حركة السياسة والحضارة والاقتصاد، ورغم إدراكهم بأنهم مذاهب وفرق شتى، ولكنهم في التحليل النهائى أتباع "يسوع الناصرى الملقب بالمسيح" كما أن معظمهم يشعرون أن الحضارة الغربية منتمية إلى "المسيحية" وهذا يمثل التعالى فى جانبه الحضارى والسياسى.

أما من الناحية الدينية، فهم يشعرون أنهم "**أبناء الله**" أى أن لهم صفة "البنوة" لله، أما بالنسبة لعلاقتهم باليهودية، فأغلبهم يحمل لهم قدراً من "الكراهية" بسبب أن المسيح قد جاء لليهود أولاً، ولكنهم رفضوه فذهبت الرسالة إلى الأمم (أى إلى غير اليهود) ولكن الأهم هو أن اليهود وكهنتهم هم الذين طالبوا بيلاطس البنطى بصلب المسيح وصاحوا: اقتله.. دمه علينا وعلى أولادنا".

ومن المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية قد برأت اليهود (الحاليين) من دم المسيح ولكن هذه جزئية خلافية مع مذاهب أخرى.

أما علاقة المسيحية بالإسلام فهى متناقضة لأنها تحمل مودة من جانب، بسبب وجود نصوص توصى خيراً بأهل "الكتاب" عموماً وقبط مصر خصوصاً، ولكن هناك خلافات عقائدية عميقة بسبب وجود نصوص واضحة فى مقدمتها الخلاف حول قضية **التثليث والتوحيد**، وأخرى حول "**صلْب المسيح**" وهى أمور أساسية فى العقيدة المسيحية وغير معترف بها فى العقيدة الإسلامية، ويقول بعض المحللين: إن ما جاء فى العقيدة الإسلامية قد يكون متأثراً بما أعلنه "أريوس" صاحب البدعة التى أثارت خلافاً عقائدياً داخل العالم المسيحى عام ٣١٨م وانعقد بسببها مجمع مسكونى فى مدينة نيقيه عام ٣٢٥م لدحضها، كما سبق أن ذكرنا.

وهناك نصوص صريحة توفر لدى كل مسلم الاعتزاز بدينه وتعطيه **قدراً من التعالى والتفاخر** فهم "**خير أمة أخرجت للناس**" وأن "**الدين عند الله الإسلام**".

وكما ذكر في قصة الاسراء، فإن جبريل -عليه السلام- قد جعل الرسول "إمام" جميع الأنبياء أي وضعه في المرتبة الأولى بينهم فضلاً عن أنه "**خاتم المرسلين**" وصار أتباعه لهم مسمى "الخاتمية" أي أتباع الرسول "الخاتم".

[٢] الحروب الصليبية نقطة سوداء لدى الإسلام والمسيحية:

ومن الناحية التاريخية، كانت الحرب الصليبية علامة مخزية في تاريخ الديانتين، وقد تم خلالها قتل وحصار ومجاعات وخدع وانتصارات وهزائم لدى كل من الجانبين. وغالبًا ما يتم الرجوع إلى بعض من هذه الأحداث فتروى بتفاصيلها عندما تجيء مناسبات مثيرة لجروح الماضي، وحتى الآن **لم يتم فتح هذا الملف لتنقيته تاريخيًا** على الرغم من أنها قد مضت وانتهت، لعلها- مع المكاشفة- تصبح وكأنها مثل تاريخ الفراعنة أو الأشوريين مجرد تاريخ يُسرد أو يُروى بخيره ومرّه حتى تتطهر النفوس وتشفى من **مرض "الصليبية". فتاريخ الانسانية القديم مملوء بالرق وتجارة العبيد وقتل الأسرى واغتصاب النساء** وكلها أحداث تشمئز من سماعها كل نفس حساسة، فلماذا الوقوف طويلاً عند أحداث الحروب الصليبية. لقد قام البابا يوحنا بولس الثاني بابا روما الحالي بالاعتذار عما جرى وطالب بتجاوز هذه الأحداث، ولكن النفوس لم تصف من الداخل، ثم جاءت عبارة الرئيس جورج بوش "الابن" أن الحرب ضد الإرهاب ستكون "صليبية" **لتفتح الجروح من جديد**، ولذا فإن حوار الأديان في المستقبل -وإذا كان حاملاً الجدية والصدق - لابد أن يؤدى إلى **صفاء تاريخي لعصر جديد**، وعلى المشاركين في الحوار بين الأديان أن يدرسوا خطة لفتح هذا الملف توطئة لإقفاله على "نظافة" بإقرار أن الحروب كانت خطأً تاريخيًا وبقرارات من الجدود وفق مفاهيم وثقافة هذه الأزمنة المتخلفة من الجانبين وبها جرائم متبادلة...!! ويحسن الاعتذار المتبادل وقفل الملفات القديمة.

[٢] عدم تداول النصوص التى تجرح مشاعر الآخر:

أما النصوص التى تدعو لكراهية الآخر، وهى موجودة بالفعل، ويتم استخدامها بين الحين والآخر، فهى فى حاجة إلى طرح ومناقشة خلال "الحوار بين الأديان" **والاعتراف بوجودها وتفسير ظروف تنزيلها**، حتى لا تستخدم لإثارة الكراهية، وإعادة مناخ الخصومة ضد المسيحية أو اليهودية، وإلا فسوف يظل المناخ الحالى قائماً ومثيراً لتساؤلات كثيرة.

الأيديولوچيات وتفاعلها كمكون ثقافى

وإذا كانت الأديان عموماً -سماوية أو غير سماوية- لها أثرها على التركيبة الثقافية للإنسان فإن هناك عوامل أخرى كثيرة تفاعلت فى تكوين رؤية وثقافة الإنسان وفى مقدمتها ما يسمى "الأيديولوچيات"، وهى كثيرة وأكثر حداثة ومن ثم وجب إلقاء الضوء عليها لأهميتها.

وإذا كانت الأديان -فى مجملها- هى عقائد وعبادات وممارسات مرتبطة بعمل إلهى ولها نصوص وتفسيرات واضحة -مهما كان هناك خلاف داخلى مذهبى بشأنها- **فإن الايديولوچيات هى عمل فكرى إنسانى** تحدد رؤية محددة إلى العالم، وتتطلب غالباً برنامجاً للعمل يهدف إلى **تحقيق مستقبل للبشرية** على المستوى الاجتماعى والسياسى، ولذا فإن هذه الرؤية تتضمن تصوراً للمستقبل أفضل من الحاضر أى أنها تحتوى على رسالة تدعو إلى إصلاح الخلل القائم فى الحاضر.

وفى رأى البعض، **فالدين منشغل بقضايا كثيرة فى الحياة ولكنه معنى بما بعد الموت أساساً**، بينما الايديولوچيا تعمل على تحرير الانسان فى الأرض أى ما قبل الموت بمعنى تحسين النظام الاجتماعى والسياسى تحسيناً جذرياً.

والأيديولوچيا كلمة يونانية، ربما كان أول من استخدمها الفيلسوف الفرنسى ديستوت دى تراسى Destutt deTtracy الذى ولد فى باريس عام ١٧٥٤، بما

يعنى ما ترجمه "علم الأفكار" ويقصد به "العلم الذى يضع نفسه فى خدمة الانسانية" وقد انتشرت هذه العبارة إبان عصر الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ والذى اقترنت بالشعارات الثلاثة الشهيرة: الحرية - المساواة - الإخاء، ذلك أن مغزى الثورة الفرنسية كان تعبيراً عن عدم الرضا المتصاعد الذى شعر به الناس إزاء الدين ورجاله، إذ أدرك الناس أن **الدين أصبح شيئًا فشيئًا غير قادر على الوفاء بمتطلبات الجماهير الغاضبة** وتطلعاتها إلى مستقبل أفضل على الأرض، ومن ثم كان ظهور "إيديولوچيات" عديدة، وفي مقدمتها وأشهرها **الماركسية** والتى ظهرت فى منتصف القرن ١٩ فكانت تحديا للدين عمومًا والكثلكة خصوصًا، والتى كانت سائدة فى أوروبا وأمريكا اللاتينية والتى شاهدت حركة التحرر الوطني في منتصف القرن ٢٠، ومن هنا كانت أهمية العلاقة بين الدين والأيديولوچيات والتى نتج عنها ما صار يعرف بـ: "لاهوت التحرير"، وهو الأمر الذى سنتعرض له تفصيلاً فى الفصل الثامن والأخير.

الفارق بين الأديان الشرقية والغربية:

إن الصراع الذى تفجر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وقد عبر عنه أنه **صراع بين الغرب والإسلام**، ولكننى أراه صراعًا بين مجمل الثقافات (بما فيها الديانات) الموجودة فى الغرب، والتى تطورت وتفاعلت مع العلم وواقع الحياة العصرية ولم تعد معيقة لتقدم البشرية والعلم والانسان، وفى الجانب الآخر هناك الديانات الإبراهيمية فى المشرق (وأغلبيتها من المسلمين) حيث الممارسات والمؤسسات الدينية قوية سواء كانت مؤسسات إسلامية أو مسيحية يراها البعض معيقة للتقدم، لأن المشرق لم يفرخ حركة استنارة ونهضة استمرتا لفترة طويلة كان لها تأثيرها على الواقع الثقافى.

وإذا قارنا حياتنا الثقافية بما جرى فى أوروبا نلمس الفارق الشديد- وكما سبق أن ذكرنا -فإن ما قام به مارتن لوثر من "احتجاجات" عام ١٥١٧ كان بداية لحركة إصلاح دينى استمرت متدفقة حية وقد استكملها كثيرون فى

مقدمتهم **جون كلفن** والذى قاد حركة إصلاح دينى متأثراً بأفكار مارتن لوثر وصار له مذهب عرف باسمه في فرنسا وهولندا فى القرن ١٦، ثم تدافعت التطورات للتغيرات الكبرى وصولاً إلى "عصر النهضة" والثورة الفرنسية وظهور الأيديولوچيات المختلفة بما فيها الماركسية، وكان أن أصبح الدين المسيحى الغربى مسألة شخصية وليست مجتمعية بفصل الدين عن الدولة، ثم كان انتشار أيديولوچيات علمانية ووجودية وغيرها. **ولذا لم يعد الدين معيقا للتقدم الإنسانى**، ثم ظهرت مذاهب كثيرة أخرى -وبالذات فى أمريكا- تحت مظلة الكنائس الإنجيلية أو اللوثرية أو البروتستانتية وأخرى أخذت أسماء جديدة مثل المعمدانيين والميثودست وعشرات غيرهم، ولذا كانت هذه المذاهب فى جملتها منفتحة على المجتمع ولا تمنع تقدمه، ومنها ومعها ظهرت الجمعيات غير الحكومية Non- Governamental Organisation وبعض منها له صبغة دينية وأحيانًا تبشيرية ثم هناك ما يسمى المؤسسات Foundations مثل مؤسسة فورد وروكفلر وفولبرايت وغيرها، **وهو نظام مأخوذ من فكرة "الوقف" النابعة من الحضارة الإسلامية**، حيث يترك رجل خيِّر أموالا أو عقارات يُصرف من إيرادها على أعمال خيرية، ولكن الفارق الرئيسى -حاليًا- هو أننا فى المشرق لازلنا نركز على إعانة الفقراء ودور العبادة، بينما هم يركزون على تقدم الحياة على الأرض مثل إنشاء الجامعات ودور البحوث العلمية والاجتماعية ومشاريع التنمية والحريات العامة، ولا بأس من الأعمال الخيرية الخدمية مثل المستشفيات والتعليم والمتاحف وما إليها، وهذا هو سر قوة وفاعلية المجتمع الأمريكى، تحديداً حيث الجمعيات الأهلية ذات فاعلية فى الانتخابات وتأثير على اتخاذ القرار، وهكذا صارت عبارة المجتمع المدنى أو القطاع الثالث مرتبطة بالمجمعات البروتستانتية التى أشتد نفوذها وظهرت عبارة WASP's أى فئة البيض المنتمين إلى جذور إنجلوساكسونية White Anglo- Saxon Protestants، وهى الجماعة الأولى الحاكمة فى أمريكا ومن المتفق عليه أن يكون رئيس الجمهورية منتمياً إليها. وهو أمر غير مذكور صراحة فى الدستور ولكنه ممارس بالفعل، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا چون كيندى فقد كان كاثوليكيا.

الكاثوليك يتطورون..

أما الكاثوليك في أوروبا أو في غيرها فهي الكنيسة "الجامعة" أي المنتشرة في كل أنحاء العالم وهي أساسًا محافظة ولذا ثار عليها مارتن لوثر في القرن ١٦، فلم يكن أمامها من سبيل إلا أن تجدد نفسها من داخلها وكان ذلك عن طريقين أساسيين:

١- هو عقد ما يسمى **مجامع للفاتيكان**، وكان آخرها **المجمع الفاتيكاني الثاني** والذي امتد عقده لمدة سنتين ١٩٦٢ - ١٩٦٥ والذي فتح خلالهما حواراً شاملاً لما صار يعرف تقليديًا بالأبعاد الثلاثة للحياة المسيحية: البعد الطقسي، البعد الروحي التأملي ثم **أخيرًا البعد المدني** (أي العلاقة مع الحياة المدنية بما فيها الالتزام الاجتماعي والسياسي). وهذه المجامع التي تناقش تقريبًا "كل شيء" تصدر قرارات بابوية ملزمة لكل الكاثوليك أي أنها مارست **مفاهيم التجديد أو التصحيح الذاتي**، وهو أمر لم يقتحم بعد إلى مجال كنائس المذهب الأرثوذكسي عمومًا والكنائس الصغيرة في العالم العربي خصوصًا.

٢- ظهر في الكنيسة الكاثوليكية بعد مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين حركة سميت "**بالاستقلال الثقافي" عن الكنيسة الأم في روما**، فهي تطالب باحترام الثقافات المحلية في كل قارة أو إقليم حسب الأحوال، وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت حركة جديدة في أمريكا اللاتينية عرفت بعبارة "لاهوت التحرير" وهو الأمر الذي خصصنا لتفاصيله الفصل الثامن القادم، وكان من نتائج ذلك أيضًا تقوية لمجموعة الكاثوليك في مصر وصار رئيس الكنيسة القبطية (أي المصرية) الكاثوليكية مصريًا يحمل لقب "كاردينال"، فأدى ذلك إلى ازدهار الكثلكة في مصر وأدت هذه الاستقلالية الجزئية إلى انتشار الكثلكة في كثير من بلدان العالم في آسيا وأفريقيا.

فظهر في أفريقيا بالفعل تيار معبر عن "لاهوت تحرير إفريقى" يناسب حركات التحرير الإفريقية وتزعمه الأسقف الشهير ديزموند توتو Desmond Tutu والذى صاغ كتاب مماثلاً لما تم فى أمريكا اللاتينية يعرف بـ **ديزموند توتو واللاهوت الأسود.** وقد حصل هذا الزعيم الأسود الكاثوليكى على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٤ لدوره فى حركة التحرر للأديان فى أفريقيا، وقد قام بترجمته إلى العربية كذلك الأب وليم سيدهم اليسوعى وصدر عن دار المشرق في بيروت عام ١٩٩٧، ثم سرت ذات الموجة إلى آسيا، فظهر كتاب "لاهوت التحرير الآسيوى" تأليف الأب الويزيوس بيريس Aloysius Pieris وهو من سيرلانكا (سيلان) حيث ربط المسيحية الكاثوليكية مع الديانات الآسيوية أى البوذية والهندوسية والرواقية. وقد ترجمه إلى العربية أيضا الأب وليم سيدهم اليسوعى وصدر من المكتبة الشرقية فى بيروت عام ٢٠٠١.

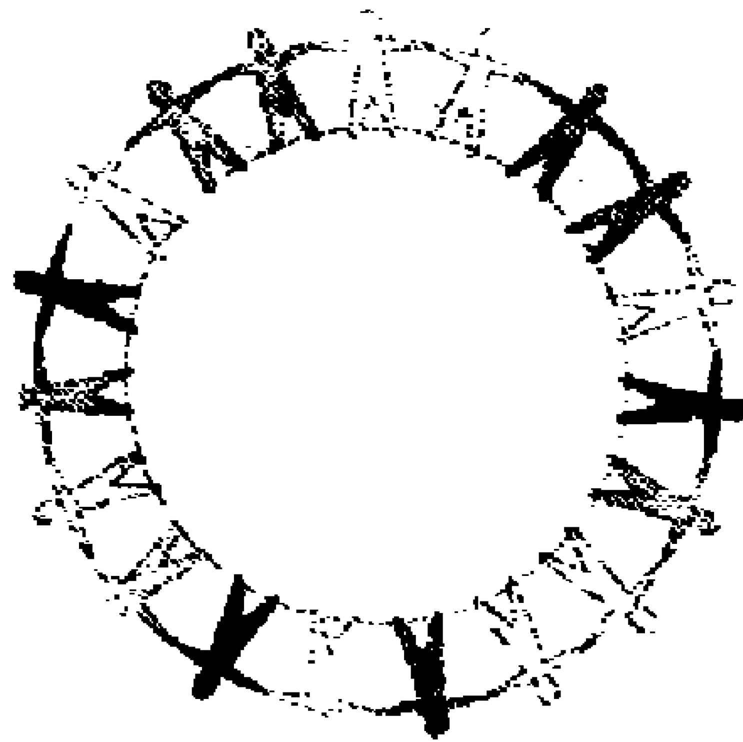
ومن منطلق شخصى فقد استمتعت بقراءة هذه الكتب الثلاثة، ووجدت فيها جهداً نظريًا فكريًا رائعًا، وتفهمت كيف طورت المسيحية ذاتها من داخلها لتناسب المتغيرات المتسارعة فى العالم، وقد يجئ وقت قريب يتم فيها حركات فكرية تحررية فى بلاد الحضارة العربية -الاسلامية فى المؤسسات الدينية (سنة وشيعة ومسيحية شرقية) وهو أمر ظهرت بوادره واضحة من خلال "**إعلان طهران**" الذى مهد لقرار الأمم المتحدة بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات وهو أمر سنذكر بعض مستنداته فى الجزء الثالث القادم من هذا الكتاب.

والرأى عندى أن الجامع الأزهر كأقدم وأعرق مؤسسة دينية إسلامية، قادت حركات التنوير مراراً عبر التاريخ فى حاجة إلى هزة قوية بالذات بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١، لتطوير المفاهيم الدينية لتناسب العصر.

كما أتوقع أن تشهد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية حركة تنوير وإصلاح دينى فى الحقبة القادمة لأن الكنائس الإنجيلية والكاثوليكية تمثل تهديداً حضارياً لها،

ومن ثم فإن بلدان العالم العربي والإسلامى لابد وأنها ستجد نفسها أمام تحدٍ ثقافي سيقود حتمًا إلى إصلاح دينى يتواكب مع تغيرات مجتمعية سياسية لمزيد من الديمقراطية وسيادة العقل.

وأختم هذا الفصل السابع الجديد بأن انتشار ثقافة "قبول الآخر" على نطاق عالمى واسع أمر أكثر صعوبة من تنفيذ خطط حربية تحقق نظرية "صدام الحضارات" وهذه المقولة تناظر ما قاله **الأخضر الإبراهيمى** مفوض الأمم المتحدة فى حل مشاكل الفرق المتصارعة فى أفغانستان فى اجتماعات المائدة المستديرة الذى عقد بمدينة بون بألمانيا فى نوفمبر عام ٢٠٠١ والذى قال: لقد أثبتت تجارب التاريخ **أن صنع السلام أصعب بكثير من صنع الحرب.**



2

الماركسية والكاثوليكية معًا

من «لاهوت التحرير» إلى «لاهوت الحياة»

- قصة الصراع بين الجناح الثورى والجناح الإصلاحى في الأيديولوچية الاشتراكية
- الاتحاد السوڤييتى سقط لأنه صدق الحتمية الاشتراكية ولم يطور أفكاره ونظامه من الداخل فعاشت قيادته في وهم
- أمريكا اللاتينية تبحث عن بديل ثالث وتجده في لقاء الكثلكة بالماركسية
- ١٩٦٨ عام فاصل فى نشأة «المسيحية الجديدة»
- من «لاهوت التحرير» إلى «لاهوت الحياة» من خلال المشاركة والممارسة
- تحرير الإنسان لم يعد بتخليصه من الظلم فقط بل وبتأمين كوكب الأرض بالمحافظة على البيئة
- هناك (فى أمريكا اللاتينية) قال كاسترو: من يخون الفقراء يخون المسيح

الماركسية والكاثوليكية معًا
من «لاهوت التحرير» إلى «لاهوت الحياة»

الماركسية لها جناحان

منذ أن أعلن «البيان الشيوعى» المسمى بـ«المانفستو» عام ١٨٤٨ تحولت النظرية والفلسفة التى سجلها كارل ماركس إلى حركة شعبية؛ لأنها نبهت لأهمية تجميع وتعبئة **«مشاعر إنسانية جماعية»** لمجموعة بشرية صاعدة وقوية، وهى **الطبقة العاملة** التى تكونت من خلال إنشاء المصانع على أنواعها أو ما أصبح يشار إليه بـ«الثورة التكنولوجية الأولى».

فقد تجمع العمال فى مواقع محددة هى المصانع ذاتها وبشكل مكثف داخلها وليس مثل الفلاحين الزراعيين المنتشرين فوق الأرض فى مسطح متسع، وكانت المصانع متقاربة جغرافيًا ونوعيًا قرب الأحياء السكنية وفى المدن التى تركزت فيها الصناعة، والتى نمت بشكل هائل طوال القرن التاسع عشر فى بلدان أوروبا الغربية بالذات ثم فى أمريكا بعد ذلك، فكان أن تكونت **النقابات العمالية** وظلت تنمو تدريجيًا وربما كانت البداية واضحة فى انجلترا بصفة خاصة، والتفت الحركات النقابية حول الأفكار الماركسية ثم أنشأت الحركة النقابية -ممثلة فى **اتحاد نقابات العمال**- حزب العمال البريطانى، والذى مازال حتى الآن برغم التغييرات الهائلة التى شاهدها العالم، هو التنظيم السياسى الرائد المرتبط المُمَوَل من اتحاد نقابات العمال، وإن كانت حكومة تونى بلير التى فازت خلال إنتخابات مفصلية فى صيف عام ١٩٩٧، قد أدركت أن التركيبة الاجتماعية لمواطنى انجلترا **قد تحولت من البروليتاريا إلى الطبقة المتوسطة**، وقد

آثر تونى بلير ان يختار عبارة **الطريق الثالث** لكى يتحاشى الاقتراب من عبارة **الماركسية أو الاشتراكية الديمقراطية** ولذلك تفاصيل ليس هذا مجالها.

وفى بلدان أخرى استهوت النظرية الماركسية المثقفين، أى تولدت أيضًا **«مشاعر إنسانية جماعية»** متعاطفة مع هذه الأفكار الجديدة، فكان أن أنشئت جماعة الفابيين **Fabian Society** فى بريطانيا، ثم نشأ تحالف المثقفين مع زعماء اتحاد العمال ليترجموا المشاعر الجماعية للطبقة العاملة، والتى شعرت بالقهروالظلم من طبقة الرأسماليين، وهكذا تكونت تدريجيًا **أحزاب «الاشتراكية الديمقراطية»** فى معظم دول أوروبا الغربية فى أواخر القرن التاسع عشر، وبخاصة فى فرنسا وألمانيا وبلدان شمالى أوروبا فى اسكندنافيا، وبرز دور هذه الأحزاب فى **السويد والنرويج والدانمارك**، وحتى الأحزاب اليمينية فى تلك البلاد قد اقتنعت مع مرور الوقت بأن **تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال الضرائب هو الضمان للأمن والتماسك واستقرار المجتمع.**

وكان طبيعيًا فى بلدان أخرى مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا أن يكون رد الفعل هو تجمُع الرأسماليين وأصحاب المصانع فى اتحادات تحولت إلى أحزاب سياسية، وأخذت تقاوم الأفكار التى يدعو لها فكر وأيديولوجية «الاشتراكية الديمقراطية»، **وتقاربت أحزاب الأحرار والمحافظين** ممثلة لليمين، وتحول الصراع الفكرى إلى صراع سياسى، ولكن فى إطار المناخ الديمقراطى والليبرالى الذى بدأ مع عصر النهضة الأوروبى منذ القرن السابع عشر، توصل المجتمع لصياغة قانونية استقرت مفاهيمها وأنتجت ما عرف **بالتوازن من خلال السلطات الدستورية الثلاث** وهى **السلطة التنفيذية** ولديها أدوات جهاز الدولة بكل ما تشمل من جيش وشرطة وسجون وأموال وجهاز بيروقراطى حكومى، ثم السلطة الثانية ممثلة فى البرلمان والتى يشار إليها باسم **«السلطة التشريعية»**، مع توسيع **سلطات القضاء واستقلاله** ليقيم العدالة والتوازن.

وقد بدأ **تداول السلطة يتم بشكل سلمى** بعد الحرب العالمية الأولى بالذات حيث فاز فى الانتخابات العديد من أحزاب الاشتراكية الديمقراطية، ولكن

المفاجأة الكبرى كانت فى **انشقاق الحركة الماركسية إلى جناحين: الأول لا يؤمن إلا بالتغيير الثورى العنيف، والثانى كان مقتنعًا بأن الوصول إلى السلطة يجب أن يكون بطريق صندوق الانتخابات**، أى الدعوة لتجميع «مشاعر» ومصالح ورؤى قطاعات من البشر فى طليعتها الطبقة العاملة لكى تصوت إلى جانب «الاشتراكية الديمقراطية»، وقامت الأحزاب المحافظة اليمينية من ناحيتها بتجميع مشاعر قطاع أخر من البشر يتضمن أيضًا الكثير من الفقراء بما فيهم العمال ولكنهم لسبب أو لآخر مقتنعون بأن استقرار المجتمع يكون فى حكم الرأسمالية التى توفر الخير العام فيصلون إلى مستوى معيشة أفضل ولذا كانوا يصوتون لصالح هذه الأحزاب، وقبلت الأطراف المتصارعة «لعبة» تداول السلطة من خلال الانتخابات أى من خلال إقناع الناس بمصالحهم أو انتماءاتهم أو تبنى ما يمكن أن يملأ وجدانهم، **فالتصنيف الطبقى وحده لا يكفى لفرز البشر.**

هذا عن الصراع السلمى بين اليمين بعامة والتيار الاشتراكى الديمقراطى فى دول أوروبا الغربية، لكن كان هناك فريق ثورى آخر كان يتعجل الأمور ويرى أن **الوصول إلى السلطة من خلال الانتخابات طريق متعرج طويل** وكانت نظريته أن **المشاعر الإنسانية تتكون من خلال عمليات مجتمعية معقدة**، منها الأسرة وظروف النشأة وعوامل الوراثة فضلاً عن التعليم والدين والعقيدة التى تتكون فى الكنائس (قبل وجود وسائل الإعلام الجماعية من إذاعة وتليفزيون) ولذلك كان البديل للتغيير وهو أن الوصول إلى السلطة **لن يتم إلا من خلال الثورة والعنف،** ومن ثم يكون التنظيم والدعوة لها بطريق سرى حتى لا تطارده السلطة القابضة وهى محكومة بالرأسماليين، على حسب مفهومهم وأدبياتهم.

وبالفعل قام «لينين» بمزيد من الجهد النظرى لا يقل أهمية عن جهد كارل ماركس ذاته حتى صارت مزيجًا يشار إليه بعبارة **«الماركسية - اللينينية»** كنظرية سياسية أكثر فاعلية، فلم يكن لينين مفكرًا وفيلسوفًا فحسب إنما هو منظم للبشر ورتب لقيام ثورة استطاع من خلالها أن يحول نظريته إلى واقع...

فقد استولى الحزب الشيوعى على السلطة فى روسيا القيصرية بما أصبح يُعرف عالميًا **بثورة أكتوبر عام ١٩١٧**، وقدم نموذجًا آخر يخالف نموذج ومفاهيم وطريق «الاشتراكية الديمقراطية»، وقد انبهر بهذا الفكر وهذا النموذج جماعات صغيرة من المثقفين فى معظم دول أوروبا حيث أسسوا أحزابًا تدين بالنظرية ذاتها والنهج ذاته، سميت بـ**«الأحزاب الشيوعية»** لكى تكون مختلفة وأحيانًا معادية لأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التى كانت قد احتلت موقع الحكم بالفعل وصارت أحد معالم الحياة السياسية والفكرية في كثير من بلدان أوروبا الغربية.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى، كانت الحكومات المحافظة في الدول الغربية قد أدركت **الخطر ا حتمل من استيلاء الشيوعيين «البلاشفة» على الإمبراطورية القيصرية الروسية** المترامية الأطراف، لكن وبرغم كل العقبات فإن الثوار مضوا فى خطتهم فحوّلوها إلى جمهوريات اشتراكية يحكمها مندوبو الشعب، أى ممثلو الجماهير التى تحركت لتنفيذ الثورة والتى استولت على السلطة والمرتبطة بالفكر الشيوعى، وهم الذين اطلقوا على أنفسهم لفظ أو صفة «السوفييت» أى المندوبين، **وفى عام ١٩٢٢، أنشأوا «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»** والذى أصبح يعرف فيما بعد اختصارًا بـ«الاتحاد السوفييتى» وغدا محكومًا بحزب واحد وهو الحزب الشيوعى المسمى **«البلشفى السوفييتى»** طليعة للطبقة العاملة المسماة **«البروليتاريا»**، وأغلق الاتحاد السوفييتى حدوده حتى يتحاشى الهجوم المسلح عليه، وحكم هذه الرقعة الواسعة حكمًا شموليًا **من خلال قبضة السلطة والحزب والمخابرات**، وقد سُمى كل ذلك جبهة **«الثورة»** فى مواجهة أعداء الثورة أو **«الثورة المضادة»**، وكان الحكم والسلطة ينفذان تجميع وقيادة **«المشاعر الإنسانية الجماعية» للجماهير السوفييتية**، وقدمت السلطة وجبات ثقافية استطاعت أن تكسب بها أولاً وقبل كل شئ الطبقة العاملة فى مجال الصناعة أى «البروليتاريا»، ثم أقنعت فئات أخرى أن تتحالف معها، وفى مقدمتهم عمال الزراعة أى «الفلاحون»، ثم توجوا كل ذلك بجماعة المثقفين، وقاموا بإنشاء **«الجيش الأحمر»** ليكون درعًا وحاميًا للثورة ومكاسبها.

قاوم هذا الحكم فئة مُلاّك الأراضى الزراعية أو ما أسموه **«الكولاك»** حيث قهرهم **ستالين الحاكم والزعيم القوى،** الذى ورث لينين وقام أوائل الثلاثينيات بحركة تطهير جماعى للقضاء على هذه الطبقة، وبقهرها ساد **«الخوف الجماعى»** واستقرت الأمور ظاهريًا وقام النظام بوضع أسس جديدة لمجتمع جديد، فكانت **المزارع الجماعية التعاونية فى الزراعة،** وحكُمت المصانع من خلال النقابات العمالية بقيادة **ممثلى الحزب الشيوعى،** وحدثت بالفعل حركة تنمية وعمران وتعليم وثقافة واسعة؛ حتى تشعر تلك الفئات التى قاومت الثورة أنها حصلت على مكاسب اشتراكية، **وتحولت الشعوب المقهورة فى آسيا الوسطى والتى كانت مستعمرات روسيا القيصرية إلى جمهوريات سوفييتية من نوع جديد لها حقوق دستورية متكافئة فى روسيا ذاتها،** وصارت أخبار هذا الوليد الجديد «الاتحاد السوفييتى» تتسرب إلى الخارج برغم الحصار الحديدى الذى فرضه على نفسه والذى فرضته عليه دول أوروبا الغربية، إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من حرب باردة ليس هنا موضع طرح تفاصيلها، فهى تاريخ معاصر معروف فقد فتحت الحرب العالمية الثانية الابواب لظهور الاتحاد السوفييتى ونظريته السياسية على كل العالم بما فيها الدول النامية التى تنادى بالاستقلال.

عصف ذهنى حول نظرية «الحتميات»

أدرك الماركسيون والشيوعيون **أهمية دور الدين** واحتمال أن تقوم المؤسسات الدينية بمقاومة الثورة، لذلك استولت القيادة الثورية البلشفية على الأرض الزراعية التى تملكها الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، أى جردت الكنيسة من أهم أسلحتها الاقتصادية ثم حولت مبانى **الكنائس** فى روسيا وأوكرانيا، وكذلك **المساجد** فى طشقند وجمهوريات أسيا الوسطى الإسلامية إلى **«متاحف»،** ولكنها اضطرت إلى فتحها للجمهور بعد ذلك عندما استقرت الثورة سياسيًا ونتيجة الضغوط القادمة من المؤسسات الدينية فى باقى العالم «الحر»، ولكنها كانت تحت رقابة صارمة من الدولة وأجهزتها.

وفى الجانب الآخر من أوروبا أدركت الأحزاب اليمينية أن الكنيسة الكاثوليكية هى الحصن المتين ولابد من الاستفادة منه فى قهر الشيوعية، فالجماهير المتدينة -حتى وإن كانت منتمية إلى الطبقة العاملة- سوف تنحاز ثم تنتخب الأحزاب اليمينية، **وكشف الفاتيكان عن موقفه السياسى المنحاز إلى الأحزاب المسماه بـ«الديمقراطية المسيحية».**

وبهذا تداخل الصراع بين الطبقات بالصراع بين الاقتناعات والمشاعر الدينية ووضح -لى شخصيًا- من تتبع هذه المسيرة والمنافسة بين المؤسسات الدينية والاحزاب الشيوعية لكسب قناعات البشر على كافة طبقاتهم صدق فكرة **أن المشاعر والإقناعات والمفاهيم الإنسانية الجماعية هى محرك التاريخ** وهو الأمر الذى فصلناه فى الفصل الأول من هنا كانت اهتمامات أجهزة الدول فى العصور الأحدث بوسائل الإعلام حتى تشكل المشاعر الإنسانية الجماعية وتضعها فى التوجه الذى يخدم مصالح السلطة الحاكمة وهو أمر سنعود إليه فى فصل قادم.

وبعد الحرب العالمية الثانية وازدياد حدة الصراع فيما أصبح يعرف بـ«الحرب الباردة» ودخول أمريكا طرفًا رئيسيًا فى السياسة العالمية باعتبارها أحد قطبى الصراع، وضع **جون فوستر دالاس** -وزير خارجية أمريكا فى حقبة حكم الرئيس ترومان فى الخمسينيات- استراتيچية كونية مهمة من خلال العمل على خلق تحالف عالمى **بين النظام الرأسمالى** فى مجمله من جانب **وبين الأديان** من جانب آخر وذلك على مستوى العالم كله لمقاومة المد الشيوعى، فقام بإنشاء من أسماه **«معبد التفاهم»** "The Temple of Understanding"، وكون بالفعل أول الأمر **تحالفًا مع المذاهب المسيحية على الرغم مما كان بينها من عداوة لقرون طويلة**، وعرف هذا التحالف بـ**«مجلس الكنائس العالمى»** وهو تجمع هائل وضخم يشمل الكنيسة الكاثوليكية وقيادتها المتمركزة فى «الفاتيكان» ولها كيان سياسى مثل أى دولة أخرى مع مجمل الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية على كافة مسمياتها الأخرى.

وفي كل من أمريكا والفاتيكان تكونت صلات مع المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي، تحمل مسميات مختلفة، منها **الحوار الإسلامي المسيحي** منذ الخمسينيات، فقد كانت قناعة الحكام في كل من أمريكا وأوروبا الغربية أن **العالم الإسلامي سوف يساهم في مقاومة الشيوعية باعتبارها داعية لنكران دور الدين على أنواعه**[*].

وفي حقبة السبعينيات وقع الاتحاد السوفييتي في شرك الحرب في «أفغانستان» وقد استدرج إليها، فقامت **وكالة المخابرات الأمريكية CIA بتجنيد المتطوعين** من البلدان الإسلامية كافة فيما أصبح يعرف بـ**«المجاهدين»** لأنهم انضموا بالفعل إلى حزب «المجاهدين الأفغان»، وكان تمويلهم وتدريبهم يتم في وضح النهار بمنطقة بيشاور في شمال باكستان حيث يتسرب المجاهدون ويتوغلون في حرب التحرير، **واستطاع الغرب أن يحول الحرب الأهلية في أفغانستان لتكون حربًا دينية «مقدسة»** بين الفريق الإسلامي في مواجهة الماركسية «الملحدة» من جانب آخر، **ومن سخريات القدر أن تعاني أمريكا حاليًا من «العرب الأفغان» الذين جندتهم ودربتهم لمقاومة الشيوعية**، كما يعاني منهم كثير من دول العالم الإسلامي ذاته الذي ذهب منه المتطوعون إلى هناك، والمعروف أنه عندما انهار الاتحاد السوفييتي تحول المجاهدون -أو أكثرهم- إلى حركات مارست الارهاب وصل بعضها إلى داخل أمريكا نفسها، كما نذكر هنا، أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتدمير مركز التجارة العالمي، والعمليات الانتحارية بالطائرات المدنية.

واستمرت الولايات المتحدة الأمريكية في النهج «البراجماتي» (والذي يمكن تبسيط مفهومه وفق المقولة الشهيرة: «اللي تغلب به إلعب به»)، **واستفادت من**

---

[*] المؤلف : يلعب الحوار الإسلامي المسيحي الآن دورًا بناءً في البحث عن أرضية مشتركة للتفاهم بين أصحاب الأديان ويتحول الآن تدريجيًا ليكون حوارًا بين المثقفين في إطار أشمل هو الحوار بين الحضارات والثقافات، وعقد لذلك المؤتمر الدولي بين الحكومات بعنوان «الثقافة قوة» حضره ١٥٠ وزير ثقافة ونحو ١٥٠٠ مفكر ومثقف في مدينة استكهولهم من ٣٠ مارس حتى ٢ ابريل ١٩٩٨ وسيكون للتوصيات وخطة العمل الصادرة عنه، آثار بعيدة لربط الثقافة بالتنمية.

المشاعر الإنسانية الجماعية الملتفة حول الدين -أى دين- ولم تقف طويلاً عند مقولة **«حتمية انتصار النظام الرأسمالى»** وهى ملخص رؤية فوكوياما فيما بعد فى كتابه «نهاية التاريخ»، واستطاعت أن تفكك الاتحاد السوفييتى، مستفيدة من أنه قد توهم صدق نظريته فى **«حتمية انتصار الاشتراكية»**.

ومنذ أن تحالفت أمريكا مع أوروبا الغربية عسكريًا فى التنظيم الذى أسسته باسم حلف الأطلنطى «الناتو» ظل الغرب فارضًا سباق التسلح النووى ثم الصواريخ العابرة للقارات والتى تحمل رءوسًا نووية وصولاً إلى ما أسماه **«حرب النجوم»** فى الثمانينيات، وهنا أنهك اقتصاد النظام السوفييتى لأنه لم يستطع أن يجارى أمريكا فى الإنفاق على التسليح، فهبط مستوى المعيشة، **ولم يعد الاتحاد السوفييتى هو حلم البشرية وجنة الفقراء، وساهم كل ذلك فى تآكل النظام من داخله وتفكك الاتحاد.**

ومرة أخرى تأكد أن النظرية الماركسية التى نادت بالمساواة والتكافؤ بين البشر دون تمييز بسبب السلالة أو اللون أو الدين أو المذهب لم تستطع أن تفرض وجودها على مستوى العالم كما كان متصوراً، بل ولا على مجمل دول وشعوب الاتحاد السوفييتى.

وهكذا نشأت حاجة لطرح فكر جديد لا يعتمد على **«الحتميات»** أو يروج لحتميات من نوع خاص تخدم ديمومة الرأسمالية فقد ظهرت فى أمريكا مباراة فى النظريات التى تدعو إلى «نهايات الأشياء»، فكانت مقولات وكتب ونظريات باسم «نهاية الأيديولوچيات» ثم «نهاية التاريخ» ثم «نهاية الفلسفة» وما إلى ذلك، ولا أدعى أن هذا الكتاب هو نظرية جديدة تفسر التاريخ بقدر ما هو دعوة حشد وعصف ذهنى **Brain Storming**، نضع نهجه فى الفصل القادم.

دول العالم الثالث تدخل فى الخط

ظهرت الماركسية مصاحبة لنضوج المجتمعات الصناعية فى أوروبا الغربية فى النصف الثانى من القرن ١٩، **ولذا تصور ماركس أن المجتمع الاشتراكى**

سيكون أول الأمر في إنجلترا أو ألمانيا عندما شاهد نمو الصراع بين حركة النقابات العمالية والأحزاب التي تلتف حول الماركسية وبين الرأسمالية، ولكن **ثبت أنه لم يمكن التنبؤ «الدقيق» بحركة التاريخ**، فمات ماركس وظهر لينين فكان انتصار ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ وظهرت حركات التحرر الوطني في بعض البلدان مبكرة بعد الحرب العالمية الأولى كما في مصر والهند، ولكنها انتشرت على نطاق أوسع بعد الحرب العالمية الثانية فيما أصبح يشار إليه بـ**«العالم الثالث»**، وتغيرت موازين القوى السياسية في العالم، وعقد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ لتتبلور بعده في **حركة دول عدم الانحياز** في معظم دول أسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان لهذه الحركة **دور في دعم السلام ومنع قيام حرب عالمية ثالثة** ومن خلال إقامة التوازن بين القطبين الرئيسيين أعني موسكو وواشنطن، وقد حاول الاتحاد السوفييتي أن يستميل معظم هذه الدول إليه وقدم لها دعمًا سياسيًا واقتصاديًا، وكان له مواقف واضحة بالانحياز إلى القضية العربية عمومًا ومصر خصوصًا طوال حقبة عبد الناصر، ولكن ما أن رفع الغطاء وتفكك الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩٠، حتى ظهرت «أعراض» الانتماء إلى الحضارات والثقافات والأديان، وقد طفت الظاهرة على السطح بالفعل وتم رصدها واستفاد منها صموئيل هانتنجتون كما ذكرنا سابقًا في الفصل الثاني.

غير أن **الأمر الملفت للنظر هو أن الشيوعية قد استمرت في الصين** وظل النظام متماسكًا لم يتفكك كما حدث في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، واستبدلت الصين انتماءها الأيديولوچي بالانتماء الجغرافي الحضاري وانضمت إلى مجموعة دول الشرق الأقصى الكنفوشية، واكتفت الهند بذاتها في محاولة فريدة للتنمية من خلال نظام ليبرالي مأخوذ من الغرب، لعلها تقدم نموذجًا حضاريًا مستقلاً، ولكنها تعاني من صراعات مريرة تاريخية بين الهندوس والمسلمين، وتفكك الاتحاد اليوغسلافي وتحول إلى مأساة إنسانية لم يسبق لها مثيل في الحروب الأهلية وانقسم إلى عدة دول على أساس ديني وعرقي، وهو الأمر الذي عزز وجهة نظر هانتنجتون في نظرية «صراعات الحضارات» كما

ظهرت مأساة تفكك أو تحلل بعض الدول المستقلة حديثًا فى افريقيا ابتداءً من الصومال إلى روندا إلى زائير وغيرها، وارتدادها إلى صراعات القبائل.

لأمريكا اللاتينية وضع خاص

أما أمريكا اللاتينية فقد انسلخت في هدوء من مجموعة عدم الانحياز، ووجدت نفسها ومصالحها مع الولايات المتحدة الأمريكية فقامت إحدى دولها بالمشاركة فى **منظمة النافتا** كما ذكرنا من قبل (وهو التحالف الاقتصادى بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك)، لقد مرت أمريكا اللاتينية بخبرة إنسانية فريدة من نوعها **وهى إمكان «التزاوج» أو المصالحة أو قبول الآخر بين الماركسية باعتبارها أيديولوچية ظهرت حديثًا فى القرن التاسع عشر وبين المذهب الكاثوليكى الذى يعتبر أتباعه هم الفريق المتماسك والمحافظ أى الاكثر تشددًا فى الديانة المسيحية،** وكان هذا التزاوج الفكرى من خلال ما عُرف بـ«**لاهوت التحرير**» منطويًا على خبرة إنسانية فكرية فريدة غير متكررة تحمل فى طياتها مفاهيم وثقافة «**قبول الآخر**» ليس على المستوى الفردى وإنما على المستوى الجماعي والأيديولوچي، وهو الأمر الذى دفعنى لأن أفرد لهذاالتزاوج بين أيديولوچية ودين فصلا خاصًا، فهو أحد سمات القرن العشرين، وربما يكون عرضه وتحليله دافعًا لأن يتكرر فى مناطق أخرى وإن كان التكرار الميكانيكى غير ممكن، ولكن خبرة الآخرين قد تدفع لابتكار نوع جديد للمصالحة أو قبول الآخر بين ديانتين أو أيديولوچيتين، ولقد ظهر فيما بعد لاهوت تحرير أفريقى، صاغه الأسقف الشهير ديزموند توتو[*] والذى صار فيما بعد السكرتير العام لمجلس كنائس أفريقيا وأطلق عليه عبارة «اللاهوت الاسود» وكان لنضاله مع نيلسون مانديلا دورًا فى انهاء الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا.

---

[*] تم ترجمة كتاب الأسقف ديزموند توتو إلى العربية بعنوان لاهوت التحرير فى أفريقيا إلى العربية، وليم اليسوعى- الناشر: دار المشرق بيروت عام ١٩٩٧.

لقد ذكرت قبل قليل أن الماركسية -اللينينية- كما كانت تمارس في الاتحاد السوفييتي -قد أصبحت لها طقوس لم تكن تمارس إلا في بعض الأديان، فعلى الرغم من أنها (أى الماركسية - اللينينية) قد بدأت مناقضة للأديان في مجملها ووصفتها بأنها **«أفيون الشعوب» إذ بها مع اختفاء الديمقراطية والحوار وآليات التصحيح الذاتي، وإحلال مفاهيم «ديكتاتورية البروليتاريا» وقيادة الحزب الواحد وما إليها، إذ بها تتحول إلى ممارسات وطقوس لا تطبقها إلا بعض الأديان،** فقد اعتبر الشيوعيون أن لينين -وليس ماركس- هو نبى الماركسية اللينينية، وصارت تقاليد زيارة قبره والعبور باحترام أما الجسد المحنط والمسجى فى تابوت زجاجي خاص، لها مراسيم تناظر التبرك بأجساد وأضرحة القديسين والأبرار والمشايخ، وتحول أعضاء الحزب الشيوعى وكأنهم رجال «كهنوت» يفسرون النظرية والنصوص الواردة فى الكتب التى صارت تدرس إجبارياً فى كل المعاهد والكليات الجامعية، وصار حضور ممثل الحزب ليتحدث في أى مؤتمر علمى بطريقة تناظر حضوررجل دين ويرتل أدعية دينية عندما يفتتح أى مؤتمر علمى فى الدول الدينية، وقد دهشت -مثلا- عندما دعيت لحضور مؤتمر علمى عن «المنشآت المعدنية» فى براج فى تشيكوسلوفاكيا -(السابقة)- عام ١٩٥٩ كأستاذ الانشاءات فى هندسة عين شمس وإذا بممثل الحزب يفتتح المؤتمر ذاكراً نصوصاً من الماركسية تؤكد أهمية الصناعات الثقيلة والحديد فى بناء المجتمع، قال ذلك بطريقة تناظر منح البركة عندنا فى افتتاح المؤتمرات.

كما لاحظت أن فى رسائل الدكتوراة في الجامعات العلمية على أنواعها فى كل دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي أن تكون بداية أية رسالة وفى الصفحة الأولى منها كتابة لعبارة أو مقولة من تراث ماركس أو إنجلترا أو لينين، ويكون الإبداع لمقدم الأطروحة العلمية هو فى اكتشاف أو العثور على نص مرتبط بموضوع الرسالة وكأنه نص دينى، بالطريقة ذاتها التى صارت بها البسملة هى واجهة كل خطاب أو رسالة فى معظم البلاد الإسلامية حالياً.

وهكذا تحولت الماركسية- اللينينية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية الشيوعية إلى نوع من العقيدة الدينية أو ما يسمونه فى المذهب الكاثوليكى **«الدوجما»** Dogma، **أى الإيمان اليقينى بأمور لا يمكن إثباتها بمنطق عقلى ولكنها تؤخذ كما هى**، وكان وجود تمثال وصور لينين فى كل موقع من المدرسة الإبتدائية إلى المصانع إلى الميادين العامة يوحى بأن دينًا جديدًا قد ظهر ليزيد الأمر تعقيدًا وخلطًا للأوراق.

أما **المذهب الكاثوليكى** فكان -ومنذ القرن العاشر- هو القوة السياسية والاجتماعية والروحية المهيمنة على الأمراء والإقطاعيات فى وسط وغرب أوروبا والذين كانوا يأتمرون بأمر البابا، ثم مرت أوروبا بظروف عصر النهضة المعروفة فكان الانتقال -مع التطورات العلمية والثورة الصناعية- من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، من خلال الهزة الفكرية الكبرى مع ظهور **مارتن لوثر الذى أنشأ المذهب البروتستانتى**، الذى يعتمد على نصوص الإنجيل وحدها دون الممارسات والطقوس التى استنها البابوات المتعاقبون.. ومن هنا جاءت تسمية -فى مصر وفى غير مصر- بالمذهب الانجيلى.

ومن وقتها وإلى الآن قامت الكنيسة الكاثوليكية بتطوير نفسها بسرعة من الداخل وفتحت أبواب الحوار داخلها، وهكذا ظلت حتى الآن أكبر كتلة متماسكة من البشر المؤمنين بها فى أربعة أركان الأرض، فانتشارها يمتد من اليابان شرقًا ثم إلى أمريكا الشمالية والجنوبية غربًا على حد سواء.

تختلف ظروف أمريكا اللاتينية تاريخيًا عن ظروف كل من آسيا وإفريقيا والعالم العربى فى نقطة البداية، فتلك الأخيرة تمثل شعوبًا وحضارات لها تاريخ قديم يعود لآلاف السنين، وبالذات فى مواقع الحضارات الزراعية التى تكونت حول الأنهار فى مصر وبين النهرين فى العراق وبين الهند والصين، بينما يبدأ تاريخ أمريكا اللاتينية الحديث من نحو خمسمائة عام، فقد كان اكتشافها فى أكتوبر من عام ١٤٩٢. [ولا ننكر أنه كان لبعض شعوبها الأصلية حضارة، يُعاد الآن اكتشافها ثم إحياؤها والاهتمام بها].

وكانت **الفترة الأولى** والتى تمتد لنحو ثلاثمائة عام هى فترة **الاستيطان الأولى المقرونة بالتبشير** مع استخدام العنف والقهر، فارتبطت هذه الفترة فى أذهان المستوطنين **بقهر استعمارى من إسبانيا بالذات**، تدعمه الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية والتى كانت تبشر لكى ترسى قواعد الحكم الاستيطانى، ومع مطلع القرن التاسع عشر استقلت حركة الاستيطان، وضمرت تدريجيًا العلاقات بين كل من إسبانيا أى الكنيسة الكاثوليكية على الجانب الأوروبى للأطلسى وبين الهياكل الاجتماعية والسياسية والكنيسة المحلية التى تبلوررت واستقرت فى معظم دول أمريكا اللاتينية، إلى أن جاء عام ١٨٨٠ فتبلورت أكثر السلطة السياسية فى اتجاهين تشبها بأوروبا: التيار الأول اتجاه محافظ ويعبر أساسًا عن **طبقة ملاك الأراضى الزراعية** المسماة وفق الأدبيات السياسية بعبارة **«الأولجاركية»** Oligarchies، أما التيار الثانى فهو ليبرالى صاعد يعبر عن قوى تتكون وتتبلور، واختارت الكنيسة أن تساند التيار المحافظ مما أثار الليبراليين والعلمانيين، فهاجموا موقف الكنيسة «الرجعى»، واستمر هذا الصراع ينمو ويزداد مع دخول الصناعة فى أوائل الثلاثينيات فى القرن العشرين، فغزت الصناعة بلداناً كثيرة منها المكسيك والبرازيل والأرجنتين وكولومبيا وتشيلى. **وهكذا احتلت الطبقات الرأسمالية موقع الصدارة عوضاً عن طبقة ملاك الأراضى** واتسع نفوذ **الطبقة الوسطى** ونشأت **حركة نقابية للطبقة العاملة** فى كل قطر على مستوى القارة كلها، وقد أوجد كل ذلك حالة من الحراك الاجتماعى والصراع بين الجديد والقديم.

بعد الحرب العالمية الثانية ولسنوات طويلة كان ذروتها عام ١٩٦٨ قررت الكنيسة الكاثوليكية فى معظم دول أمريكا اللاتينية إعادة بناء نفسها تحت شعار **«المسيحية الجديدة»** فقطعت الكنيسة تحالفها مع طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية المسماة بـ«الأولجاركية» Oligarchy كما سبق توصيفها، ودخلت فى تحالف مع الفئات الصاعدة وهى التى سميت وفق أدبيات هذه

الحقبة أيضًا بـ«**البرجوازية الوطنية» المرتبطة بالتنمية والفكر الليبرالى وصولاً إلى الفكر الاشتراكى**، وشهدت هذه الفترة إنشاء الجامعات الكاثوليكية والأحزاب المسماة بـ«المسيحية الديمقراطية Christian- Democrats» والمنظمات المسيحية -غير الحكومية- التى تعمل تحت شعار «**رقى مستوى المعيشة وترقية أحوال البشر**».

كما تم **إنشاء مجلس رؤساء أساقفة الكنيسة الكاثوليكية على مستوى القارة كلها فصار نوعًا من الاستقلال لأمريكا اللاتينية عن الفاتيكان فى روما**، ويعتبر مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية الذى انعقد فى مدينة **مادلين عام ١٩٦٨ ذروة التجديد، ولعله البداية الفعلية لحركة «لاهوت التحرير»** Liberation Theology حيث كانت المصالحة أو المزج أو التلقيح الفكرى بين الكثلكة وبين الماركسية وهما نقيضان واضحان، فالكثلكة دين قديم راسخ له دوجما وكهنوت، والثانية أيديولوچية جديدة ثورية ولكنها مع الحكم صارت وكأنها دين كما سبق الذكر ومن ثم كان التزاوج ممكنا.

لاهوت التحرير يتبلور

فى ذات الحقبة -التى تلت الحرب العالمية الثانية- شاهدت أمريكا اللاتينية كلها أوضاع سياسية وإقتصادية جديدة فقد ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة مؤثرة لها وضع اقتصادى وسياسى وعسكرى متفوق، **فتحولت البرجوازية الوطنية فى معظم دول أمريكا اللاتينية إلى مجرد «وكلاء» للشركات الأمريكية** ومعبرين عن سياستها، وضمرت الاتجاهات الليبرالية والإصلاحية وحلت «**الانقلابات العسكرية**» محلها، تحت مسمى «**دولة الأمن القومى**»، والتى قمعت كلا من التيارات الليبرالية والاشتراكية، **وقد أوجد ذلك مأزقًا للكنيسة الكاثوليكية: فإما أن تكون فى خدمة النظام العسكرى القابض والمهيمن، وإما أن تنحاز للقوى الشعبية وتقاوم الدولة.**

ومن خلال مخاض صعب بلورت الكاثوليكية فى أمريكا اللاتينية ما أسمى **«البديل الثالث»**(*) لكى تضمن الاستقلال فى التوجه عن مخططات المسيحية المرتبطة بالسلطة وإعادة بناء الكنيسة بالتضامن مع الطبقات المطحونة، وفي هذا المناخ ولد «لاهوت التحرير».

وسوف أكتفى هنا ببعض العبارات المختارة والتى وردت فى سياق كتاب «لاهوت التحرير» فى أمريكا اللاتينية –نشأته– تطوره– مضمونه– للأب وليم سيدهم اليسوعى المصرى، والصادر عن دار المشرق ببيروت عام ١٩٩٣، لكى نوضح التزاوج الفكرى الذى يتجاوز المصالحة بين الكثلكة والماركسية، وهذه العبارات المختارة هى:

- اللاهوت هو العلم الذى يبحث فى جميع المواضيع من وجهة نظر الله سواء كانت هذه الموضوعات عن الله ذاته أو كانت تفترض وجود الله كمبدأ وغاية، **ولذا فاللاهوت يبحث فى سلوك البشر ليتعرف مدى تطابقها مع تدبير الله الخلاق.**
- ليس اللاهوت مجرد معرفة علمية، بأكبر قدر ممكن، بل هو **موقف عملى برجماتى لخدمة شعب مسحوق قبل أن يكون خدمة لسلطة كنسية.**
- إن «التحرير» يبغى تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لما فيه مصلحة جميع طبقات المجتمع، والعمل على عدم احتكار طبقة لفوائد اجتماعية واقتصادية على حساب طبقة أخرى، ومن **خلال ذلك تتحقق «الأخوة الإنسانية» المبنية على الإيمان المشترك.**
- **الكاهن يتضامن مع الفقراء بدلاً من كونه ممثلاً للسلطة الكنسية ومدافعًا عن العقيدة**(**)، ومن ثم يعمل على تغيير الواقع من خلال «التنديد» بالظلم

[*] وكان ذلك قبل ان يظهر إلى الوجود فكر «الطريق الثالث» الذى قاده كلينتون وبلير فى حقبة التسعينات كمخرج من اختناق الاشتراكية الديمقراطية كفكر يناسب الظروف المجتمعية الجديدة فى أوروبا وأمريكا.

[**] قارن ذلك بالمقولات التى تغذى بها بعض المؤسسات الدينية المناظرة فى مصر أبناءها بدعوى ثقافى متخلف وعلى سبيل المثال مقولة: «على ابن الطاعة تحل البركة» فلا عجب أن جاء النتاج لهذا النوع من المقولات، مولدا للسلبية واستعذاب القهر..!!

الذى تمارسه البشارة التقليدية، ليصبح **التوجه الايمانى فى الوقت نفسه توجهًا من أجل العدالة.**

- ينبغى تفهم واقع أمريكا اللاتينية تفهمًا صحيحًا يقوم على الدراسة والتحليل بمساعدة العلوم الاجتماعية بما فيها من تيارات منها **«المادية التاريخية».**

- تكون الأولوية للعلوم المتعلقة «بالإنسان» لتسبق العلوم المتعلقة «بالكنيسة» والتى لا يمكن أن تؤدى وظيفتها الفعلية دون «تحرير» الإنسان فى أمريكا اللاتينية، **فهذا هو مفهوم الإنجيل الخلاق والمحرر.**

- **الظرف الحالى لأمريكا اللاتينية يحتاج لتطوير المؤسسات الكنسية، وكذلك تطوير فهمها للإنجيل بطريقة جديدة تتماشى مع التغيرات التاريخية، لأن العقيدة جامدة بطبعها وتدافع عن المؤسسات القائمة وتبرر وجودها.**

- إن الخلاص لا يقتصر على التحول «الذاتى» للفرد، بل هناك ظواهر اجتماعية مرتبطة به، مثل وجود فئات عريضة من البشر ليس لها صوت مسموع وتفتقر إلى أبسط الحقوق فى مجالات التعليم والسكن.

- ضرورة اشتراك الآخرين فى الخبرات والاحتياجات الضرورية للحياة على الأرض كما ورد فى سفر أعمال الرسل (٢/٤٤): «وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة يجعلون كل شئ مشتركًا بينهم»، وكذلك فى ذات السفر (٤/٣٢): «وكان جماعة الذين آمنوا قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة ولا يقول أحد إنه يملك شيئًا من أمواله **بل كان كل شئ مشتركًا بينهم».**

- الاعتراف بأن الوضع فى أمريكا اللاتينية يعبر عن «اللاعدالة» وتبدو فيه القارة وكأنها سجن كبير يرتبط فيه التخلف بكل وجوهه ارتباطًا بنيويًا عضويًا باللاعدالة، ولهذا السبب فإن الموقف **يتطلب بالفعل «تحريرًا» مسيحيًا أصيلاً وكاملاً.**

● الحب الشامل -في مفهوم لاهوت التحرير- هو الذى بتضامنه مع الكادحين، يعمل على «تحرير» الطغاة أيضًا من طغيانهم ومن تطلعاتهم المريضة ومن أنانيتهم، **وبذلك يتم تحرير الفقراء وتحرير الأغنياء فى الوقت نفسه**، نحن نحب المقهور، وبدفاعنا عنه يتحرر من أغلال القهر، أما الطاغى فنحن نحبه بتوجيه النقد إليه ومحاربة طغيانه، **فكلا الموقفين نابع من محبة مسيحية تشمل الجميع**(*).

* * *

هذه بعض المقتطفات التى توضح الالتحام العضوى بين الإيمان والروحانيات من جانب وبين التطور الاقتصادى ومقاومة الفقر من جانب آخر، وكانت الذروة فى هذا النقاش الفكرى -الذى كان أحيانًا سجالاً حادًا وشديدًا- حول هذه المبادىء الجديدة للإيمان، هو تلك الرسالة التى كتبها فى ٨ ديسمبر ١٩٨٠ **«بيدرو أروبيه» -رئيس عام الرهبانية اليسوعية-** عقب أن احتدم الحوار داخل هذه الرهبانية- والتى صارت تحمل توجهًا يساريًا داخل رهبانيات الكنيسة الكاثوليكية- ووجهها تحديدًا «إلى رؤساء الأقاليم اليسوعيين فى أمريكا اللاتينية» لكى يجيب عن السؤال المطروح: **هل يستطيع المسيحى أن يتبنى التحليل الماركسى؟** فبعد استعراض فلسفى فكرى يوفق بين وجهات النظر المختلفة ويقدم ملاحظات أربع مهمة وينهى رسالته -وكأنه يقرأ المستقبل- كتب يقول: **«وختامًا فأنا على يقين بأن موقف التحليل الماركسى من المحتمل أن يتبدل هنا أو هناك فى المستقبل»** فضلاً عن أن هناك مجالات للدراسات النظرية والأبحاث التجريبية حول المسائل المختلفة التى تناولتها هنا.. وأن تساعدوا بوجه عام كل أعضاء رهبانيتنا، بمن فيهم من مسيحيين أطلقوا على أنفسهم صفة

[*] ولعل هذا ينسجم مع الفكر الاسلامى من خلال الحديث الشريف «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما، قال «صلى الله عليه وسلم» انك إن تقاوم طغيانه وتعدله عن شره، فقد نصرته على شيطانه».. فالحب والعدل كلها قيم تدعوا لها كل الديانات.. لأنها قيم انسانية «المؤلف».

«المسيحيين الماركسيين» والذين بسبب احتياجهم إلى تحليل المجتمع **لا يمكنهم أن يتفادوا مسألة «التحليل الماركسي»**، فهكذا نستطيع العمل بطريقة أفضل على تعزيز العدالة التي يجب أن ترافق خدمتنا في سبيل الإيمان» (انتهى النص).

ومن هذه النصوص المختارة والتي تعتبر تجسيداً للتزاوج بين الكثلكة والماركسية، وبمعنى آخر **التلقيح الثقافي** بين دين محافظ قديم عمره عشرون قرناً وأيديولوچية ثورية حديثة، رغبت في أن أقول لقراء العربية، ليس المطلوب تقليدها وإنما قدمتها لتكون حافزاً لأهل الفكر على صياغة معبرة عن تلقيح ثقافي جديد يناسب المنطقة العربية في إطار المتغيرات الدولية خصوصاً بعد أن ظهر لاهوت تحرير أفريقي أشرنا إليه في السابق، كما ظهر في الفترة الأخيرة لاهوت تحرير آسيوي.

من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحياة

في السنوات القليلة الماضية، ومنذ أن أعلنت أمريكا أننا بصدد «نظام عالمي جديد»، ومع ظهور دراسات وبحوث ونظريات تحث على «كراهية» الآخر وحتمية «تصادم الحضارات والأديان»، **توهم كثيرون أن أفكار «لاهوت التحرير» سوف يصيبها ما أصاب «الماركسية- اللينينية»**، غير أن المنظرين لمبادئ وأفكار «لاهوت التحرير» قد طوروا أنفسهم وفكرهم بسرعة ليناسب احتياجات المرحلة القادمة، فقد أدركوا أن مشكلات الفقراء -إلا كانت منطلق «لاهوت التحرير» ومركز اهتمامه- لن تحل من بلدان العالم الثالث إلا بمزيد من الإصرار على مقاومة الفقر ولذا فإن مفكري لاهوت التحرير تنبأوا بأن «المشكلات للفئات المستضعفة والفقيرة ستزداد سوءاً ويشيرون إلى الأمثلة الفجة لما يجري في الصومال وبنجلاديش ويوغوسلافيا وأثيوبيا وأفغانستان وغيرها».

ففي **أمريكا اللاتينية بالذات** غزت الولايات المتحدة بنما في ديسمبر عام ١٩٨٩، وسقطت حكومة الساندنيستا في نيكاراجوا في فبراير عام ١٩٩٠،

وكانت مذبحة جامعة السلفادور في نوفمبر عام ١٩٨٩، **ولذا شعرت قيادات «لاهوت التحرير» أنهم مسئولون عن نحو نصف مليار مواطن في أمريكا اللاتينية وصاروا يتساءلون: ما مكان الفقراء في النظام العالمي الجديد؟** ومن هنا ظهر مفهوم جديد عن **الثوابت والمتغيرات** في هذه الحقبة من تاريخ العالم وردت في نص العبارات التالية:

- **كانت أولى الثوابت** التي اتفقوا عليها هي استمرار مبدأ **«المشاركة»** لأن تلك كانت البذرة والنبتة التي أخرجت لاهوت التحرير من فكر لاهوتي نظري مجرد إلى «الجماعات المسيحية القاعدية»، الملتحمة مع الفقراء **فالتحرير لم يكن موضوعًا لاهوتيًا نظريًا بل «كان فعلاً تحريريًا يقوم على إبراز عمل الله في الفقراء** ويسعى من أجل العدالة الاجتماعية الغائبة في دول أمريكا اللاتينية بل وفي دول العالم الثالث».
- **وكان المبدأ الثابت الثاني هو «الممارسة»** والتي تكتب باللاتيني "PRAXIS" المقصود بها تناول «لاهوت التحرير» **ليس من منظور عقائدي تأملي بل من منطلق تراكم الخبرة العملية التي يقوم بها الإنسان «المؤمن» لمقاومة القهر في اتجاه «التحرير».**
- أما **المتغيرات** فهي أن مفاهيم «تحرير الإنسان» التي تسعى لتلبية الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية، قد صارت غير كافية في ظروف العالم الجديد **بسبب التلوث البيئي ونزيف إهدار الموارد الطبيعية**، ومن ثم، **فأمان كوكب الأرض واستمرار «الحياة» قد صارا في موقع متقدم، أي أن «لاهوت التحرير» يتطور ليكون «لاهوت الحياة»**، ويحتاج هذا التحول الجديد في المفاهيم إلى إبداع ثقافي وأخلاقي بل وإلى **روحانية جديدة**، وهذا هو جوهر «لاهوت التحرير».
- ومن المتغيرات أيضًا **تطوير مفهوم «الفقراء»** والذي كان في الأساس **«الطبقة البروليتارية»** فأصبح **عموم المقهورين** أي ليس المستغلين اقتصاديًا

فحسب، وقد **امتد مفهوم الفقراء ليشمل الشعوب التي فقدت هويتها مثل: الهنود الحمر** والفلسطينيين وضحايا التفرقة العنصرية، مثل: السود في أمريكا ونساء العالم الثالث المستغلات اقتصادياً ونفسياً وحتى جنسياً.!!

- وفي هذا الإطار، يدق «لاهوت الحياة» بوضعه الجديد، ناقوس الخطر لظاهرة التخلص من الفائض البشري الفقير، وكيف أن «فرق الموت» في دول مثل كولومبيا، تحصد البشر **بهدف «تنظيف المدن» من هذا الفائض البشري،** ويسجل ما في تقارير «منظمة العفو الدولية» من حوادث قتل الأطفال والشحاذين المتسولين والعاهرات الغانيات، والشواذ جنسياً والعاطلين الذين لا مأوى لهم تحت مقولة تنظيف الشوارع منهم، وما حدث في بعض المدن الأخرى مثل **«سان دومينجو» حيث تخلصت الحكومة من الفقراء بنقلهم إلى مناطق بعيدة خلف الروابي حتى تحجب رؤيتهم عن عيون الناس المحترمين.!!**

* * *

لقد أدرك نشطاء لاهوت الحياة معطيات الحقبة الحالية، ومدى قهر شعوب العالم الثالث بعد اختفاء الاتحاد السوفيتي، كما أدركوا أن مصدر قوى شعوب العالم الثالث- بما فيها أمريكا اللاتينية- هو في طاقتها الثقافية والأخلاقية والروحية، فهذه الدول وإن كانت فقيرة في مواردها الطبيعية أو تطورها التكنولوجي، أو قوتها المالية وما إليها، إلا أنها غنية في قيمتها الإنسانية والثقافية والروحية.

ويدعو «لاهوت الحياة» الجديد لأن يقاوم العالم الثالث ثقافة الدعوة للكراهية ودق طبول الحرب والعنف التي يفرضها النظام الرأسمالي لمزيد من الأرباح لصانعه في مجال التسليح، وألا نقع في فخ مفاهيم الفردية وثقافة الاستهلاك التي تسيطر على ثقافة الغرب، ورفض مبادئ الكيل بمكيالين كما هو حاصل بالفعل في المجال السياسي الغربي.

إن جوهر الأديان عمومًا -والأديان السماوية المسماة بالإبراهيمية خصوصًا- هو الاحترام المطلق للقيم الإنسانية الرفيعة وصولاً إلى عالم تسوده المحبة والوئام والعدالة.

وما محاولة الأفكار الواردة فى هذا الكتاب ونشر ثقافة «قبول الآخر» إلا اقتناع منى بأننا فى مصر -باعتبارنا جزءًا من العالم الثالث- وما نملك من امتداد لحضارة قديمة مرتبطة بالقيم الروحية والأخلاقية بصور مختلفة، قادرون على نشر مفاهيم جديدة تناسب العصر قد تنمو وتمتد لتجد موقفًا بين المثقفين المنصفين فى كل بلاد العالم، لأن أحدًا منا لا يحتكر الحكمة وحده، ولأنه ليس لفرد فضل فى أنه قد ولد منتميًا للحضارة الغربية أو لدين أو مذهب معين، ومن هنا كانت الدعوة للانتماء إلى الإنسانية جمعاء وهو الأمر الذى أكدنا عليه طيلة صفحات هذا الكتاب.

* * *

لقد رغبت فى أن أقدم لقراء العربية خبرة مفكرى الكثلكة فى أمريكا اللاتينية، والذين ربطوا القيم الدينية بمفاهيم ومبادئ العدالة الاجتماعية، فظهر لون جديد من الفكر الإنسانى ساهم في تطوير أمريكا اللاتينية، وها هى ذى تسير فى طريق المشاركة من خلال حركة جمعيات تطوعية شعبية أهلية، ساهمت فى حل مشكلات الفقراء إلى حد معقول، وياليتنا نصل فى بلادنا العربية إلى نسق فكرى مماثل... ويبقى أخيرًا أن أدعو -فى بلدى مصر- إلى دراسة بعض التجارب الفريدة فى العمل الأهلى والتى تحمل مذاق «لاهوت الحياة» وإن كانت بنكهة مصرية، وتفتح باب الأمل فى إمكان تقديم تجربة متكاملة، نظرية وعملية لتفيد منها الإنسانية جمعاء.

إن البارز هنا بصفة خاصة تجربة الماركسى المتأجج حماسة وتواضعًا **د.أحمد عبدالله رزه**[*] الذى ولد ونشأ فى حى عين الصيرة الشعبى بالقاهرة، ثم عاد إليه بعد أن تعلم فى إنجلترا واحتك بالحضارة الغربية، عندما عاد قامت بينه وبين جماعة العدالة والسلام الكاثوليكية علاقة قبول فكرى وتصارع متسامح، كان من نتيجتها، ومن نتيجة احتكاك أحمد بالماركسيين والإسلاميين والشيوعيين فى الحى، إنشاء مركز خاص للتنمية المحلية والبيئية أصبح حديث الناس، بالقيم التى ينهض عليها وبما يحاول أن يقدمه للأطفال من خدمات فى الحى الفقير، وقد سمعته يستشهد بهذه العبارة: **[قال فيدل كاسترو بعد الثورة حقًا إن من يخون الفقراء يخون المسيح]**.

* * *

فى كتاب «فيدل كاسترو والدين» الذى يضم حوارات بين كاسترو والراهب الدومنيكانى البرازيلى فراى بيتو (ترجمة حامد جامع ومراجعة د.عبد الرحمن عبدالله وقد عُرض فى «الأهالى» نوفمبر عام ١٩٨٩ العدد ١٥، نجد معانى مبهرة، فالراهب يقول: «أمريكا الجنوبية لا تنقسم إلى مسيحيين وماركسيين بل إلى ثوريين وحلفاء لقوى القهر»، ويرد كاسترو: «أنا واثق بأن نفس الأسس التى تحمل الثوار اليوم للاقدام على التضحية هى التى حملت فى الماضى الشهيد الذى مات فى سبيل إيمانه الدينى»، ويقول بيتو: «كل شئ يولد إضافة إلى الحياة، من إيماءة حب إلى ثورة اجتماعية تتفق مع ترتيب الله لكل شئ **فالذين يناضلون من أجل الحياة يندرجون فى مشروع الله حتى ولو كانوا يفتقرون إلى الإيمان»** ويقول راءول شقيق كاسترو: «المبادئ المسيحية تمنح أملاً فى الخلاص والثورة تحققه»، بينما يقول ڤيدل كاسترو فى معرض حديثه إلى **القس چيسى**

[*] د. أحمد عبدالله رزه كان أحد قيادات الحركة الطلابية فى جامعة القاهرة فى أوائل السبعينات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وسافر إلى انجلترا وحصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية والاجتماعية ولكنه عاطل دون عمل بسبب تعسف السلطة لموقفه وفكره السياسي والإنساني، ومازال يعيش فى المنطقة ذاتها وفى المسكن البسيط نفسه حيث تربي، تعبيراً عن نفسية معطاءة ومضحية بحب.

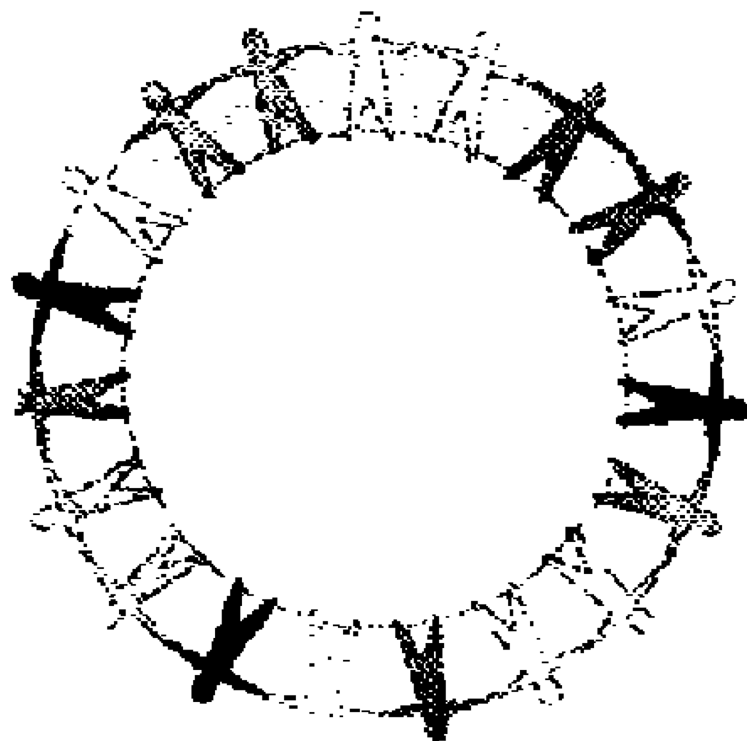
جاسون وآخرين: **«الثورة تطبق وصايا الله، لقد ألغينا الشحاذة والقمار والمخدرات والبطالة والدعارة والتمييز....** وتعمل الراهبات المسيحيات جنبًا إلى جنب مع الشيوعيين في مركز الأطفال بهافانا.. وقلت في التليفزيون مرارًا عن الراهبات: «أولئك شيوعيات نموذجيات».

إذ يعيد كاسترو ذلك يرد الراهب فراى بيتو: «في البرازيل... بقدر ما غزا الفقراء الكنيسة بقدر ما بدأ الرهبان والأساقفة الكاثوليك بالتحول إلى المسيحية!!».

ومن أقوال الراهب أيضًا بالكتاب ذاته: «وقبل أن نخشى الماركسية لأنها تعلن نفسها إلحادية يجب أن نسأل أنفسنا أى مجتمع عادل أقمنا في هذا العالم ويعلن نفسه مسيحيًا؟».

ويقول كاسترو: «لم أر تناقضًا بين الأفكار الثورية التى حملتها وبين أفكار ذلك الرمز العظيم «المسيح»، إن شخصيته السامية كانت مألوفة لدى، وطالما استشهدت ببعض آياته في مقدمتها: «وأقول لكم أيضًا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله» (متى ١٩: ٢٤).

حقًا ان فلسفة «لاهوت التحرير» قد أوجدت مناخًا ثقافيًا رائعًا يجعل من الدين قوة دافعة لرفع الغبن عن الضعيف ويحقق عدالة إجتماعية على أسس أنسانية وجدانية رائعة.



الجـزء الثالث

سبتمبر الدامى وتعليق على ما حدث

إشـــــارة

❞ *يتضمن هذا الجزء (الثالث) من كتاب «قبول الآخر» والذى أُختير له عنوان «سبتمبر الدامى وتعليق على ما حدث» عددًا من مقالات الدكتور ميلاد حنا المنشورة بجريدتى الاهرام «المصرية» والحياة «اللندنية»، والتى تضمنت تعليقاته على الحدث وتجليات الحدث، وذلك باستثناء مقالاً واحدًا كان قد كُتب قبل تلك الاحداث بأربعة أشهر تقريبًا، حيث أخذ فيه الدكتور ميلاد حنا يحذر من مغبة انقطاع الحوار عن طريق قهر (الاخر) وتجريده من خصوصيته، وإلغاء وجوده الفاعل، على نحو ما يحاول هانتجتون تقنينه فى بحثه .. والتنبيه إلى ما فى ذلك من نتائج مدمرة للبشرية جمعاء، وهو ما حدث بالفعل!!* ❝

ورأينا -كذلك- أن يبدأ هذا الجزء بالحوار الذى أجرته جريدة النهار -اللبنانية- حنان عاد، حيث جاء الحوار توطئة كاشفة لأبعاد شخص وفكر الدكتور ميلا دحنا، مفكرًا أو انسانًا.

«الناشر»

1

المفكر المصرى الدكتور ميلاد حنا
عن الأقليات وقبول الآخر

لو كانت السيادة لأوروبا لتحوّل مجرى التاريخ

■■ "**غداً أكثر أشراقاً**" عنوان يكتب تحته الدكتور ميلاد حنا في جريدة "*الاهرام*"، والعبارة ليست مجرّد شعار فارغ، بل التزام ثابت ونمط فكر، وحياة في مساره انساناً وكاتباً.

مهندس يأتي عالم الكتابة محمولاً بأفكار ورؤى مؤمنة بالانسان كياناً وجدانياً مفطوراً على لقاء الآخر، مصرى قبطي يجسّد في مواقفه وكتاباته "احد اسباب التسامح وقبول الآخر في مصر حيث مجتمع متعدد الاديان" بحسب المدير العام السابق للاونيسكو فيدريكو مايور، مما دفع المنظمة الدولية إلى منح الدكتور حنا جائزة سيمون بوليفار الدولية لعام ١٩٩٨ مناصفةً مع الرئيس البرتغالي السابق والمناضل الاشتراكي الديمقراطي ملويو سوارش الذى ساهم في ادخال بلاده حقبة الديمقراطية.

وللدكتور ميلا حنا المناضل من أجل ذهنية قبول الآخر كتابان: "الاعمدة السبعة للشخصية المصرية" (نال له جائزة بوليفار)، و"قبول الآخر" الذى أعيد اصداره في مصر ثلاثاً ويترجم الآن إلى الانكليزية، فضلاً عن نيله جائزة أفضل كتاب في مجال العلوم الاجتماعية في القاهرة عام ١٩٩٨.

ولا تخفى امارات الرضى على وجه الرجل لدى الكلام على افكاره المقبولة في المجتمع المصرى على اختلاف اديانه... "ورغم أننى تخوفت بدءاً من طرحي تلك المقولة (قبول الآخر) فوجئت بأنها تلقى قبولاً لدى المسلم العادى، كما بين الاقباط".

كان الدكتور حنا أحد أبرز الاعلام العرب الذين كرمتهم هذه السنة الحركة الثقافية -انطلياس ضمن مهرجانها للكتاب، وفى حوار مع "النهار" يتحدث عن ظروف انتقاله من الهندسة إلى الكتابه، وعن شغفه بحقوق الإنسان، وعن رؤيته إلى كيفية تصحيح الخلل المجتمعى الذى تعانى منه مصر اليوم، ويتطرق إلى نظرية صموئيل هانتينغتون القائمة على استمرار السيطرة الاميركية الاحادية على العالم، معتبراً ان مسار التاريخ يكون مختلفًا تمامًا لو كانت السيادة فى العالم للاتحاد الاوروبى.

• سؤال أول يتبادر إلى الذهن: كيف تحوّلت من العلم إلى الفكر والكتابة؟ تقول: ان لزوجتك الفضل فى اخراجك إلى رحاب الكلمة، ماذا وراء هذا التحوّل المفصلى؟

- فى نظرية قبول الآخر ذاتها، لم يقرّر أىّ منا ولادته أو مسار حياته، ولا يمكنه أن يتنبأ بامكانات نجاحه أو اخفاقه، وبمصيره وبظروف مماته، فى هذا السر، وهو صلب نظرية قبول الآخر، كان ثمة لدى ولادتى وجود للطبقة الوسطى المصرية القبطية فى حىّ شبرا، طمحت إلى أن اكون مكرم عبيد آخر فى مصر، أثّر ذلك الرجل فى ابناء جيلى، وتوهمت أننى سأعمل فى حقل السياسة والحياة العامة، وفق ما يلائم العصر، عهدذاك، كان الطلاب المصريون المتازون يتجهون نحو اختصاصات الطب والهندسة، لذا ضغط علىّ المجتمع واسرتى لتحقيق طموحهم فى شخصى، انضممت أولاً إلى حركة مدارس الأحد وكان رفيقى فيها نظير جيد بطرس الذى امسى لاحقًا الأنبا شنوده، وكان يرى أن اصلاح حال الأقباط يأتى من خلال اصلاح وضع الاكليروس، فيما كنت أعتبر ان ذاك الاصلاح يتم بالتقدم فى مجال العلم، وبالمشاركة فى الحياة العامة والاندماج فى ثقافة المجتمع، دخلت كلية الهندسة وصرت استاذاً مرموقًا ومهندسًا معروفًا، لكن الحلم الكامن فىّ لبث يراودنى بين الحين والآخر، وحين تزوجت من الكاتبة والصحافية ايفلين رياض، تحوّل بيتنا إلى صالون ثقافى يلتقى فيه كتّاب

ومفكرون امثال يوسف ادريس (كان وزوجته اقرب الاصدقاء إلينا) وموسى صبرى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف السباعي ولويس عوض، وراح بعضهم يحضّني على الكتابة الصحافية، لكن ايفلين رياض لفتتنى فى رفق إلى ان ما كنت أكتبه قبلاً هو محاضرة علمية تصلح للجامعة وليس للرأى العام، عندئذ.. غيّرت اسلوبى ليتلاءم والصحافة والكتابة الموجهة إلى المواطن العادى، واليوم تقول لى زوجتى: "علمناهم الشحادة سبقونا على الابواب"، ولكنها كامرأة، فرحت بأنها صنعت كاتبًا أكثر مما صنعت شهرتها الخاصة، من هنا، حافظت على التوازن الأسرى وساعدت فى نجاحى أكثر من نجاحها فى مجال العطاء الصحافى والادبى.

• لكن الكتابة الادبية تختلف عن الكتابة الصحافية؟

– صحيح لم تجعلنى نسخة عنها كاتبًا بل فجّرت طاقاتى الذاتية والحلم القديم.

النشأة الدينية

• يرشح من كتاباتك وافكارك اقتناع بعبثية العنف، وإيمان راسخ بالسلام والحوار وحقوق الانسان عامة، كيف تكوّنت تلك العناصر فى شخصك وأين تضع ثقافتك وايمانك القبطيين فى هذا السياق؟

نشأت فى بيت متدين، وكنت شماسًا فى الكنيسة القبطية الارثوذكسية، وتأثرت كثيراً بالفكرة المسيحية القائلة: "أحبّوا اعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا مبغضيكم...."، ولكونى الطفل الذكر الوحيد فى الأسرة، وكنت هزيل البنية الجسدية، تلافيت العنف مع زملائى لأنهم أقوى منى، آثرت أن اكسبهم بالحوار لا بالركل، فتكوّنت تركيبتى الانسانية على هذا النحو، وفى العلوم الانسانية عامةً، يتداخل العنصران الذاتى والموضوعى، ولأننى ابنى ثقافتين: العلمية وتحديداً العلوم الفيزيائية وتطبيقاتها فى مجال الهندسة، وثقافة العلوم الانسانية التى اعشقها على مستوى الفلسفة والتاريخ والفكر الانسانى، جاءت كتاباتى

محمَّلة بأفكار انسانية وجدانية مبنيّة على أسس المنطق والرياضيات فى عقلانية وموضوعية وبراغماتية، من هنا، الانسان ابن تاريخه وواقعه وفكره وطموحاته، لم أفكر يومًا فى جمع المال أو فى الوصول إلى السلطة، بل شئت التوجه إلى خدمة شعبى فى مصر والعالم العربى، ولم أتصور أننى سأنال فى هذه المرحلة من عمرى كل تلك الجوائز فى مجال الفكر والمواقف الانسانية، أو ان افكارى ستمسى ذات يوم صالحة للقبول عالميًا، اعتقد أننى متأثر بنشأتى فى بيت مسيحى متدين، وبالحركة الوطنية المصرية ورموزها، اندمجت فى الحركة اليسارية وقرأت الماركسية والفلسفات المعاصرة، واعتقلت عام ١٩٨١ مع الاساقفة والقساوسة والكهنة، فاستعدت التاريخ الماضى وانطلقت إلى المستقبل ولم اتوقع ان تلقى كتبى وكتاباتى هذا القدر من الاهتمام.

● كتابك "اقباط لكن مصريون" شكّل ردًا على ما قاله أنور السادات من انه "رئيس مسلم لدولة مسلمة" كيف ترى واقع الأقباط المصريين اليوم؟

شغلنى الشأن القبطى طوال حياتى، ليس فقط من أجل حقوق متكافئة للأقباط فى مصر، بل لايمانى بأن للثقافة المصرية ركيزتين: الاولى اسلامية مصرية، والثانية مسيحية قبطية أى مصرية، وهما قائمتان على رقائق من الحضارات الفرعونية القديمة، لذا، فأن تواجد الاقباط فى مصر ليس مهمًا فى ذاته، لكنه مهم فى تكوين الشخصية المصرية، مصر من دون الأقباط تمسى مجتمعًا آخر، ولا أَمل من تكرار القول أن فى مصر اسلامًا مصريًا خاصًا يتميز بأنه سُنّى الوجه، شيعى الدماء (الفاطميون)، قبطى القلب والوجدان، فرعونّى العظام، ورغم أننى تخوّفت بدءًا من طرحى تلك المقولة، فوجئت بأنها تلقى قبولاً لدى المسلم العادى، كما بين الأقباط.

حقوق الأقليات

• كمصرى أولاً وكقبطى ثانيًا، كيف تقرأ التحركات الأصولية فى مصر وسواها ان لناحية احداث العنف وسقوط الضحايا أو لناحية محاولات التضييق على حرية الفكر والتعبير وفتاوى اهدار الدم، والامثلة كثيرة؟

يعيش العالم اليوم فى اطار حقوق الانسان، ويلاحظ ان بعض المفكرين يعالجون تلك الحقوق في سطحية، لناحية حصرها بالوظائف العامة والثروات والمكانة الاجتماعية وعدد المقاعد فى مجلسى النواب والوزراء، أما رأيى فهو ان القضية تتعلق بحقوق الاقليات واحتفاظها بخصوصياتها الثقافبة، ثمة فرق بين أهمية الوحدة الوطنية، والحقوق المتساوية، أى ان يكون لكل اقلية -مهما صغر حجمها- الحق فى الاحتفاظ بتراثها وخصوصياتها الثقافية لأن فى ذلك ثراء للفكر الانسانى عامةً، للاقباط خصوصياتهم الثقافية المرتبطة بالتراث والتاريخ والادب والعادات والعلاقات الانسانية والتركيبة الانسانية وسواها، ومن حقهم التمسك بتلك الخصوصيات، والقول بعدم وجود الآخر هو نوع من القهر الثقافى وطمس للخصوصية الثقافية التى تمنح مصر نكهة ثقافية خاصة، لا يعنينى كثيراً ان يكون ثمة محافظ قبطى على أحد الاقاليم المصرية (فى المحافظات الست والعشرين لا وجود لأى محافظ قبطى)، انه امر بسيط وعابر لأن المحافظ القبطى سيختار على الأرجح وفقًا لمعايير السلطة، والارجح انه سيضطهد الاقباط كى يثبت للسلطة انه غير متعصب، لكن ما يهمنى هو ان تكون الخصوصية الثقافية القبطية معروفة لدى جميع المواطنين، مسلمين واقباط، الخلل الحالى الظاهرى فى العلاقات بين الاقباط والمسلمين خلل ثقافى وليس وظيفى، الخصوصية الثقافية الاسلامية معروفة فى مصر راهنًا من خلال التعليم والاعلام والمناخ العام لكل من الاقباط والمسلمين، أما الخصوصية الثقافية القبطية (عاداتهم، تاريخهم، ثقافتهم، علاقاتهم الداخلية...) فمعروفة لدى الاقباط فقط، أذن، هنا الخلل المجتمعى الذى تعانى منه مصر اليوم، ولو تم اصلاحه من

خلال التعليم والاعلام الرسميين فأن الوضع المجتمعي يتصحح، وبالتالي، يأتي تعيين محافظ أو وزير أو رئيس جامعة أو قاضي محكمة كبيرة أو مسؤول في أجهزة رسمية حساسة أمرًا طبيعيًا لا تنظر إليه الدولة -كما هي الحال الآن- في حساسية وخوف، كما يستقيم وضع مصر فتضحي وطنًا للمصريين جميعهم، وتتراجع حدة التعصب، ويصبح المنصب للشخص الأكثر ثقافة وعلمًا واقتدارًا لا لمن هو أعلى سلطة، كمصري، اعشق الحرية، وتوافر الحرية والديمقراطية واستقرارهما في مصر يقلّصان التعصب والارهاب ويجعلانهما حالة استثنائية، من هنا، لا اناضل في سبيل الحريات العامة من اجل الاقباط، بل من اجل مصر واري أن احوال الاقباط ستتحسن كثيرًا مع حرية التعبير وسيادة حقوق الإنسان، أما احداث العنف فهي غالبًا نتيجة مؤامرات خارجية، ولو تُرك المصريون وشأنهم لعادوا كما كانوا عبر ألف سنة يبتكرون أساليب التعايش السلمي.

• تقرّ بصعوبة نشر الثقافة المتعلقة بقبول الآخر، وتطرح في المقابل آليات يمكن ان تُنمّي تلك الثقافة جماعيًا، هل لك أن تختصر تلك الآليات ومدى فاعليتها؟

تشكيل الوجدان الانساني والعقيدة والثقافة الذاتيتين ليس امرًا سهلاً وبسيطًا، بل هو نتيجة تفاعل عناصر وعوامل كثيرة، أولها الأسرة التي لو كانت مثقفة وذات علم وانفتاح لرضع الطفل قبول الآخرمع حليب أمه، ولو كانت متخلفة ومتعصبة ومفككة، لنشأ في جوّ من الخوف وخشية الآخر، ثم يأتي دور التعليم، لو كانت الدولة حريصة على قبول الآخر لسار التعليم في هذا الاتجاه، ثالثًا، يأتي دور المؤسسات الاعلامية الكبرى كالاذاعة والتليفزيون لأنها قادرة على صوغ الوجدان الوطني في اتجاه التنوع الثقافي وقبول الآخر ونشر الخصوصيات الثقافية، لا للاقليات المحلية فحسب بل للاقليات في العالم كله، في هذا الجو، يتكون لدى المواطن احساس بأن الحياة والجمال والرقي تكمن في

تنوع الخصوصيات الثقافية، في حين ان الاحادية الثقافية تقود الفرد والجماعة إلى التعصب والفاشية من خلال كره الآخر وألقاء اللوم عليه واتهامه بمشكلات المجتمع، الوضع اليوم في غاية من الصعوبة لأن ثمة دولاً ذات سيادة داخلية على سياستها الثقافية، وهيئة أمم متحدة يسيطر عليها قطب واحد مقتنع بنظرية صموئيل هانتينغتون وفيها ان صدام الحضارات أمر طبيعي تفيد منه اميركا لاستمرار سيادتها قطبًا واحدًا في العالم، ولو كانت السيادة في العالم اليوم للاتحاد الأوروبي بدلاً من اميركا لتحوّل مجرى التاريخ لأن أوروبا مرّت في عصر النهضة وهي قريبة من فلسفة قبول الآخر، ولساهمت أيضًا في وضع ميثاق أمم متحدة جديد، يتضمن مجلس أمن ثقافيًا يتيح مراقبة بثّ الكراهية الجماعية من خلال انظمة التعليم والاعلام في بعض الدول التي تبشر بالكراهية والفاشية ونفي الآخر، ان بناء الوجدان على الحقد والكراهية أكثر خطرًا على السلم العالمي من اسلحة الدمار الشامل، بل هو الذي يقود إلى مثل هذا الدمار، الكراهية تفضي إلى الحرب الاهلية وتدفق اللاجئين والمشردين، وإلى مآس إنسانية أكبرمن اسلحة الدمار الشامل.

التأثير الثقافي

• كم نهلتَ من الروح المسيحية لتصوغ رؤيتك إلى العلاقات الانسانية؟ وإلامَ تردّ تجاوب المجتمع المصري مع تلك الرؤية؟

من منطلق ذاتي، لا انكر تأثري بالثقافة والفكر المسيحيين في مرحلة تديني الأولى، أما من منطلق مهني وايديولوجي، فأنا مهندس احب الحلول العلمية لا الافكار "الافلاطونية" والنظريات الفضفاضة، لأن بناء جسر أو عمارة كبيرة ليسا أمرًا خياليًا أو شعريًا، وألا سقط الجسر أو تهدمت العمارة، من هنا، فأني أدرك طبيعة الصراعات في الحياة والمصالح بين الشعوب والشركات العملاقة، والتوازن السياسي والعسكري في العالم، لكنني أضيف إلى العناصر المعروفة المؤثرة في السياسة (الاقتصاد والقوة العسكرية والتأثير الديموغرافي) بعداً آخر هو التأثير الثقافي، وأرى انه سيكون الأهم في المرحلة المقبلة.

• هلا أوضحت قراءتك لرؤية المفكر الاميركى الأصل صموئيل هانتينغتون فى ما يتعلق بـ "صراع الثقافات" و"صدام الحضارات"؟

عندما قرأت نظريته وجدته انه صريح وواضح، يقرّ بأن المؤسسة التى يترأسها فى هارفرد مموّلة من اجهزة حكومية تبحث فى نظام الأمن الاميركى، أى ان الهدف من دراساته ليس افكاراً انسانية مجردة، بل العمل على تأمين سيادة اميركا لأطول وقت ممكن. عبر نكء جروح تاريخية قديمة مثل الحروب الصليبية والخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت والخلافات المذهبية القديمة بين السنّة والشيعة، وسواها، ونتج من ذلك تضخم الكراهية وحروب أهلية اتاحت لاميركا التدخل العسكرى والنفوذ السياسى والاقتصادى، لذا يعتبر هانتينغتون انه لو كانت الثقافة الاوروبية هى القطب الأوحد لاختلف وضع الصراع العالمى، ولعبر العالم الحقبة الحالية بجروح أقل ومعاناة بشرية أقل بكثير من الواقع الراهن.

• تتحدث فى "قبول الآخر" عن لقاء الكثلكة بالماركسية بديلاً ثالثاً وجدته اميركا اللاتينية، كيف تحلل نقاط اللقاء بينهما؟ وماذا تقصد بقولك ان لاهوت التحرير يتطور ليكون لاهوت الحياة؟

يثبت التاريخ ان لا حقيقة واحدة مطلقة فى الحياة المسيحية جاءت كبديل من اليهودية لكن الأخيرة استمرت، وجاء الاسلام مبشراً كبديل من المسيحية، واستمرت المسيحية، ثم ولدت البروتستانتية من رحم الكاثوليكية، وبقيت الكاثوليكية، استناداً إلى تلك الحقائق، فأن الامثولة الواجب الاتعاظ بها تقول بقبول الآخر، إذ لا أحد يملك الحقيقة الكاملة المطلقة، ومن هنا انبهارى بتجربة اميركا اللاتينية حيث افلح الرهبان الكاثوليك الذين ناضلوا من أجل التحرر الوطنى ومناهضة الفقر فى خلق شئ جديد رائع لا هو بالكاثوليكية الخالصة التقليدية، ولا بالماركسية الكاملة، لذا، طرحت فى كتاباتى أن التحدى الذى يقف أمامه مفكرو العالم العربى يكمن فى ايجاد نماذج فكرية للديانات السائدة تتلاءم

ومتطلبات العصر، المسيحية فى الشرق استطاعت ان تعيش فى كنف الاسلام وتتطور وتضحى معاصرة، وفى الاسلام اجتهادات كثيرة تأثرت بالحضارة المسيحية المشرقية، أذن، كانت ثمة اجتهادات ابداعية فى خلق ارضية مشتركة مكّنت المسيحية من استمرار التعايش مع الاسلام فى دول شرقية عدة، وعشت هذا النموذج شخصيًا، مما دفعنى إلى تقديم نظرية لقبول الآخر نابعة من الشرق العربى المبنى على الوجدان الانسانى، فى مواجهة نظرية صموئيل هانتينغتون، أى القائمة على المصالح الاقتصادية وسيطرة الدول الكبرى على أقطار العالم، ونظريتى مجرد محاولة من مواطن مصرى بسيط فى المرحلة الاخيرة من العمر يطرح نصيحة ورؤية وجدانية عملية لمفكرى العالم العربى، ولعلنا نستطيع من خلال الحوار والنقد ان نطورها وندفع بها إلى العالم بديلاً من النظريات المادية الجافة، أى النظريات التى لا تعى ان الانسان مشاعر ووجدان قبل ان يكون آلة تأكل وتشرب وتلهو وتتلذذ، وان كان الغرب تفوق علينا فى مجال العلم والتكنولوجيا فلا بأس من ان نقدم له ومعه نظرية فكرية تساهم فى التخفيف من المعاناة البشرية مستقبلاً، متطلعين إلى عالم جديد أكثر تفهمًا ومرآة لحضارة فسيفساء عالمية تحضن جميع الخصوصيات الثقافية، عندها يمكن تبادل الخبرات من دون ان تتعالى مجموعة على الأخرى، بل فى روح اخوية تخلق عالمًا أكثر اشراقًا وأقل معاناة وأكثر سعادة لفقراء العالم ■■

اجرى الحوار: **حنان عاد**

"النهار" بيروت يناير ٢٠٠١

في آب/ أغسطس ١٩٩٩، عين كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة السيد/ جياتندوبيكو ممثلاً شخصيًا له لإدارة كافة الأنشطة الدولية التى ستجرى عام ٢٠٠١ ليكون عام الامم المتحدة للحوار بين الحضارات، والرأى عندى أن يستمر هذا الحوار ممتدا لعام ٢٠٠٢ لإمكان أن يتم التحضير ليكون عام ٢٠٠٣ هو عام التواصل بين الحضارات القديمة والحديثة، فيتحول «اعلان أثينا» إلى ممارسة لكل الحضارات وليست مقصورة على اليونان وإيطاليا باعتبارهما امتداداً للحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية القديمة، ولا على إيران ومصر وحدهما، باعتبارهما ممثلين للحضارات الشرقية القديمة، لأنه من غير الممكن إنكار دور الهند والصين واليابان وغيرها.

ومن محاسن الصدف أن يكون هذا النشاط الثقافى الضخم فى وقت معاصر لافتتاح مكتبة الاسكندرية، وأتصور أن د.إسماعيل سراج الدين بالتعاون مع مجلس الأمناء الممثل لرموز الثقافات والحضارات، سوف يرحب بأن يجهز لتكون مكتبة الاسكندرية وكأنها «هايد بارك عالمية» حيث تعرض كل دولة حضارتها وآثارها ومساهماتها فى البناء الهرمى لكل حضارات العالم، ومن المؤكد أن الأمر لن يقتصر على الحضارات القديمة وحدها بل سيتواصل بين القديم والجديد، فيكون التواصل والتفاعل والمعرفة المتبادلة ونشر المعلومات عن القديم وربطه بالجديد والحديث، ومن خلال كل ذلك سوف يتأكد لكل حضارة أنها ساهمت بقدر أو بآخر فى صنع ما وصلت إليه البشرية جمعاء من تقدم إنسانى فى كافة أوجه المعرفة على تنوعها، فمع الزمن سيقل التعالى والتفاخر لحضارة ما ويعم التآخى فيكون التواصل من خلال أخذ وعطاء، فلكل حضارة خصوصيتها التى يمكن أن تستهوى قطاعات من حضارات أخرى، فتتجاوز البشرية -فى أسرع وقت ممكن- هذه الحقبة الحرجة المملوءة بالصراعات والحروب الأهلية، وهى على أى حال إلى تناقص مع الزمن. ■■

3

يا مسلمين ويا مسيحيين قدموا النموذج الخير قبل أن تفرض عليكم نظرية جورج بوش كوارثها

قراءة هندسية لفكر مدبر عملية ١١ سبتمبر.. وتخوفات صدام الحضارات

- ميلاد حنا(*) -

■■ سيؤرخ ليوم الثلاثاء ١١ ايلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١، بأنه يوم مفصلى فى تاريخ أمريكا ومن ثم فى تاريخ العالم، ونشعر- نحن مجمل الكتاب الوطنيين العرب- بحال من العجز. فاحداث الانفجارات التى تمت فى نيويورك وواشنطن عرفنا تفاصيلها ساعة ولحظة وقوعها، لكنها مثل قمة جبل الجليد، نرى ما فوق سطح الماء أو ماخفى تحته فهذا عظيم واخطر، فقد صارت كتابة المقالات التحليلية التى تقدم رؤى الفكر والرأى، محفوفة بمخاطر.

ان مايكتبه المفكر مبنى على معلومات تتدفق وتتغير ساعة بعد ساعة، لكننى سوف أخاطر، واكتب لاسجل مشاعرى ومعلوماتى لان الموقف العالمى متفجر، امريكا قد جرحت وزعماؤها ومواطنوها لديهم حال من الاحباط فاقت تلك التى شعرنا بها فى العالم العربى يوم ٥ حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ مع خلاف كبير واضح، هو اننا - العالم العربى - كان امامنا عدو ظاهر منتصر خطط وحقق اغراضه واثبت تفوقه، بينما امام الامريكيين عدو مجهول غير محدد المعالم فى شكل جيش ودولة وقيادة ورئيس، وهنا مكمن الخطر واحتمالات التصرفات الرعناء..

فالرئيس جورج بوش يتحدث عن الخير والشر، وهى مفاهيم اخلاقية فضفاضة غير محددة، فما يراه الخير، هو خير امريكا ورفاهية الطبقة الحاكمة بها والتى تود ان تسود العالم، وما يتصوره «الشر» هو ما تجسده له الهيئات

---

[*] كاتب مصرى

العاملة فى الامن القومي (فى حال الاحباط والتخبط التى نحياها) ها نحن نعيش حالة من القلق داخل امريكا وخارجها، منذ أن أعلن كولن باول الشركاء الرئيسيين، وكما يقول علماء الرياضة إن هذه المقولة قد تكون صحيحة ولكنها- من المؤكد- ليست كل الحقيقة، ولذلك فإن القسم الذى تصر عليه المحاكم فى الشهادة هو أن الشاهد الصادق يقول الحقيقة كل الحقيقة (التى يعرفها)، لكن كولن باول رجل سياسة، يطلق التصريحات المسموح له بأن يقولها فقط وفق توجهات وقرارات مجلس الامن القومى المتواتر. فمن المتواتر فى جهات لديها معلومات، ان هذه العملية من الانفجارات المخططة والتي استهدفت انهيار برجي مركز التجارة العالمى فى نيويورك كتعبير عن انهيار الحضارة والاقتصاد والانجازات التكنولوجية ممثلة فى إنشاء أكبر (أو من أكبر) ناطحات السحاب فى العالم، إذ يبلغ ارتفاعها ١١٠ أدوار ويحوى البرجان نشاطات عالمية كثيرة. ثم رغب المخطط للانهيارات، استهداف تفجير «البيت الأبيض» باعتباره مركز السلطة السياسية، وعندما فشل اتجه!! الى البنتاغون مركز القوة العسكرية.

من هنا، فإن المخطط يتجاوز فكر اسامة بن لادن، لا فى التخطيط ولا فى الدقة والتوقيت والربط والتنسيق الذى حدث، لكن اصبع الاتهام تتجه اليه، لان الشيخ عمر عبد الرحمن وهو من مريديه ومن الفصيل الفكرى العسكرى نفسه، كان قد خطط لتفجير المبنى ذاته عام ١٩٩٣ ولكن لم تكن لديه الخبرة الفنية فى عالم الانشاءات، وذلك ان هذا المبنى له اساسات قوية عميقة فأى انفجار (سيارة مفخخة أو غيرها فى مكان فى الطوابق السفلى فى الكاراج أو غيره) لن تؤثر على كل المبنى، بل صار امتصاص الصدمة بسرعة فى الاساسات القوية فيها، ولأن الأعمدة الحديد فى الجزء السفلى من المبنى من الضخامة بحيث كان انهيارها غير ممكن.

وفى شهادة لى أدليت بها فى إذاعة الـ «بى.بى. سى» البريطانية، ذكرت أن طريقة مهاجمة البرجين من خلال طائرة كبيرة تقتحم المبنى فى الربع الأعلى منه كان السبيل الفنى هندسياً، وانا أكتب هذا ليس كمفكر ولكن باعتبارى استاذ

الانشاءات في جامعة عين شمس- لما يزيد على نصف قرن- اقول إن المفكر والمخطط لهذه العملية لديه خبرة علمية وعملية لإمكان تحقيق انهيار البرجين في زمن قياسي وقبل أن تتمكن اى تكنولوجيا متاحة من انقاذ ناطحات السحاب الضخمة والتي تحولت إلى كومة من الركام في غضون ساعات قليلة جداً.

فالطائرة جسم ضخم وقادمة بسرعة عالية، والصدمة الديناميكية في هذا الموقع المرتفع من المبنى أدت إلى اهتزاز الهيكل المعدنى كله (أعمدة وكمرات وجسور وغيرها) لانها بعيدة عن الاساسات الثابتة فى عمق التربة.

وقد ادى انفجار الطائرة بما تحمل من بنزين عالي الجودة في جسمها الى انهيار اعمدة طوابق عدة، وفي دقائق كان الحريق قد امتد الى أعلى وإلى أسفل، وصارت أعمدة المبنى فوق وتحت الطوابق التى اخترقتها الطائرة، وكأنها من مادة لينة، لان الحديد مهما كانت مقاومته في درجات الحرارة العادية الطبيعية (من ١٠ إلى ٣٠ درجة مئوية مثلاً) يفقد خواصه الميكانيكية عند نحو ١٢٠٠ درجة مئوية ويصبح العمود من الصلب، وكأنه عمود من اللبن أو البامبو فانهارت الاعمدة واحدا تلو الاخر، وسقط الجزء العلوى من المبنى دفعة واحدة محدثاً تأثيراً ديناميكيا على طوابق المبنى السفلية، فاخذت الطوابق تنهار واحد تلو الاخر الى ان تدافعت فوق بعضها البعض فوق سطح الارض.

يذكر ايضا في هذا المقام، ان المبنى مصمم وفق أرقى المواصفات العالمية لمقاومة الاحمال التى يتعرض لها طبيعيا مثل الرياح والزلازل، وقد قاومت هذه الاحمال بكفاءة واضحة عبر سنوات طويلة.

ومن المعروف ان مثل هذه المباني مزود بشبكة من رشاشات المياه داخل كل غرفة من المبنى، تعمل بمجرد ان «تشم» رائحة اى دخان، لكن هذه الانظمة توقفت عن العمل بمجرد تعرض المبنى لهذه الصدمة من الطائرة التى تفجرت، وتقطعت كل الاسلاك والمواسير والانابيب التى تكون شبكة الجهاز العصبى للمبني، فكان الانهيار مدروساً بعناية من خبراء لا يتوافرون لاسامة بن لادن.

وهكذا يتضح انه حتى لو كان بن لادن احد الشركاء فى توفير الافراد، «المجاهدين» المستعدين للاقتحام الانتحارى وفق عقيدتهم، فإن الفكرة والتكنولوجيا والتنظيم يتجاوز بفراسخ قدرات وخيال وتنظيمات اسامة بن لادن.

ومن هنا كان من المفترض لأى عقلية علمية ان تفكر بمجموعات «شريرة» اخرى مثل مجموعات مافيا مخدرات فى كولومبيا أو فى غير كولومبيا- خصوصا وقد اعلن عن القبض على احد رموزها الكبار اخيراً. كما ان للجيش الاحمر اليابانى قدرات موثقة على استخدام التكنولوجيا المتقدمة ما احسب انه التنظيم الثالث، وربما تكون هناك منظمات اخرى سوف يكشف عنها الزمن.

وفى تقديرى ان جهاز الامن القومى الامريكى لديه معلومات كثيرة جداً لم يكشف عنها، لكنه من الناحية السياسية وجد ان قيام امريكا- بكل عظمها- بمعاقبة مافيا المخدرات سوف يحط من قدر امريكا، ومن غير المنطق أو العدل معاقبة دولة كولومبيا ذاتها لأن فيها بعض رموز مافيا المخدرات وبذات التهم، كذلك معاقبة اليابان لأن فيها بعض أفراد من «المافيا» قد كونوا تنظيما ارهابياً، وقد يصبح «نكتة» فيما لو اعلنت امريكا الحرب على تنظيم الجيش الاحمر اليابانى.

وفى هذا الإطار، كان القرار بأن يوجه الاعلام اصبع الاتهام الى اسامة بن لادن، حيث يقيم فى افغانستان، ذلك أن افغانستان دولة «مارقة» ليس لها تقدير كبير فى كل العالم بمافى ذلك العالم الاسلامى ذاته، فحرمان المرأة من التعليم والعمل، وهدم تماثيل بوذا، والقبض على المسالمين من الهيئات الدولية بدعوى انهم مبشرون بالمسيحية وما إلى ذلك من أمور معروفة تؤهل أفغانستان لضربة عسكرية سريعة تسترد بها امريكا كرامتها، وستحصل على بن لادن حياً أو ميتاً، فتختفى معه، «الاسطورة» وتسترد امريكا هيبتها وكرامتها التى اصبحت فى الوحل.

صدام حضارات؟

على أن اخطر ما فى هذا الامر، هو انه يتفق مع الافكار والنظريات التى سبق ان اعلنها صموئيل هنتنجتون استاذ العلوم السياسية فى جامعة هارفارد وصاحب نظرية «صدام الحضارات» وأود ان اعيد تذكير القراء ببعض الفقرات الواردة فى نظريته كالآتى:

- إن الحرب المقبلة- إن كانت ستقع- ستكون حرباً بين الحضارات.
- وصل الغرب الآن الى ذروة هائلة من السيطرة تجاه الحضارات الاخرى، فالمنافسة بين الدول العظمى اختفت والصراع العسكرى بين الدول الغربية غير وارد، كما أن القوة العسكرية لا يوجد ما يضاهيها إلا اليابان.
- إن الغرب مسيطر على المؤسسات الدولية فى الجوانب السياسية والأمنية كما يسيطر مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية.
- القرارات التى تتخذ فى مجلس الامن الدولى أو صندوق النقد الدولى، وتعكس مصالح الغرب تقدم إلى العالم باعتبارها رغبات «المجتمع الدولى» بل إن عبارة المجتمع الدولى ذاتها صارت تعبيرا ملطفا لما كنا نطلق عليه عبارة «العالم الحر» يستهدف ذلك اختفاء صفة «الشرعية الدولية» على ما يعبر عن «مصالح الولايات المتحدة»، والقوى الغربية الاخرى.
- ربما كان اخطر ما سجله هنتنتون- بصراحة تصل إلى حد الوقاحة- هى هذه العبارة: إن صراع الحضارات القادم ينطبق تحديدا على خط حدود الكتلة الاسلامية التى تشبه الهلال وتمتد من نتوء افريقيا الى آسيا الوسطى، كما أن حالة عنف ناشئة بين المسلمين من جانب وبين الصرب الارثوذكس فى البلقان ومع اليهود فى اسرائيل ومع الهندوس فى الهند والبوذيين فى بورما ومع الكاثوليك فى الفلبين. حقا إن للاسلام حدودا دموية.

لم اشأ بأن اعيد للذاكرة هذه النصوص الصريحة لنظرية هنتنغتون لكن أصب الزيت على النار، فالنار مشتعلة فى امريكا بالفعل، والاستعداد للقيام بحرب ضد افغانستان سيتم فى سرعة مذهلة (قد تسابق سرعة هذه الاسطر التى أكتبها الآن ظهر يوم الجمعة ١٤ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠١)، حيث يصير الاستعداد لحرب عالمية جديدة تبث الكراهية من تحالف قوى كثيرة فى مقدمتها اليمين الامريكى- المسيحية الغربية المتعصبة- اليهودية العالمية المتعصبة- رموز اليمين فى العالم المعادية للاسلام، وكل ذلك فى مواجهة حملة عداء سافر ضد المسلمين والاسلام فى العالم وهو امرخطير، يعلم الله اين سوف يقف هذا التوجه الغاضب والذى اذا بدأ فمن غير المعروف اين يقف ومن سيوقفه.

لذا فإننى اكتب هذه الاسطر كمصرى عربى انتمى الى المسيحية القبطية، لكننى انتمى ايضا الى الانسانية، وقد كتبت كثيرا حو «قبول الآخر» واتمنى من خلال هذا المقال ان يتكون تحالف حقيقى (ليس بين قوى الخير فى كل انحاء العالم بزعامة امريكا) ولكن بين الشعوب العربية كلها مسلميها ومسيحييها على حد سواء، فقد عاش المسلمون والمسيحيون فى معظم البلاد العربية- وفى معظم الاوقات- فى سلام ومودة فى لبنان وسورية ومصر وفلسطين والاردن، وهذه الجماعات ستقدم البديل وهو إمكان التعايش بين الاديان.

وكما احب ان اركز على أن المسلمين ليسوا صنفاً فكرياً واحداً، كما أن المسيحيين ليسوا خيرين كلهم (كما يتوهم البعض ويدعو) فالممارسة المصرية للاسلام، كما فى الأزهر أو كما لدى عامة الشعب، غير تلك التى تجرى فى بلاد عربية أو اسلامية اخرى، ومن الصعب أو الانصاف التعميم فى هذا الاطار الاهوج الحالى.

دعنا نقدم البديل «لصدام الحضارات» فى عالمنا العربى بالمعايشة وقبول الآخر، فالنماذج الخيرة موجودة بالفعل، والحضارة ليست فى بناء ناطحات السحاب، ولا فى الصواريخ العابرة للقارات لكنها فى القيم الاصيلة الممارسة بالفعل لدى غالبية من البشر، مع ادراكى بأن هناك قدراً من التعصب موجود بالفعل فى كل دين لكنها قضية ثقافية لن تحل بالحروب واعلان الكراهية الحالى ■■

4

الإرهاب إشكالية مركبة عويصة.. حلها ثقافى مجتمعى

بدأت الحرب الأولى فى الألفية الثالثة يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠١، ولكن احدا لايستطيع ان يتنبأ متي أو كيف ستنتهي غير أن محاربة الإرهاب بالصواريخ والأسلحة والتعبئة العسكرية أمر قد يبدو ضروريا من الساسة والعسكريين لإعادة هيبة دولة عظمي وإعادة إحكام سيطرة الغرب على الكوكب.

أما علاج الإرهاب الدولى فهو امر فكرى ثقافى يبدأ بقناعة مجموعات بشرية مظلومة أو أفراد اصيبوا بنوع من الهوس وانه لا سبيل امامهم إلا بالتضحية بأنفسهم ولذا لن يكون مقالى اليوم عن التكهنات العسكرية المرتقبة فهي أمور ستتم بالفعل فى غضون وقت قريب ولكنني أتطلع إلى مرحلة قادمة - قد تطول أو تقصر - بعد أن تصمت المدافع وعندئذ سيتقهقر دور العسكريين والسياسيين وسيتم فتح الملف الأعمق والأهم وهو الذى سيحل صلب المشكلة ذلك أن الإرهاب اشكالية مركبة عويصة.. حلها ثقافى مجتمعى.

■ ■ ولو لم تكن امريكا محكومة بتوازن دقيق بين مؤسسات دستورية راسخة التقاليد تصحح أى قرار «فردي» لكان بوش- في لحظة غضب دفعته لأن يسترد بها كرامة دولة عظمي. قد أعلن الحرب على أفغانستان من ثلاثة أسابيع وربما لو كان القرار فرديا لكانت امريكا قد استدرجت إلي هضاب وجبال وكهوف وصحراوات هذا البلد الفقير- الذى ليس لديه ما يفقده إلا كرامته وتاريخه- ولكانت قد تكررت مأساة «فيتنام» والتى اصبحت كالشبح الذى يطارد كل سياسى وعسكرى امريكى خصوصا وأن الشباب الامريكى المجند مازال بعضه غير مقتنع بأن يضحى بحياته من أجل القبض علي «بن لادن» حيا أو ميتا ولو كان بوش قد تسرع فى اصدار قرار الحرب لكان من الممكن أن يتكرر معه ما حدث مع أنطونى ايدن عندما قاد العدوان الثلاثى

على مصر (بريطانيا- فرنسا- إسرائيل) في اكتوبر عام ١٩٥٦ فكانت نقطة تحول إذ لم تعد بريطانيا «عظمى» كما كانت قبل عام ١٩٥٦.

فالأمثلة الشعبية تقول: «ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع» وهكذا استطاعت آلية الديمقراطية ودولة المؤسسات ومراكز الدراسات الاستراتيجية أن تحمي بوش من اندفاعه فقد كانت مشيته وصوته وتصريحاته مجسدة لمقولة أولاد البلد: «يا أرض اتهدي.. ما عليك قدى».

وهذا المناخ العام المتعقل - الدارس للتفاصيل الدقيقة - في سرية - قبل التحرك قد انتقل - حتى - لمجموعة طالبان والتى تحمى تنظيم «القاعدة» وتصر على استضافة وحماية أسامة بن لادن - والذى صار بين ليلة وضحاها - أشهر رجل فى العالم لم يتفوق عليه إلا هتلر قبل ٦٠ عاما.

وقبل إطلاق الصواريخ على افغانستان من باكستان أو من بوارج ومنصات فى عرض البحر لجأت امريكا- ربما لأول مرة فى التاريخ- لأن ترسل لاهالى وفقراء افغانستان الدقيق والمأكولات والاغذية للنساء والاطفال ثم تخصص الأموال لرفع المعاناة عن ملايين المهاجرين المتدفقين للهرب من الحرب إلى الدول المجاورة ثم تلجأ أمريكا إلى أساليب «المخابرات» فترسل فى ذات الوقت الأسلحة إلى فريق معارض كان خاملا واذا به ينشط فى حرب داخلية مع «طالبان» ثم يتم إيجاد البديل لحكم افغانستان من خلال ملك مخلوع كان العالم قد نسيه تماما فأنشأوا حوله «مجلس شوري» يمكن أن يكون البديل فى حكم افغانستان (وهو فى باريس) إذا ما نجحت مجهودات CIA فى مخططها لإسقاط نظام طالبان بأقل الخسائر فى الأرواح الأمريكية!!

هذه كلها معطيات جديدة لحرب جديدة فى ألفية جديدة بسبب أن العدو ايضا جديد فهو غير محدد المعالم لأنه غير ممثل فى دولة لها كيان وحدود وجيش وسيكون تحديد عبارة «الإرهاب الدولي» فى غاية الصعوبة بعد القضاء على طالبان أو صدام حسين أو شارون!

ولم يقتصر تغيير السياسات والتوجهات التى هزت العالم كله بعد ١١ سبتمبر الرهيب على الجهات الرئيسية الفاعلة فى امريكا وافغانستان (حيث

تنظيم القاعدة وعقله المدبر اسامة) وانما امتدت الهزة- إلى معظم ان لم يكن كل - دول العالم من باكستان والهند وروسيا والصين وآسيا الوسطى شرقا إلى معظم دول الوطن العربى جنوبا وصولا إلى حماس تونى بلير الذى يود أن يعيد لبريطانيا «عظمتها» الى كل دول أوروبا الغربية وحلف الأطلسى فلذا فالمتوقع أن لم يكن من المؤكد أن خريطة العالم سوف تتعدل وتتغير كثيرا مع ماكانت عليه قبل الثلاثاء المفصلى ليوم الانفجارات العظيم فى نيويورك وواشنطن فقد تأكد أن تأخير أو تأجيل الاعلان الرسمى للحرب لم يكن بقرار من الساسة والحكام ولا العسكريين وحدهم بل شارك ايضا- وبيقين- أجهزة الأمن القومي والتى تستعين فى الدول الراقية المتحضرة بأهل الحكمة والفكر وكذلك مراكز البحوث الاستراتيجية، ولكن للأسف تعكف هذه الأجهزة فى الدول المتحضرة بالعمل ليل نهار ولدراسة البدائل أما نحن فننتظر رد الفعل وكأنه قدر مكتوب ولذا فإن هدفى المتواضع من هذا المقال هو القاء الضوء على الجوانب الثقافية والمجتمعية- وحتى الدينية- والتى لابد من طرحها إن عاجلا أو آجلا لأنها صلب القضية فالإرهاب يبدأ فكرا وقناعة وحماسا ثم بالقتل والتدمير اندفاعا.

* * *

إن ظاهرة الارهاب قديمة قدم الصراعات الانسانية فالاغتيال والقتل لأسباب شخصية أو عامة ونتيجة مؤامرات العصور متوافرة فى كل كتب التاريخ والارهاب الجماعى الحالي- فى أربعة اركان الارض- ما هو إلا نوع من الفاشية أو النازية ولكنه استفاد من ثورة الاتصالات والعولمة واستخدام أعلى أنواع التكنولوجيا الراقية وكانت ذروته طوال سنوات الحرب العالمية الثانية من دمار وقتل وخراب واسع النطاق منذ يوم ان بدأ اجتياح هتلر لبولندا فى سبتمبر عام ١٩٣٩ إلى أن القت الولايات المتحدة اول قنبلتين ذريتين على ناجازاكى وهيروشيما فى اليابان فى منتصف عام ١٩٤٥ وخلال هذه السنوات دمرت مدن واجتيحت دول وخسرت البشرية عشرات الملايين من الأرواح وعشرات البلايين من الاموال بسبب أيديولوجية طرحتهاالمانياتتضمن رؤية متعالية لاجناس من

البشـر على أجناس أخـرى فـالجنس الابيض ينبـغى ان يـحكم العـالـم لانه أرقى واكثر حضارة ويتربع على قمة هذا الجنس أو السلالة المجموعة المسماة الانجلو ساكسونية ورفع هتلر عبارة «المانيا فوق الجميع» وخططت للحرب بدعوى أن من حقها أن يكون لها حجم اكبر من المستعمرات والموارد الطبيعية.

ولذا ومع انتـهاء الحرب- اهـتمت المانيا بالذات- بإنشـاء مؤسسـات ثقافـية تراقب ما يجرى داخل البلاد وتتدخل بالفكر والثقافة والتعليم عند ظهور اى توجه فـاشى جـديد وأنشـأت الدولة منظمـات ثقـافـيـة تراقب وتبـشـر بالافكار والايديولوجيات الديمقطراية التى تقاوم ظـهور الفاشية وأحسب أن ما جرى فى المانيا بالذات فى نصف قرن الماضى خبرة جديرة بأن تعم فى الدول التى لديها تعـال حـتى تكون نموذجـا يتم تـطويره فى أى بلد تظهـر عليـه اعـراض التـعـالى بسـبب العـرق أو الدين أو المذهب أو غـيرهـا، فـالإشكالية هى أن الدول استـقلت وأقامت نظامها التعليمى والاعلامى المبنى على التعالى وكراهية الآخر ولا يمكن التدخل فى شئونها الداخلية وفق ميثاق الأمم المتحدة الحالى وهذا هو الجانب الثقافى للقضية وليس له آلية لعلاجه لأن اليونسكو الدولى فى باريس ليس لديه مجلس أمن ثقافى يدق ناقوس الخطر.

أما وقد صار الإرهاب فردا أو جماعة «سرية» تستخدم أرقى أنواع ومنجزات التكنولوجيا الراقيـة فإن مكافـحته لن تكون بتـجـييش الجيوش وانما بشـبكات الاتصـالات "الذكية" لمعرفة اسرارهم ومفاهيمهم وبعدها وربما قبله يكون العلاج الثقافى والفكرى والدينى هى امور فى حـاجة إلى عدة مؤتمرات بين متخصصين تسبق المؤتمر الدولى الذى دعا اليه الرئيس مبارك منذ عام ١٩٨٦ ولسوف تأخذ بهذا الاقتراح الامم المتحدة قريبا بعد انتهاء الجانب العسكرى.

ومن المفـارقـات الجـديرة بالتـسـجـيل فى هذا الظرف التـاريخـى ان الولايات المتـحـدة والتى اهـتـزت من انفـجـارات خـطـطت لهـا وربمـا جـمـاعـة القـاعـدة التى يرأسها ويديرها ويمولها اسامة بن لادن نقول ان الولايات المتحدة ذاتها هـى التى نشطت الأديـان- على تنوعـهـا- وذلك منذ عـام ١٩٥٥ عندمـا اعلن جـون فوسـتو

دالاس وزير خارجية امريكا وقتها ان امريكا لابد ان تستعين بالاديان لمقاومة الشيوعية- والتي صارت وقتها وكأنها دوجما لا يقاومها ويقضى عليها إلا دوجما اقوى واكثر رسوخا في وجدان البشر لانها اعمق تاريخيا وهي الاديان فكان ان اسس ما كان يعرف وقتها بعبارة معبد التفاهم- The temple of understanding وتفرغت منه عشرات التنظيمات مثل مجلس الكنائس العالمي وله تنظيماته الاقليمية وحتى الآن ثم المؤتمر الإسلامي وذلك بجوار التنظيمات القائمة لليهود والصهيونية وكذلك نشطوا تنظيمات دينية للهندوس والبوذية والكنفوشية وغيرها ثم قامت جسور ثقافية بينها مثل حوار الاديان وفي مقدمتها الحوار الاسلامي- المسيحي وهو امر قائم حتى الآن وقد اجتمع مؤخرا وعلى عجل في روما من خلال جمعية اهلية شهيرة هي جمعية سانت ايجيدويو واستمرت عملية تعبئة الاديان لمكافحة الشيوعية بواسطة أجهزة المخابرات الامريكية بالذات من منتصف الخمسينيات إلى أن كانت الذروة أو القشة التي قصمت ظهر البعير عندما تم تعبئة المجاهدين من كل اطراف العالم الاسلامي لتحرير افغانستان بعد ان غزوها بواسطة الاتحاد السوفيتي ١١ يناير عام ١٩٧٩ فقد فتحت الولايات المتحدة مكاتب لجمع المتطوعين وكانت تمدهم بالسلاح حتى تستكمل خطتها لإغراق الجيش الاحمر في مستنقع يستنزف طاقته فلا يستطيع الخروج وهكذا التقت مصالح الولايات المتحدة والتيارات الإسلامية الجهادية ولكنه كان التقاء مؤقتا يقوم على مصلحة آنية ويزول بزوالها».

«وفي عام ١٩٨٤ وفي ظل تلك الأجواء» من «تلاقي المصالح» تأسس «بيت الأنصار» في بيشاور فكان محطة إستقبال أولى للراغبين في الالتحاق بالجهاد قبل توجههم للتدريب ثم المشاركة في المعارك، وقد حصل المجاهدون على دعم كبير من أمريكا لم يتمثل في التدريب العسكري والعتاد الخفيف فحسب بل تطور لتزويدهم بصواريخ «ستينجر» التي فقدت الجيش الأحمر سيطرته على الطيران وتسبب ذلك في خسائر بشرية فادحة في صفوف السوفيت!!

* * *

وتكمن الإشكالية العالمية الآن فى أنه فى بحر العشر السنوات الماضية وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى وحرب الخليج ظهرت الصحوة الإسلامية وازدياد النفوذ الاقتصادى والدينى للدول البترولية الإسلامية ومع سيادة القطب الأمريكى الأوحد تولدت مشاعر الإحساس بالظلم فى جهات كثيرة فى العالم فى مقدمتها فلسطين حيث خط المواجهة الرئيسى للصراع العربى الاسرائيلى وهناك أيضا المعاناة والقهر الناجم عن مظالم الحرب الأهلية فى السودان لمدة ١٨ عاما متصلة والصراعات بين القبائل فى افريقيا وتفكك الدولة فى الصومال واتساع الفجوة بين الأثرياء والفقراء فى العالم والمعايير المزدوجة فى قرارات الغرب عموما والولايات المتحدة خصوصا وصيرورة مجلس الأمن ومؤسسات الأمم المتحدة وكأنها أجهزة تابعة للإدارة الأمريكية كل تلك العوامل وغيرها أدت إلى ازدياد «الكراهية» لأمريكا وعندما تمت عمليات انفجارات بنيويورك وواشنطن امتزجت مشاعر الحزن على قتل الابرياء مع حالة من «التشفي» عندما امكن الرد والانتقام من مظالم وغطرسة أمريكا ولكن ذكاء الآليات الأمريكية وقدرتها على التحرك السريع لمواجهة الموقف الجديد قد جعل أمريكا تراجع مجمل توجهاتها ويبدو التغير فى اتجاه الريح لمعظم سياساتها الخارجية وكانت البداية فى إعلان عن قبول مبدأ قيام الدول الفلسطينية»، والمتوقع ان ينشط دور السينارتور جون دانفورث John Danforth والذى تم تنصيبه يوم ٦ سبتمبر الماضى (أى قبل خمسة أيام من زلزال هذا الثلاثاء الدامى) ليكون الممثل الشخصى للرئيس بوش فى محاولة «للالتزام العميق لتحقيق هدف السلام فى السودان».

ولو تحقق الحلم فى دولة فلسطين فى الشمال ثم ايقاف الحرب كبداية للسلام فى السودان الحبيب فإن الاحساس بالمظالم والمعاناة والاضطهاد وعدم الاستقرار سوف تخف تدريجيا فى المنطقة فى اتجاه مناخ ثقافى جديد يدعو إلى «قبول الآخر» وهى عملية ثقافية لها أبعادها فى مجالات التعليم والاعلام والدين وتحتاج لوقت ليس بالقصير «لبناء الثقة» بين القيادات بالبعد عن «التعالى التاريخى وصولا الى التآخى المستقبلى» وهو أمل فى حاجة لجهد وفكر حكماء

البلدان العربية والأفريقية، وفي المقدمة المبادرة الأمريكية التى تملك المال والنفوذ السياسي- ذلك أن هناك تيارات وتجمعات أمريكية مؤثرة وفاعلة وغير موافقة على السياسات الأمريكية الحالية لكن الإعلام عنها في بلادنا ليكاد لا يكون موجودا أو معترفا به وعلينا البحث عن «أمريكا الأخري» فهي منحازة إلى قضايا الجنوب عموما وفى مقدمتها الجمعيات الأهلية والدينية التى تتابع ما يجرى فى فلسطين والسودان.

وأتوقع شخصا- كما يتوقع كل حكماء العالم- أن يكون ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يوما فاصلا فى التاريخ معبرا عن ذروة انتصار نظرية «صدام الحضارات» والتى ستتحسر تدريجيا وذروة العداوة بين الغرب والإسلام وأراها إلى تقهقر واضح مما اضطر بيرلسكوني رئيس وزراء ايطاليا إلى الاعتذار العلني والصريح عن مقولة أن «الحضارة الغربية تتفوق على الحضارة الإسلامية» وربما كانت هذه هي قناعته الداخلية بالفعل ثم كان الاعتذار الطوعي الذى قدمه الصادق المهدى عن المظالم التى تحملها أهل السودان الجنوبيين منذ قرنين من الزمان فكانت ترطيبا لمشاعرهم ثم كان نداء قداسة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني عند زيارته إلى سوريا فى مايو الماضي والذى وجهه إلى كل من المسيحيين والمسلمين بالالتزام بحوار يسوده الاحترام ثم قال: «علينا أن نطلب الغفران من القادر على كل شيء عن كل مرة أهان فيها المسلمون والمسيحيون بعضهم بعضا كما علينا أن نغفر بعضنا البعض».

ألخص فأقول أن قضية الإرهاب الدولي في غاية التعقيد والتركيب لأنها إفراز عوامل مختلفة بعضها يحمل طابع العقيدة الدينية إسلامية أو غير إسلامية ولكنها متأثرة بالإحساس بالظلم والقهر فى مجتمعات يسودها الفقر والأمية والإحباط لعدم قدرة المجتمعات- محدودة الموارد- على تلبية الاحتياجات الإنسانية الأساسية وتحسين «نوعية الحياة» من خلال توافر حق العمل وتحقيق الذات إلى حق السكن وتكوين أسرة إلى حق التعبير فى مجتمعات بها طموحات بتزايد نمو الديمقراطية وتداول السلطة وحقوق الانسان.

اننا فى انتظار أخبار الحرب والتى ستطغى على أخبار الفكر والثقافة ولكن الإرهاب الدولى سوف يزداد بعد الحرب ما لم تتم معالجة فكرية ثقافية مبدعة» ■■

5

المعتدلـون فـى الأديـان الإبراهيميـة يتحالفـون لقبـول الآخـر

أتذكر الآن البهجة والسعادة والأمل الذى عم كل أنحاء العالم عندما كان سكان هذا الكوكب يحتفلون بنهاية الألفية الثانية ليلة ٣١ ديسمبر عام ١٩٩٩ وكنت محظوظا فى أن قضيت هذه المناسبة التاريخية مع الرئيس وفي مقصورته المطلة على الهرم الأكبر فى مشهد لاينسى ولحظة فاصلة فى تاريخ البشر فكل الآمال كانت متعلقة باحلام وردية متوقعين ان الألفية الثالثة لن تري حربا عالمية وستتخلص تدريجيا من الحروب الاهلية لأن الكراهية الجماعية ستتلاشى لأن أحدا منا لم يختر لون بشرته أو ديانته ولذا قررت الأمم المتحدة ان يكون عام ٢٠٠٠ لنشر ثقافة السلام ثم تابعت ذلك بأن خصصت عام ٢٠٠١ ليكون عام حوار الحضارات. وبدلا من ان يتواصل حوار الحضارات ليؤتى ثماره وقبل أن ينتهي عام ٢٠٠١ إذ بالعالم يجن ويهتز ويصرخ لما حدث لأمريكا يوم الثلاثاء الحزين ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وإذ بالكراهية تتعمق وتزداد ومعها قلق شديد فالكل يتساءل: إلى أين نحن ذاهبون، ومن بين التساؤلات الكثيرة والممتدة نتعجب ونبحث عن الحل.

■ كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٥/٥٢ بأن تكون سنة ٢٠٠٠ مخصصة لنشر «ثقافة السلام» والتى تعنى -حسب نص القرار- «التآلف من القيم والمواقف وأنماط السلوك التى تمثل وتلهم التفاعل والتشارك على أساس الحرية والعدل والديمقراطية والتسامح والتضامن الذى يرفض العنف أى أنها (أى هذه الثقافة العالمية الجديدة) تهدف إلى منع نشوب الصراعات عن طريق معالجة وحل المشاكل من خلال الحوار والتفاوض.

ومضى عام ٢٠٠٠ دون ان نلمس -كمثقفين أو كبشر- أن هذا الكلام الجميل (الوارد فى تقارير وإعلانات الأمم المتحدة) قد تحول إلى واقع وهو الأمر الذى دفعنى -فى هذا المقال تحديداً- لأن أدعو لإنشاء أو تطوير الأمم المتحدة لتدير العالم بحسم وفاعلية وسلطات تتناسب مع أوضاع العالم الجديد، كما أدعو إلى تحالف ثقافى وجدانى آخر ينمى التقارب بين البشر خصوصاً بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وسيادة القطب الواحد، وانتشار التكنولوجيا الراقية التى فرضت «الشفافية» والتى كان اختراقها واستخدامها بواسطة مجموعات صغيرة -من كل دين وحضارة- خلقت الرعب والقلق فى العالم.

ثم جاءت فكرة رائعة بمبادرة من دولة إسلامية مشرقية فقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ٥٣/٢٢ أن يكون عام ٢٠٠١ مخصصاً للحوار بين الحضارات ويكون ذلك وفق النص «بأن تدعم الحكومات ومنظومة الأمم المتحدة بما فيها» اليونسكو، تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات بوسائل من بينها تنظيم المؤتمرات والحلقات الدراسية ونشر المعلومات بشأن هذا الموضوع وأن تبلغنى بالأنشطة التى تعتزم القيام بها -وهذا كلام كوفى عنان- كما طالبنى القرار أن أقدم للجمعية العامة فى دورتها الـ٥٤ تقريراً مؤقتاً عن الأنشطة المضطلع بها فى هذا الصدد وان أقدم إليها تقريراً نهائياً فى دورتها الـ٥٥».

* * *

وإلى كل من يتهم الإسلام بالإرهاب لا أجد أفضل من تلك الوثيقة الصادرة من ممثلى رؤساء الدول والحكومات أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامى الذين ساهموا فى الندوة المخصصة لقضية الحوار بين الحضارات المنعقدة بمدينة طهران أيام ٣ . ٤ . ٥ مايو عام ١٩٩٩، ولذا سميت الوثيقة «اعلان طهران» وهى تمثل منهجاً فكرياً متميزاً لا يصلح فقط على مستوى الدول الإسلامية وإنما هو دليل عمل مقبول لمعظم ثقافات وحضارات العالم كله.

في الديباجة تستشهد الوثيقة بالتعاليم الواردة في نصوص قرآنية في أمور وقيم كثيرة، ولو كان الامر بيدى لنشرت هذه الوثيقة كاملة وبلغات مختلفة على أبعد مدى ليتعرف الناس على رؤية إسلامية جاءت من أهل الاختصاص والعلم ولو كان رؤساء الدول الإسلامية قد اخذوا بهذا الاعلان وحولوه إلى واقع تعليمي وثقافي وأعلامي للاطفال والشباب والشيوخ على طول العالم الإسلامي وعرضه لعم الفكر المستنير القابل للآخر ولما كانت الفتنة التي حدثت يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد قامت لسيادة صحيح الدين ولما كان قد ادعى المدعون بما يروجون من الربط بين الإسلام والإرهاب وهم قوم كانت رؤيتهم قاصرة على نصوص بعينها ولم يروا الصورة «الكلية» التي طرحها اعلان طهران ومن غير المقبول ان يزايد أحد على خاتمي!!

ولو كان الامين العام للامم المتحدة قد سارع الخطى ووسع دائرة الاعلام لتنفيذ قرار الجمعية العامة بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام الحوار بين الحضارات وربما لتأجل قرار الجماعة التي نفذت انفجارات ١١ سبتمبر وربما لما كان العالم قد وصل إلى حالة الهستيريا التي وصل إليها، صحيح ان الامين العام كوفي عنان يذكر في تقريره انه قد اصدر قراراً في أغسطس آب ١٩٩٩ بتعيين جياندو مينيكو بيكو ممثلاً شخصياً له ليساعده في هذه المهمة.

وصحيح أيضًا ان مستر بيكو قد قام بالفعل بأجراء اتصالات مع بعض المجموعات الاقليمية والحكومات وصحيح ان الامين العام قد أشار في تقريره إلى نقص الموارد المالية وان أي مشروع يضطلع به مستر بيكو يتعين ان يكون مركزًا للغاية ومدعمًا بأموال من خارج منظومة الأمم المتحدة.

وهكذا يبدو أن عام حوار الحضارات قد ولد هزيلاً ضعيفًا لانه بلا موارد مالية تسانده فلا عجب أن فاعليته كانت ضعيفة.

وللإنصاف أيضًا لابد لي ان أقتبس بعض الفقرات ذات الدلالة من تقرير مستر بيكو نفسه فهو تقرير يدل على فهم وقدرة ولكننا كمثقفين وبشر -لم نشعر بأي تأثير لفكر جديد انتشر ليوجد تواصل أو تفاعل نتيجة أي حوار واقتبس من التقرير هذه الفقرات ذات الدلالة:

• لمفهوم الحوار بين الحضارات مضامين مختلفة: بدءًا من الحوار الثقافى بين الإسلام والغرب أى ان مستر بيكو كان مدركًا اهمية قضية الحوار بين الإسلام والغرب وهى التى تفجرت قبل نهاية عام ٢٠٠١ مرورًا بالحوار بين الاديان الرئيسية ووصولاً إلى التبادل السياسى الثقافى بين سليلى الحضارات التاريخية كثيرة لقد اثبتت السنوات العشر الاخيرة ان الحاجة تدعو إلى إجراء حوار يمكن ان يتسم بطابع وقائى ومتسع للجميع لقد بدأ العقد الاخير بنبوءة فظيعة وكاذبة وهى ان الحروب التى سيتم خوضها ستكون بين الحضارات والثقافات ويمكن ان تكون بين الاديان.

ورؤية بيكو كانت نيرة وعميقة ولكن الذى فاز فى السباق الفكرى كان هانتنجتون لان الاصوليين فى افغانستان وامريكا قد وقعوا فى فخ صدام الحضارات الذى نصبه بذكاء ولو كانت الأمم المتحدة قد قامت باجراءات وقائية كافية لربما كان من الممكن تحاشى انفجارات ١١ سبتمبر اللعينة ولتحاشى العالم المأزق الحالى ومهما تكن الميزانية التى كانت الأمم المتحدة أو اليونسكو ستنفقها لتحاشى صدام الحضارات لكانت قروشًا بسيطة لما صرفه العالم على الحرب.

• ان الحروب المحلية فى القوقاز والبلقان وشرق افريقيا وغيرها انبثقت من التصور القائم على ان التنوع يشكل تهديدًا ولذا يبدو من المناسب التكلم فى اطار الأمم المتحدة على مجموعتين من الحضارات الأولى تنظر إلى التنوع باعتباره تهديدًا والاخرى تدرك ان التنوع هو عنصر متمم من عناصر النمو وينبغى ان يقوم الحوار بين هاتين المجموعتين من الحضارات.

ترى ما الذى قام به مستر بيكو لتحقيق الحوار بين هاتين المجموعتين وهل كان ذلك ممكنا ومن سوف يمثل الحضارة (أى حضارة) فالأمم المتحدة هى جملة دول وليست حضارات.

● بإمكان منظمة الأمم المتحدة أن تسهم فى الحوار بين الحضارات ولكن ليس بامكانها ان تخترعه. أى ان مستر بيكو ومنذ البداية كان مدركًا صعوبة اختراع الحوار بين الحضارات.

* * *

أما وقد انقضى الجزء الأكبر من عام ٢٠٠١ ولم نر ثمارًا لحوار الحضارات بل اعتقد ان ما تم من جهد بواسطة كل من اليونسكو أو مستر بيكو كان استيفاء الشكل دون المضمون وذهب الجهد المحدود ادراج الرياح.

أما وقد تم تدمير ما دمر فى أكبر مدن امريكا يوم الثلاثاء الحزين فقد تغير المناخ الثقافى العالمى وحلت الكراهية محل قبول الآخر ومات حوار الحضارات وعلينا ان نبنى بأظفارنا كل شئ جديد.

أما وقد اعلنت امريكا وانجلترا الحرب على افغانستان بهدف اسقاط نظام الحكم فيها لأنه يأوى اسامه بن لادن الذى تؤكد امريكا انه الرأس المدبر لما جرى فقد اصيب المفكرون بالشلل للمخرج الثقافى من المأزق ونحن منتظرون ما ستسفر عنه قرارات السياسيين والعسكريين فهى حرب من نوع جديد تمامًا بها تحالف قوى ظاهر وعدو مختف فى الكهوف وفى ضمائر ملايين البشر المصابين بالاحباط والفقر فالمعركة اذن غير متكافئة والنتائج يخفيها القدر.

لقد تحركت امريكا برشاقة وفى هدوء لتكسب اصدقاء للتحالف الذى تبنيه ضد الإرهاب فانحازت انجلترا انحيازًا كاملاً وتبعتها ألمانيا إلى حد كبير ورغبت اليابان ان تشارك حتى لا تستبعد من الساحة وسافر كولن باول إلى الهند لتقف معه ضد الإرهاب والثمن هو "كشمير" وقبلها سافر إلى باكستان ولكن الصراع لم يحسم بعد فى شبه القارة الهندية لانه صراع قديم مفتوح لكل الاحتمالات.

وأخيرًا وليس آخرًا سافر الرئيس چورچ بوش بنفسه ومعه رجاله ليكسب الصين والشرق الأقصى فى «التحالف ضد الأرهاب» وقبل ذلك كانت روسيا الاتحادية قد أعلنت موقفها لتسترجع بعضًا من «مكانة» الاتحاد السوفيتى ولتبرر ما قامت به فى الشيشان.

وفي وسط الزحام تزداد أحداث القتل فى فلسطين على الرغم من إدراك أمريكا أن الصراع العربي- الإسرائيلى قد صار صراعًا عالميًا وليس محليًا وأنه دون حسمه سيظل الدم والحقد والكراهية فى تزايد لتولد مناخًا عامًا قلقًا -ليس فى المنطقة وحدها- وانما فى العالم كله، فقد تم استقطاب «داخل» الأديان الإبراهيمية الثلاثة فى هذه القضية المحورية فمعظم اليهود داخل اسرائيل وخارجها يعملون على استمرار تفوق اسرائيل بقوة السلاح والقتل أى من خلال «القهر» وبجوارها قلة محدودة من اليهود العلمانيين يصرخون دون جدوى فأصواتهم غير مسموعة وسط الصخب العالمى ولسان حالهم ينادى: دعنا نعش فى فلسطين مع المسلمين والمسيحيين كمواطنين وبشر عاديين دون «تعال» وسيتولد «التآخى» مع الزمن ولكنهم قلة فى الوقت الحالى وقد تتغير موازين القوى مع الزمن.

أما المسيحيون -وعلى مستوى العالم- وهم قوة ضخمة مؤثرة- ولكنهم عبر التاريخ تفرقوا إلى مذاهب مختلفة- وعلى سبيل المثال فداخل امريكا ذاتها تحالفت قطاعات من المسيحيين البروتستانت مع قطاعات من اليهود وانحازوا إلى اسرائيل (لأسباب دينية كتابية متخصصة ليس هذا موقعها) وقد صارت هذه الكتلة شديدة التأثير على القرار الامريكى الحالى المنحاز لاسرائيل والذى أدى إلى احباط العرب، وفى المقابل -حسبما جاء فى مقال د.القس مكرم نجيب- الأهرام الجمعة ٢٠٠١/١٠/١٠) توجد الكنائس المسيحية واللوثرية والأسقفية وهى التى يطلقون عليها الكنائس الرئيسية "Main Churches"وهى التيار الغالب عددًا ولكنه -فيما أتصور- ليس الأعلى صوتًا ولم يحدث ان حاولنا نحن العرب بناء جسور ثقافية مع هذه الجماعة المهمة وبجوار هذه الكنائس البروتستانية فى أمريكا وغيرها يوجد ثقل الكنيسة الكاثوليكية وهى أيضًا لها موقف معتدل ومتوازن دينيًا وسياسيًا وحتى الآن لم تعلن الكنيسة الكاثوليكية انها مع التحالف ضد الأرهاب.

أما معظم الكنائس الأرثوذكسية المشرقية وكثير منها عرب يعيشون حاليًا وعاشوا لقرون تحت مظلة الحضارة العربية الإسلامية فإنهم منحازون للحق العربى فى فلسطين والقدس وأبرز مثال لهم هو الموقف الثابت لقداسة الانبا شنودة بابا الإسكندرية.

كذلك حدث استقطاب في العالم الإسلامي والذى انحاز إلى «الوسطية» والإسلام المتسامح -كما فى حالة مصر- بعيداً عن التطرف ومعظم هذا التيار قد وجد أن الإرهاب قد أساء إلى الإسلام فى الغرب بالذات.

ومن ثم فإن المنطق يدعو إلى وجود «تحالف» يجمع كل المعتدلين فى الأديان السماوية الثلاثة وفى تصورى فإن حكومات كل من مصر ولبنان وسوريا والاردن وفلسطين قادرة على تكوين هذا التحالف الدينى المعتدل، وفى تقديرى فإن إيران فى حقبة خاتمي كما السعودية يمكن ان يلعبا دوراً مهماً فى هذا التحالف الذى سيكون بداية ثقافية فى المرحلة القلقة الحالية التى تحتاج إلى مخرج عالمى من العنف المتبادل والمتنامي لتنزع فتيل العنف.

دعنا نأمل لو استهوت الفكرة حكومة مصر -وهى نموذج للوحدة الوطنية- يمكنها ان تدعو الحكومات المرحبة بذلك لفتح حوار بين الاديان أولاً وهو أمر قائم بالفعل فى اتجاه توسيعه ليصير فيما بعد حوار الحضارات فى الوقت القريب المناسب.

أما قضية تعديل ميثاق الأمم المتحدة فأراها -رغم أهميتها- لا تثير اهتمام الحكام حالياً فالكل منشغل بمتابعة المفاجآت اليومية لما يجرى فى العالم بل لعلها لا تثير خيال المفكرين ذلك أن إدارة العالم فى الأوضاع الحالية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لن تحل من خلال الميثاق أو التنظيمات الحالية للأمم المتحدة لأن مجلس الأمن الحالي يناقش احتمالات «الحروب» ولكنه لا يراقب نمو الكراهية «الجماعية» التى توصل إلى الحروب الأهلية وهى مشكلة ثقافية فى المقام الأول.

فالحرب الحالية لن يكون فى مقدورها القضاء على الإرهاب بل ستؤدى إلى مزيد من الإرهابيين المحيطين بالقهر، ومن هنا كان وجود «تحالف بديل قابل للآخر» فى اطار الاديان الابراهيمية سيكون خطوة نحو بناء تحالفات تمتد إلى الثقافات البوذية فى الهند والكنفوشية فى الصين وهو أمردعوت له عدة مرات فى السابق -كما لو كنت أقرأ المستقبل- ولكن كثيرين هاجموا المبدأ لأن الهند فى حالة صراع مع باكستان وهى نظرة لا ترى إلا بمقياس الانحياز إلى الانتماء الدينى فى حين أن المعايشة بين الأقباط والمسلمين فى مصر كانت نموذجاً قابلاً للتعميم وليس للتعتيم. ■■

د. عبد العزيز التويجرى
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم بالرباط

الحوار قوة دفع لبناء السلام(*)

قرأت بإمعان وتقدير، المقال الرائع الذى نشره الأستاذ الدكتور ميلاد حنا تحت عنوان (المعتدلون فى الأديان الإبراهيمية يتحالفون لقبول الآخر)، فى عدد الأهرام ليوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ٢٠٠١م. لقد ركز الكاتب المفكر فى مقاله على إعلان طهران حول الحوار بين الحضارات، الذى يعبر عن موقف دول منظمة المؤتمر الإسلامى إزاء الدعوة العالمية إلى الحوار بين الحضارات والثقافات.

■ والذى يعد وثيقة تعكس وجهة نظر العالم الاسلامى الى قضية الحوار عمقا وجوهرا ورسالة ووسيلة للتعايش بين الامم والشعوب. ولقد وفق الكاتب الفاضل فى التعبير عن رأى علمى سديد ووجهة نظر منهجية حصيفة، وكان منصفا حين قال ولو كان الامر بيدى لنشرت هذه الوثيقة كاملة وبلغات مختلفة على أبعد مدى ليتعرف الناس على رؤية إسلامية جاءت من أهل الاختصاص والعلم، ولو كان رؤساء الدول الاسلامية قد أخذوا بهذا الاعلان وحولوه الى واقع تعليمى وثقافى واعلامى للاطفال والشباب والشيوخ على طول العالم الاسلامى وعرضه، لعم الفكر المستنير القابل للآخر، ولما كانت الفتنة التى حدثت يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد قامت لسيادة صحيح الدين، ولما كان قد ادعى المدعون بما يروجون من الربط بين الاسلام والارهاب وسجل الكاتب بثاقب نظره وفى التفاتة لماحة، قصور المساعى والجهود التى بذلها الأمين العام للأمم المتحدة فى تنفيذ قرار الجمعية العامة المتحدة القاضى بجعل السنة الحالية ٢٠٠١، سنة دولية للحوار بين الحضارات.

[*] .. ولكى يكتمل الحوار .. كان لزامًا علينا نشر تعليق الدكتور/ عبد العزيز التويجرى بجريدة الأهرام على مقال «المعتدلون فى الأديان الإبراهيمية يتحالفون لقبول الآخر».

وأود ان اغتنم هذه المناسبة لاذكر قراء (الأهرام) بأن العالم الاسلامي كان سباقا الى طرح فكرة تخصيص سنة دولية للحوار بين الحضارات، فقد صدرت المبادرة أولا من سيادة الرئيس الايراني محمد خاتمي فى كلمة له القاها امام الجمعية العامة للامم المتحدة، ثم تبنت منظمة المؤتمر الاسلامي فى فترة رئاسته لها، خلال دورة مؤتمر القمة الاسلامي الثامنة، هذه القضية حيث أوصى المؤتمر الاسلامى لوزراء الخارجية فى دورته السادسة والعشرين بتبنى الدعوة الى الحوار بين الحضارات، ودعا الى إعداد وثيقة تعبر عن رؤية العالم الاسلامى إلى الحوار، وهى الوثيقة التى عرفت بـ (إعلان طهران حول الحوار بين الحضارات) الذى صدر عن الندوة الاسلامية للحوار بين الحضارات التى عقدت فى طهران فى الفترة ما بين ٣ و ٥ مايو ١٩٩٩. وكان هذا الاعلان هو الاساس الذى انطلقت منه منظمة المؤتمر الاسلامي بجدة. وكانت المهمة التى أوكلت إلى هذه اللجنة هى وضع تصورات عامة تعبر عن وجهة النظر الاسلامية لتطعيم مشروعى الوثيقتين العالميتين حول الحوار بين الحضارات المعاصرة.

فعاليات العام الدولية

وفي هذا الاطار، تحركت منظمة المؤتمر الاسلامى، بالتعاون مع المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو- لبلورة تصورات منهجية وعملية للحوار بين الحضارات، وللمساهمة فى وضع مبادىء إنسانية لهذا الحوار، على أسس حضارية وثقافية، ومن منطلقات انسانية، وباستلهام روح الدين الاسلامى والعمل بمقتضى تعاليمه السمحة، وقد تمثلت الجهود التى قامت بها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة فى هذا المجال، مساهمة منها فى أنشطة السنة الدولية للحوار بين الحضارات، فى تنظيم ندوتين دوليتين، الاولى حول موضوع (الحوار بين الحضارات فى عالم متغير) عقدت فى الرباط تحت الرعاية السامية للعاهل المغربى الملك محمد السادس، فى الفترة ما بين ١٠ و ١٢ يوليو ٢٠٠١، بمشاركة صفوة من المفكرين والأكاديميين من البلدان العربية الاسلامية ومن بعض الدول الغربية، وقد صدر عن هذه الندوة (بيان الرباط حول الحوار

بين الحضارات). اما الندوة الثانية، فسنعقدها، ان شاء الله في تونس في الفترة ما بين ١٢ و ١٣ نوفمبر ٢٠٠١، تحت عنوان (الحوار بين الحضارات: التنظير والتنفيذ)، وذلك برعاية كريمة من سيادة الرئيس التونسي زين العابدين بن علي. وسيحضر الندوة شخصيات فكرية وعلمية وأكاديمية من العالم العربي الاسلامي ومن الغرب.

وبتكليف من المؤتمر الاسلامي لوزراء الخارجية في دورته الثامنة والعشرين، تقوم المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون والتنسيق مع الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الاسلامي، باعداد كتاب أبيض حول الحوار بين الحضارات، سيقدم الى الدورة الحالية للجمعية العامة للامم المتحدة في شهر ديسمبر المقبل.

ويضم هذا ا كتاب الأبيض، مجموعة من الوثائق المتعلقة بالحوار بين الحضارات، تشمل القرارات والتوصيات والإعلانات والبرامج التنفيذية المصممة لهذا الغرض، اضافة الى مشروع الوثيقة العالمية للحوار بين الحضارات ومشروع منظمة المؤتمر الاسلامي حول الحوار، ورؤية المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة إلى الحوار بين الحضارات في دلالاته العميقة وبمفاهيمه الواسعة واهدافه الانسانية، ويعد هذا الكتاب سجلا توثيقيا للحوار بين الحضارات، يساهم به العالم الاسلامي في تخليد السنة الدولية للحوار بين الحضارات.

إن اهتمامنا بالحوار بين الحضارات، ينبع من ايماننا باحدى قيم الحضارة الاسلامية، ذلك ان الحوار هو فضيلة من فضائل الحضارة الاسلامية، وهو خاصية من خصائص التي تميز التاريخ الاسلامي عبر مختلف العصور، خاصة خلال عصور التألق الحضاري والمعارف. إن العالم الاسلامي يؤمن أن الحوار بين الحضارات، يسهم بدرجة كبيرة في التقارب بين الشعوب والامم وفي ازالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم المتبادل ومن الافكار المسبقة القائمة على اسس غير صحيحة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية لثقافة شعب من الشعوب عن ثقافة شعب آخر، مما يجعل من مواصلة الحوار وتوسيع دائرته، رسالة النخب الفكرية والكفاءات الثقافية والعلمية، ومسئولية المهتمين بالمصير

الانسـاني، كل من الموقع الذى يشـغله ومسـئولية الأمم المتـحدة فى المقام الاول لفرض الاحتكام إلى القانون الدولى، واحترام احكامه ومقتضياته.

وإن رؤية العـالم الاسـلامى إلى الحـوار بين الحـضـارات، تقـوم على قـاعدة الاحترام المتبادل بين المنتسبين لهذه الثقافات والمنتمين لهذه الحضارات جميعا، حتى يحمى الحوار مبادىء الحق والعدل والانصاف.

إن القيم التى يستند اليها الحوار بين الحضـارات، هى ذاتها قيم الحضارة العربية الاسلامية التى تعايش فى ظلها أتباع الديانات السماوية مسلمين ومسيحيين ويهودا، الذى أسـهموا جميعا كل من موقعه، فى بناء صرح هذه الحضارة، فى مراحل من الزمن كان العالم الغربى فيها يعيش خارج دائرة العلم والتقدم والحضارة، كما نعلم جميعا.

واعتقد أن مسئوليتنا كبيرة فى العمل على اشاعة هذه القيم وتوسيع دائرة امتدادها ونفوذها فى المجتمعات الانسانية المعاصرة جميعا.

ولكن علينا أن نؤكد دائما أن الحوار بين الحضارات لا يستمد أهميته ولا يكتسب شرعيته، ولا يكون ذا جدوى وفائدة ومردود ملموس، ما لم يقم على أساس احترام الخصوصيات الثقافية مع الانفتاح على الآخر وقبول التعاون معه، مهما يكن حجمه وما له من امكانات وطاقات، وفى نطاق احترام ما له من خصوصيات ثقافية وحضارية التى تشكل شخصيته وتمنحه القدرة على اثبات الذات، كما عبر عن ذلك العاهل المغربى الملك محمد السادس فى رسالته التى وجهها إلى ندوة الرباط حول الحوار بين الحضارات فى عالم متغير.

ومن احترام الخصوصيات الثقافية ينبع حق الجماعات الانسانية فى الحفاظ على خصوصياتها وهو حق أقرته المواثيق الدولية، وكفله القانون الدولى، ولذلك فإن كل محاولة لتجاوز هذا الحق، والعدوان عليه. هى خروج على أحكام القانون الدولى، وانتهاك صريح لمقتضياته ولمبادئه. وهذه هى السبيل الى قبول الآخر كما عبر عن ذلك الأستاذ الدكتور ميلاد حنا فى مقاله القيم. ■■

الحملات العسكرية لن توصل إلى
النتيجة المرتقبة من القضاء على الارهاب

د. ميلاد حنا

نحو إقرار حق الحضارات الأخرى بما فيها العربية - الإسلامية في إدارة العالم

«لن تستطيع الحرب المدمرة حل المشكلة المسماة «ارهاباً» انما الانطلاق من المآسى الحاضرة لصوغ تعاون بين الحضارات جميعاً لخير الانسان، هذا ما يمكن لرئيس الوزراء البريطاني تونى بلير ان يقوله للرئيس بوش حين يقابله ويتدارسان حصيلة جولة بلير الأخيرة في عواصم عربية.. اذا قال بلير ذلك.»

■■ الرئيس جورج بوش (الابن) وتونى بلير صارا الرمزين الممثلين لقيادة التحالف الدولى لمقاومة (وربما القضاء) على الارهاب». قد يكونان متقاربين فى السن لكنهما مختلفان فى المشارب، أى فى التركيبة الانسانية، على رغم كونهمانتاج الحضارة الغربية المعاصرة عموما فالرئيس بوش لديه احساس لا يخفيه فى انه رأس لاكبر دولة فى العالم سكاناً وثراء واسلحة وفكراً وتنظيماً وانفتاحا على العالم وكان من المفترض ان يكون ذلك دافعاً لان يكون اكثر حرصا فى اختيار كلماته ونبرات صوته، لكنه يتصرف على سجيته متأثراً بنشأته فى اسرة واسعة الثراء واسعة الطموح. وفى إطار أن أباه لم يكن فقط رئيس جمهورية أمريكا قبل عشر سنوات بل كان قبل ذلك رئيس CIA. بينما تونى بلير تختلف خلفيته الثقافية فجذوره «الانكليزية» ذات نكهة اشتراكية ديموقراطية وبنية فكرية لفلسفة «الطريق الثالث» تجعله اكثر حذراً فى تحركاته ومقولاته، غير انه قرر ان يكون «شريكاً رئيسياً» فى هذا التحالف وايده بكل قوة وراهن على نجاحه، ولذا كان استقباله فى الكونغرس الامريكى قبل ساعات من إعلان الحرب

فى يوم الاحد ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ٢٠٠١ حميماً وبتصفيق غير مسبوق، حتى تؤكد أمريكا لنفسها وامام العالم انها ليست معزولة أو «وحيدة» فى قيادة هذه المعركة والحرب «الفريدة من نوعها». ذلك ان لبريطانيا «العظمى» خبرة وتراثا ثريا فى التعامل مع دول العالم النامى عموماً والدول العربية الاسلامية خصوصاً من هنا كانت اهمية زياراته (أى تونى بلير) لبعض الدول العربية، وربما كانت «الحياة» هى التى اختصها تونى بلير بمقال مقتضب نشر فى مكان رئيسى (ص ٨) يوم الخميس ١١ تشرين الاول (اكتوبر) العام ٢٠٠١ أى بعد شهر بالتمام والكمال على الهجوم الخاطف على نيويورك وهدم برجى مركز التجارة العالمية، واختار للمقال عنواناً ذكياً يلخص رؤية وسياسة تونى بلير بعنوان «خلافنا ليس مع الاسلام بل مع الارهاب ومؤيديه» حيث يعترف بأنه «ليس خبيراً بالاسلام لكن بريطانيا الآن بلد متعدد الثقافات وفيه الملايين من المسلمين البريطانيين».

ومن الواضح أن تونى بلير اكثر اهتماما من جورج بوش فى التأكيد أن الصراع ضد الارهاب لا يعنى الصراع مع الإسلام أو المسلمين العاديين، ولعله يقصد أن يخفف من حال الغضب التى نتجت من تصريح الرئيس بوش (الذى اعتذر بعده) بأن الحرب المقبلة ستكون «صليبية».

وسواء كانت العبارة «زلة لسان» أم توصيفاً مجازياً للتعبير عن أنه «جاد جدية قاطعة» فى حربه ضد الارهاب، فإن تونى بلير – فى ما يبدو- أكثر «علمانية» لا يريد أن يتحول الصراع ليأخذ «بعداً دينياً». فانجلترا مرت فى مراحل ممارسة الامبريالية على مدى نحو القرنين ١٩ و ٢٠ ومارست بالفعل «فصل الدين عن الدولة» فضلاً عن ذلك، ومنذ كونت «الكومنولث» وبالذات فى حقبة مابعد الحرب العالمية الثانية، هاجر الى انجلترا ملايين» من المسلمين والملونين حتى صارت لندن بالذات كأنها مدينة متعددة الثقافات والاعراق- على حد قول تونى بلير ذاته- الأمر الذى أزعج بلير وزاد الطين بلة أن الاحداث والتصريحات الأمريكية ومنذ ٢٠٠١/٩/١١ ربطت بين الارهاب والاسلام، فلم يذكر اسم فرد قيادى وعقل مدبر للأحداث إلا اسامة بن لادن، ولم يتم البحث والتفتيش إلا عن جماعة «القاعدة» التى

ينتمي افرادها الي جنسيات «مختلفة» ولكن كلهم «مسلمون» وأدى كل ذلك لأن تبلور الصراع والصدام ليكون بين الغرب والاسلام، وكان صموئيل هنتختون (صاحب نظرية صدام الحضارات) ذكر صراحة- في بحثه العام ١٩٩٣ ثم اكد في كتابة العام ١٩٩٦ في عبارتين مميزتين هما: إن الحرب المقبلة- إن كانت ستقع- ستكون حرباً بين الحضارات. يقول بعض الغربيين بمن فيهم الرئيس الامريكي السابق بيل كلينتون (وقال العبارة ذاتها الرئيس جورج بوش ثم توني بلير) العبارة بين قوسين تعليق واجب من كاتب هذه السطور ان الغرب ليس بينه وبين الاسلام أية مشكلة انما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الاسلاميين (أي الارهابيين) ولكن أربعة عشر قرناً من التاريخ تقول خلاف ذلك!!

وليس هدفي من ذكر هذه الفقرات ان اصب الزيت على النار، فواقع التظاهرات التي اجتاحت معظم- إن لم يكن كل- دول العالم الاسلامي،تظاهرات احتجاج قد تتطور لتكون عصياناً مدنياً على الغارات الجوية والصواريخ التي اسقطتها كل من أمريكا وانجلترا على افغانستان.

إن العالم يشاهد بعد الحرب العالمية الثانية عشرات النزاعات في أماكن كثيرة، فهناك «ارهاب» الجيش الجمهوري الايرلندي ثم جماعة الباسك في اسبانيا، ثم عشرات الصراعات العسكرية في يوغوسلافيا. وكانت مآسي المقابر الجماعية للمسلمين هناك في مواقع مختلفة للدلالة على خطط اديان اخرى على التطهير العرقي ضدهم، ثم هناك الحرب الاهلية المريرة في السودان بسبب المظالم والرق في الجنوب، وهناك حرب التأصيل في سريلانكا وغيرها في الفلبين والصراعات بين القبائل في افريقيا، فضلاً عن عشرات ومئات الشهداء لمدة عام منذ بدأت الانتفاضة الفلسطينية فلماذا لم تذكر (أي من امريكا أو انجلترا) إلا حال بن لادن وتنظيم «القاعدة» وحده كنماذج للارهاب العالمي، ما اعطى انطباعا بأن الحملة ضد «طالبان» أو بن لادن موجهة اساساً ضد «الاسلام»!! وها هي أمريكا وانجلترا قامتا بحملة عسكرية عاتية منذ يوم الاحد ٢٠٠١/١٠/٧ ومعهما تحالف دولي ضخم من حكومات حليفة قدمت العون في

شكل أو بآخر ولو بتقديم المعلومات عن «الارهابيين» ما يؤكد ان الارهاب الذى تود أمريكا وانجلترا القضاء عليه هو ارهاب «المتشددين من الإسلاميين» وحدهم.

لذا فالمتوقع أن تؤدى هذه الحرب الى توسيع عدد المنضمين من «المجاهدين الجدد» الى تنظيم «القاعدة» لان الارهاب ليس دولة ذات معالم وجيش، وعندما يتم الانتصار عليها، تتغير موازين القوى، كما حدث فى انتصار «الحلفاء» على المانيا النازية ومع انتهاء الحرب العام ١٩٤٥، اعلن عن تكوين منظمات «ثقافية» داخل المانيا تعيد تثقيف الشباب حتى يتمرس الديموقراطية ويقتنع بأن المانيا ليست فوق الجميع بل قامت جمعية «التسلح الخلقى» بجهد فائق فى الندوات والمناقشات والحوارات فى أماكن كثيرة وبين مجموعات متباينة لنزع «الكراهية» بين المانيا وفرنسا، ولم يكن من الممكن انشاء «السوق الاوروبية المشتركة» من دون تحويل الكراهية الى مودة معقولة من خلال هذه الحملة «الثقافية» التى نزعت الكراهية بالفعل من «ضمير» جزء كبير من الشباب فى المانيا وفرنسا، اذ ادركت الدولتان (فرنسا والمانيا) ان الانتصار فى الحرب لا يعنى تغيير مشاعر النفس الداخلية.

المشكلة اذن- فى امر الارهاب ليست مشكلة بجيش الجيوش ولا إلقاء القنابل الحديثة التى تخترق الخرسانة المسلحة، ولا إطلاق طائرات التجسس (من دون طيار) للتصوير الدقيق بأرقى التكنولوجيات بهدف الوصول الى المكان الذى يختبىء فيه بن لادن، لان الاقتناع بالجهاد الاسلامى ليس من «ابتكار» بن لادن بل هو عقيدة موجودة بالفعل لدى تيار دينى، وهناك واقع فعلى يدل الى الاحباط والاحساس بالظلم (فى قضية فلسطين وغيرها) وهناك واقع مجتمعى فيه فقر وتخلف وقهر، ثم فوق ذلك هناك نصوص وممارسات تاريخية ولدت وتولد لدى كثيرين نماذج جهادية من التراث، ولكن لا بأس من استخدام التقدم العلمى المتاح حالياً من وسائل اتصالات بالفاكس وعلى الانترنت وغيرها لاحداث هذه التفجيرات فى نيويورك وواشنطن، والتى ادت الى حالة من الازعاج، علاوة على الانبهار والتشفى بالدول الغربية التى كانت تكيل بميكيالين فى معالجة قضايا المسلمين وفلسطين. واثبتت الاحداث أن الاسلام- مثله كمثل كل الاديان- ليس

نوعاً واحداً بل عقائد عدة فمن المعروف أن المسيحية ايضاً انواع ومذاهب عدة: ارثوذكسية وكاثوليكية وبروتستانتية، ويوجد على سبيل المثال فى أمريكا عشرات الفرق من المذاهب الانجيلية البروتستانتية وان بعضها «متحالف» مع تيارات من «اليهود» المتعصبين المؤمنين بالصهيونية وان اليهود هم شعب الله المختار، وأوجدوا خلطة جديدة تعرف باسم «المسيحية- اليهودية» أو «اليهودية- المسيحية» وهى جماعات اهلية ذات تأثير واسع فى تكوين السياسة الخارجية الامريكية. واحسب- كما هو معروف- أن هذه الجماعات ممثلة فى أشكال الضغط المعروفة بـ «اللوبى» لإثارة الكراهية ضد العرب والمسلمين فى أمريكا بالذات. فلماذا إذن لا يتكون كرد فعل «طبيعى» ذلك «المتشدد» المقابل فى الاسلام لأنه لا يجد حلاً لمشكلات الصراع بين «الغرب والاسلام» إلا بتكوين الجماعات «الجهادية» والتى لديها قناعة بما تقوم به من البذل والتضحية بالنفس فى سبيل قضية رفعة الاسلام أى انتصاره وتفوقه على «حضارة الغرب»، ولذلك «أدبيات» معروفة ومسجلة فى كتب التاريخ القديم يتم تحديثها وتجديدها بمفاهيم جديدة معاصرة، أى مزج فلسفة الجهاد القديمة بأساليب العلم والتكنولوجيا الحديثة، فكانت هذه الجمعيات الاسلامية الجهادية على انواعها ومسمياتها وتنظيماتها، وينظر اليها الغرب على أساس انها «ارهاب دولى» وفيما ينظر اليها قطاع غير قليل من المسلمين على انها النخبة المضحية بالنفس وان لا تغيير لاحوال المسلمين فى العالم من دون هذه الجماعات. إن السياسى الناجح ينبغى أن يكون متفهما لاساليب ومناهج الفكر لدى الآخرين، اى ان نقطة البداية هى «قبول الآخر».

من هنا فإن الحملات العسكرية لن توصل الى النتيجة المرتقبة من «القضاء» على الارهاب، لان الارهاب فى حقيقته وعمقه يحتوى على جانب «ثقافى دينى إنسانى مجتمعى» ولو فرضنا- مثلا- ان امريكا وبمساعدة انجلترا ومن خلال استخبارات دول صديقة» قد أمكنها القبض على كل افراد تنظيم القاعدة أو التنظيمات المماثلة، وهو أمر أراه مستحيلاً وغير ممكن من الناحية العملية، فإن هذه المجتمعات الاسلامية ستفرخ جيلاً وربما اجيالاً من «المجاهدين» تختبىء

بعض الوقت لكنهم إلى ظهور بعد مدة طالت أم قصرت ولذلك فإنه اذا استمرت واستمرأت الولايات المتحدة هذا الطريق وهو مواجهة العنف- اياً كان مصدره- دينياً أو غير ديني- اسلامياً أو غير اسلامي- اقول، مواجهة العنف بالعنف للافراد والمجمعات البشرية وصولاً الى بعض الدول التى تبنت «العنف» وربما مارسته فى السابق أو تتمنى ان تمارسه، فإن الطريق شاق وربما مستحيل ولن تفيد قوة الاسلحة المتطورة ولا طائرات التجسس بغير قادة ولا الحاسبات الالكترونية أو التكنولوجيا الراقية، لان من لديه عقيدة يفتديها بحياته اقوى من اى ملاح بشرى آخر!! واذا كان لى من عتاب، فإننى اتوجه بعتابى الى الولايات المتحدة ذاتها فهى- ومن خلال قراراتها- اطلقت تلك القوة «الكامنة» فى الانسان وهى «الاديان». ففى العام ١٩٥٥ اعلن جون فوستر دلاس وزير خارجية أمريكا بانه سيستعين بسلاح الأديان- على تنوعها- لمكافحة الشيوعية «الملحدة» و كون تنظيماً معروفاً باسم «معبد التفاهم» خصصت له الاموال والخبراء لتقوية التيارات الدينية على انواعها: السماوية وغير السماوية، فكانت تقوية اليهودية ومعها الصهيونية، وبعدها جاء تنظيم المسيحية واعلن عن «مجلس الكنائس العالمى، وله تنظيمات فرعية متعددة وما زال تأثيره هائلاً حتى الآن، وتمت تقوية الصلة بين أمريكا اللاتينية الكاثوليكية، وكان الباب الخلفى الذى دخلت من خلاله عملية تفكيك الاتحاد السوفياتى هو «الكنيسة البولندية» والتى غزت اتحاد العمال المسمى بـ "التضامن" بزعامة فاوينسا، ولما انتهى دوره اختفى.

وعندما قام الاتحاد السوفياتى بغزو افغانستان فى كانون الثانى (يناير) العام ١٩٧٩ لجأت أمريكا الى السلاح نفسه، وجند «المجاهدون» من دول العالم العربى والاسلامى، وقامت الاستخبارات الامريكية بتجميعهم فى بيشاور، أى فى باكستان، حيث كان تدريبهم وتزويدهم بالسلاح والطائرات وبالفعل حصدت امريكا انتصاراً سهلاً عندما امكنها تفكيك الاتحاد السوفياتى بأبخس الكلفة ومن دون حرب أو موت أمريكى واحد. وها هى امريكا تشرب من الكأس الذى اذاقته للاتحاد السوفياتى. من هنا فإن مسار امريكا الآن- وهى مؤيدة تماماً

من انجلترا- ليس هو الطريق الصحيح فالنتيجة «غير» مضمونة، لأن العدو الذى تصارعه ليس طالبان وليس اسامة بن لادن وليس تنظيم «القاعدة»، فالمقاومة فى وجه امريكا ستزداد تدريجياً، وربما تدخل امريكا خندقاً يصعب ان تخرج منه.

إن بداية «استرخاء» هذه الحال من «التشنج» التى دخل فيها معظم سكان الكرة الارضية، لن يكون بأخبار غزو وانتصارات فى افغانستان أو مزيد من حالات الجمرة الخبيثة فالجمرة الخبيثة فى حقيقتها «فكرية ثقافية» فى المقام الأول» وتكون بأن تعلن امريكا انها ستبدأ سياسة «جديدة» هى التنازل الطوعى عن زعامة العالم، وانها حضارة غربية عظيمة تجلس فى القمة لكنها لن تحتفظ بموقعها فى القمة إلا من خلال اعلانها انها تقبل مشاركة حضارات اخرى في قيادة العالم معها، ومن بين هذه الحضارات- ولا شك- «الحضارة العربية الاسلامية» فضلاً عن الحضارات الاخرى بما فيها الحضارة الافريقية «الغلبانة» والتى رفض صموئيل هنتغتون - وفيلسوف صدام الحضارات- أن يعدها من الحضارات السبع الاخرى التى اعترف بها.

وأقول لرئيس الوزراء تونى بلير: أدرك صدق نواياك، وانك تعتقد أنه لو نجحت انت وبوش في التقاط وجمع وحبس وقهر كل الارهابيين- فى العالم- على تنوع توجهاتهم ستحافظ على الحضارة الغربية، ولكن- كما يقال فى الامثلة الانجليزية ان الطريق الى جهنم مفروش بالنيات الطيبة. إن وزارة الخارجية البريطانية- ومنذ زمن بعيد- تضم خبراء ودبلوماسيين- بل حكماء - قادرين على اعطائك المشورة والنصيحة المناسبة فى الوقت المناسب، لاننى على يقين ان حواراً خاصاً بينك وبين بوش، قد يكون نقطة البداية لعالم جديد يتشكل بعد هذه الحرب ومن نهايتها والتى يحسن ان تكون سريعة وفى تقهقر يحافظ على كرامة الدول الكبرى وذلك خلال سنوات مقبلة لميثاق امم متحدة مختلف، ومجلس أمن ثقافى يراقب نمو «الكراهية» بين شعوب العالم. فكل ما يصرف الآن من بلايين فى الحرب سيكون «خميرة» لمشروع «مارشال» جديد، يبدأ مع أو قبل - نهاية هذه الحرب ضد الارهاب الدولى والتى لا أرى طائلاً منها. فالعالم لابد له من حضارات عدة تتنافس وتتعايش من أجل خير البشرية فى رؤية جديدة لعالم جديد. ■■

7

الحوار الناجح يبدأ من الداخل قبل الخارج

«كلما جاء الشهر الكريم أحاول أن يكون المقال متضمنا فكرا دينيا يحمل حكمة واستنارة، ولم أجد صعوبة هذا العام، فالكل مشغول بالحرب ضد «الإرهاب» ووسط الكراهية العالمية وظلام الحقد، كانت الجمهورية الاسلامية الايرانية قد بادرت بدعوة للأمم المتحدة، ليكون ٢٠٠١ هو «عام الحوار بين الحضارات» وفى إطار ذلك كتبت دعوة من خلال مقالى بالأهرام يوم الثلاثاء ٢٠٠١/١٠/٢٣ بعنوان «المعتدلون فى الأديان الابراهيمية يتحالفون لقبول الآخر» وكان ان تفضل د.عبدالعزيز بن عثمان التويجرى المدير العام للمنظمة الاسلامية للتربية والعلوم بالاستجابة لهذا الاقتراح والتعقيب القيم فى مقال بأهرام الجمعة ٢٠٠١/١١/٢ بعنوان «الحوار قوة دفع لبناء الاسلام». ثم كانت دعوة السفير عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية لحكماء ومفكرى العالم العربى لاجتماع تأسيسى لهم يعقد بالقاهرة يومى ٢٦، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١ لتدارس خطط عملية تهدف لبناء جسور ثقافية بين حضارتنا العربية - الاسلامية وكل الحضارات الأخرى وفى مقدمتها مراكز صناعة الوجدان فى أوروبا الغربية وأمريكا لإزالة الالتباس بين الاسلام والارهاب.

فى هذا المناخ المشحون بزحمة «الحوارات»، رأيت ان استعرض ما جاء فى اعلان طهران ثم لمبدأ أراه منسيا وجديرا بالنظر وهو أن: الحوار الناجح يبدأ من الداخل قبل الخارج.»

■■ عقد ممثلو رؤساء حكومات الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى ندوة لمناقشة إمكانية تقديم بديل لما قدمه المفكر الأمريكى لنظرية «صدام الحضارات» عقدت الندوة من ٣ إلى ٥ مايو ١٩٩٩ بمدينة طهران وقت أن كانت لها رئاسة منظمة المؤتمر الاسلامى، أى أن المبادرة الإيرانية جاءت قبل احداث

سبتمبر ٢٠٠١ بما يزيد عن عامين وصدر عن هذه الندوة ما صار يعرف «بإعلان طهران» ولولا أن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد اشارت إلى هذا الاعلان عند إقرارها لأن يكون عام ٢٠٠١ مخصصًا للحوار بين الحضارات، ما كنا قد سمعنا أو عرفنا نصوص هذا الاعلان المتميز والذى يجسد التطور الفكرى الرائع الذى تبناه الرئيس محمد خاتمى، ويبدو ذلك جليًا فى اختيار المفاهيم المدعمة بنصوص قرآنية، لقيت قبولاً بين معظم ممثلى الدول في الجمعية العامة للأمم المتحدة فكان قرارها بالموافقة على ٢٠٠١ عام حوار الحضارات.

وأقتبس من مقال د.عبد العزيز التويجرى والذى اشرت إليه عبارتين نواتى دلالة هما:

- ان القيم التى يستند إليها الحوار بين الحضارات هى ذاتها قيم الحضارة العربية الإسلامية التى تعايش فى ظلها اتباع الديانات السماوية مسلمين ومسيحيين ويهودا، الذين أسهموا جميعًا كل من موقعه في بناء صرح هذه الحضارة.
- ان الحوار بين الحضارات لايستمد أهميته ولا يكتسب شرعية ولا يكون ذا جدوى وفائدة ومردودًا ملموسًا، ما لم يقم على اساس احترام الخصوصيات الثقافية مع الانفتاح على الآخر وقبول التعاون معه.. ولذلك فإن كل محاولة لتجاوز حق الجماعات الانسانية فى الحفاظ على خصوصيتها الثقافية، هو خروج على احكام القانون الدولى.. وهذا هو السبيل إلى قبول الآخر كما عبر عن ذلك د.ميلاد حنا في مقاله "القيم".

* * *

وفى اطار التعبير عن هذه الخصوصية الثقافية الاسلامية كما وردت فى اعلان طهران نورد فيما يلى القيم والمبادئ التى ينادى بها الإسلام مدعمة بالنص القرآنى الذى يؤكدها على النحو التالى:

- كرامة الإنسان: «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» الإسراء: ٧٠.

- المساواة: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عندالله أتقاكم إن الله عليم خبير» الحجرات: ١٣
- التسامح: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» الممتحنة: ٨.
- السلام: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» البقرة: ٢٠٨.
- العدل: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعًا بصيرًا» النساء: ٥٨.
- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الالباب» البقرة: ٢٦٩.
- الحوار والتفاهم المتبادل: «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» آل عمران: ٦١.
- العلاقات الانسانية: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون» الانعام: ١٠٨.
- المرونة واللين فى الخطاب: «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» طه: ٤٤.

* * *

ومن عجب ان اعلان طهران قد سجل فى بند ٨ فيما يتعلق بتطبيق الحوار بين الحضارات فى المجالات المتأزمة من العلاقات الدولية العبارة التالية:

القضاء على الارهاب الذى يهدد العالم بأسره فى كل أشكاله ومظاهره، وكذلك الجريمة المنظمة، والاتجار بالمخدرات من خلال التعاون على الصعيد العالمى بإسلوب جدى وشامل وخالٍ من أى تمييز.

إن هذه النصوص المعبرة عن هذه المفاهيم الاسلامية العظيمة مقبولة لدى أي انسان منصف وعادل ولكن الصعوبة تكمن في أن أهل الاختصاص وغيرهم من بعض المستشرقين غير المحبين للاسلام يعرفون أن هناك بعض الفرق المتشددة وذات الصوت العالي اساءت إلى الاسلام والمسلمين واستغل الصهاينة تلك المجموعات قليلة العدد واسعة التأثير في أنه توجد صلة بين الاسلام والارهاب، وعلى سبيل المثال، هناك هوة واسعة بين ما يقدمه عن الاسلام د.أحمد كمال أبو المجد، وهو أحد أبرز المجموعة التي اختارها مستر بيكو المبعوث الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة في ادارة حوار الحضارات عام ٢٠٠١ أقول ان ما يقدمه د.أحمد أبو المجد يختلف كثيراً عن الصورة التي قدمها اسامه بن لادن في تصريحاته في تليفزيون «الجزيرة» والتي اعطت للغرب صورة مختلفة تماماً تربط نفسها بعبارات الكفر والمشركين وصحة قتلهم ومن أجل ذلك طرحت عنوان مقال اليوم وهو «حاجتنا إلى حوار داخلي أولاً قبل ان نفتح حواراً مع الخارج» لانه إذا عمت المفاهيم الصحيحة والمقبولة بالفعل من أغلبية واسعة كان حوار الحضارات -في المرحلة المقبلة- أيسر وأكثر فائدة، سواء قام بذلك اليونسكو أو الأمم المتحدة أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم أو الأزهر الشريف، أو حكومات المؤتمر الاسلامي أو الجامعة العربية.

لقد دعاني د.كرم شلبي رئيس تحرير جريدة «صوت الأزهر» لمناقشة صريحة مع فضيلة الشيخ فوزي الزفزاف وكيل الأزهر -والمسئول مع د.علي السمان عن الحوار بين الاديان- فالمعروف أن هناك اتفاقا بين الازهر والفاتيكان منذ عام ١٩٩٤ للحوار بينهما، ولكن فاعلية وتأثير هذا الحوار على الرأى العام الغربي محدود للغاية لانه لا يدخل إلى العمق بل يعالج السطح ويقتصر غالبًا على الكلمات الطيبة التي ترضي الآخر وكان ذلك امراً مقبولاً في السابق أي قبل يوم الثلاثاء المفصلي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

لقد مرت مرحلة المجاملات التي لم توصل إلى نتيجة تذكر ومن هنا اهمية الاتفاق على اجراء حوار داخلي صريح، ولا بأس من ان يكون بعيداً عن اعين

الاعلام والنشر حتى لا يتدخل المزايدون وأراه امرًا أساسيًا وسابقًا لأى حوار مستقبلى مع الاديان الاخرى عمومًا ومع الغرب خصوصًا.

صحيح أن هناك اتفاقًا على وحدة النصوص وقدسيتها، ولكن عبر رحلة الحضارة الاسلامية الطويلة، كان هناك اجتهاد فى أمور الفقة وظهرت مذاهب متعددة، ومازال باب الاجتهاد مفتوحًا ومن ثم فإن الاوضاع العالمية الحالية فى حاجة إلى شخصيات دارسة متفهمة للتاريخ القديم ولكنها مدركة فى ذات الوقت التغيرات التى حدثت فى الفكر العالمى، ومن عينة د.حسين أحمد أمين أى تكون مدركة الاصلاح الدينى الذى تم فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر من خلال رموزه التاريخية مارتن لوثر عام ١٥١٧ وتبعه جون كالفن ثم كثيرون، فكانت البداية لعصر النهضة ثم الدخول فى مرحلة التقدم العلمى والمعرفى على انواعه وهو ما مكن الحضارة الغربية من الانطلاق للافاق الحالية، ولسنا فى ذلك مضطرين لاتباع ذات المسار الأوروبى، ولكننا بالتأكيد فى حاجة إلى حوار صريح داخلى وهو أمر حدث كثيرًا فى السابق.

في الأزهر الشريف وعلى اتساع العالم الاسلامى كله كان هناك اعلام التجديد والاجتهاد عبر تاريخ الحضارة الاسلامية، كان هناك عشرات وربما مئات ممن حاولوا مناقشة القضايا الدينية وتركوا بصمتهم -ان سلبا أو ايجابا- وهنا تختلف الرؤى والآراء - وربما كان اقربهم إلى عصرنا هو الشيخ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الشيخ على عبد الرازق وهناك الشيخ محمد عبده والذى كان صاحب الفضل فى ان ممارسة مظاهر الحداثة مثل البدلة الافرنجية ورباط العنق لا يمنع من الالتزام بتعاليم الدين وممارسة العبادات وقد ساند قاسم أمين فى انتصاره لقضايا تحرير المرأة وهناك جمال الدين الأفغانى وله آثارالتجديد فى أمور كثيرة فى كل البلاد الاسلامية، ويمكن النظر إلى رفاعة رافع الطهطاوى كداعية للنهضة لتأثره بإقامته فى باريس، وكان الامام محمد بن عبد الوهاب مصلحًا دينيًا عظيمًا فى وقته فقد حرر المسلمين من عادات وبدع دخيلة على الأسلام واعاد للإسلام نقاءه فى القرون الاولى ثم هناك ابن تيمية، أما ابن رشد فحوله خلاف ضخم وهائل، فكل من يريدون التحرر وسيادة العقل يستشهدون

بأحدى مقولاته فى كتابه الشهير، فصل المقال فيما بين الحكمة (أى الفلسفة) والشريعة من الاتصال ومات عام ١١٩٨ ويعتبره الغرب أول من اخرجهم من عالم الخرافات إلى دنيا العقل، وكذلك الامام الغزالى المتوفى عام ١١١١م أثناء الحرب الصليبية فكان ابا التصوف والروحانية والتمسك بالنص.

ومن هنا فإن تاريخ الحضارة العربية - الإسلامية طويل ونرى فيه من يدعو إلى العقل وانه لا سلطان على العقل، وفيه من يدعو ان لا اجتهاد مع النص والنقاء هو فى السلفية.

* * *

الحوار الداخلى مطلوب الآن مع الانفتاح على الغرب وستكون بداياته من خلال فريق اهل الفكر والحكمة المجتمعين بعد اسبوع بمبادرة عظيمة جاءت فى وقتها من السفير عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية، حيث سيجتمع نحو ٥٠ مفكراً وعالماً من اربعة اركان العالم العربى، ليرسموا معا خطة عمل لمناقشة الغرب فى صحيح الاسلام الذى يتفق مع معطيات العصر، وهو امر اراه عسيراً ما لم يتم الحوار أولاً فيما بين ابناء الحضارة العربية الاسلامية حول أى قيم سنتقدم للعالم الغربى، فهناك المتشدد الذى يخرج على الوسطية وهناك الملايين الذين يدعون للفكر المعتدل الوسطى حسبما قدم اعلان طهران وذكرنا بعض النماذج للقيم والمفاهيم فى هذا المقال.

تقول الامثال: -وكما ذكر لى فضيلة الشيخ الزفزاف- رب ضارة نافعة، فلقد جاءت احداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتهز العالم كله، وكان حتما ان تهز اهل الفكر فى العالم العربى الاسلامى فقد كان تائها بين حكومات منحازة للتيار المتشدد مثل افغانستان، فكان ما كان، ثم كانت ايران محسوبة كذلك على التيار المتشدد عام ١٩٧٩، ولكن الإمام محمد خاتمى وزير الثقافة قبل ان يصبح رئيساً للجمهورية قاد حملة اصلاح جعلت ايران مقبولة من الغرب، والتصور ان كل قطر عربى واسلامى فى حاجة لفتح حوار ثقافى واسع ينفض التراب عن الحضارة العربية الاسلامية والتى تراكمت فى قرون الجمود العثمانى، ليتجدد شباب الحضارة لتأخذ طريقها مع الحضارات الاخرى من أجل التنمية والتقدم وقبول التنوع ■■

الجزء الرابع

الوثائق

مقدمـــــة

عـــام ٢٠٠١ حـــوار الحضـــارات

منذ أن ظهرت عبارة "صدام الحضارات" فى البحث الذى قدمه صمويل هانتنجتون فى مجلة فورن افيرز فى صيف عام ١٩٩٣- كما هو معروف وكمـا سـبق الاشـارة إلى ذلك مـراراً فى هذا الكتـاب- انزعج المفكرون وتصـوروا أنه لو حـدث صـدام الحـضـارات بالفـعل كـمـا تصـور وتنبـأ هانتنجتون، فإنها تكون كارثة على العالم.

وتبارت الدول والمفكرون فى إيجاد البديل، وكان أكثر توفيقًا هو عبارة "حوار الحضـارات" وكانت المبادرة الأكثر حظا -إعلاميًا وعالميًا- من خـلال خطاب ألقاء الرئيس محمد خاتمى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، فوجدت العبارة قبولاً بين المستمعين من الدول الأعضـاء، وهكذا ظلت الأمـور تتطور إلى أن اتخـذت الأمم المتحدة قرارا بأن يكون عام ٢٠٠١ هو السنة الدولية لحوار الحضارات، ووجدت من المفيد للقارئ أن تتـوافر له المستندات الصادرة من الأمم المتحـدة فى هذا الشأن وهى تحتوى تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، ومرفق به المذكرة المقدمة من مسـتر بيكو والذى عينه الأمين العام ليكون ممثلاً له فى إدارة نشـاط عام ٢٠٠١ فى مجال حوار الحضارات.

ومن الوثائق الهـامـة أيضًـا اعـلان طهـران والذى صـدر من ممثلى الحكومـات الأعضـاء فى المؤتمر الاسلامى فى مايو ١٩٩٩، وقد أشار فيه هذا الاعلان إلى بعض القيم والمفاهيم رفيعة المستوى وحيث مرجعيتها لآيات قرآنية، لذلك وجدت من المفيد أن اسجل المفاهيم وبجوار كل منها النص القرآنى الممثل لمرجعية المفهوم والقيمة.

والله الموفق...

ميلاد حنا
٢٠ نوفمبر ٢٠٠١

سنة الأمم المتحدة
للحوار بين الحضارات 2001

الجلسات العامة للجمعية العامة للأمم المتحدة
فى دورتها السادسة والخمسين
نيويورك، 2001

القـــرار 22/53

الجمعية العامة تعلن سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات

إن الجمعية العامة،

■ **إذ تؤكد من جديد** المقاصد والمبادئ الواردة في ميثاق الأمم المتحدة، التى تدعو، في جملة أمور، إلى بذل جهد جماعى لتعزيز العلاقات الودية بين الأمم، وإزالة التهديدات للسلم، وتعزيز التعاون الدولى في حل القضايا الدولية ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والإنسانى، وفى تعزيز وتشجيع الاحترام العالمى لحقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع،

وإذ تسلم بتنوع المنجزات الحضارية للجنس البشرى، التى تبلور التعددية الثقافية والتنوع البشرى الخلاق،

وإذ تدرك أن التفاعل الإيجابى بثماره المشتركة بين الحضارات قد استمر على مر التاريخ الإنسانى رغم العقبات الناجمة عما نشب من تعصب ومنازعات وما اندلع من حروب،

وإذ تؤكد أهمية التسامح فى العلاقات الدولية والدور الهام الذى يؤديه الحوار كوسيلة لتحقيق التفاهم، وإزالة التهديدات للسلم، وتعزيز التفاعل والتبادل بين الحضارات،

وإذ تلاحظ تسمية عام 1995 "سنة الأمم المتحدة للتسامح"، وإذ تقر بأن التسامح واحترام التنوع يسهلان تعزيز حقوق الإنسان وحمايتها على نطاق العالم ويشكلان أساسا سليما للمجتمع المدنى، والوئام الاجتماعى،

وإذ تؤكد من جديد أن المنجزات الحضارية تشكل التراث الجماعى للجنس البشرى، وأنها توفر مصدراً للإلهام والتقدم للبشرية جمعاء،

وإذ ترحب بالجهد الجماعى الذى يبذله المجتمع الدولى لتعزيز التفاهم عن طريق الحوار البناء بين الحضارات ونحن على أعتاب الألفية الثالثة،

١- **تعرب** عن عزمها الوطيد على تيسير الحوار بين الحضارات وتشجيعه؛

٢- **تقرر** أن تعلن سنة ٢٠٠١ "سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات"؛

٣- **تدعو** الحكومات ومنظومة الأمم المتحدة، بما فيها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة وغيرها من المنظمات الدولية وغير الحكومية ذات الصلة، إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، بوسائل من بينها تنظيم المؤتمرات والحلقات الدراسية، ونشر المعلومات والمواد الأكاديمية بشأن الموضوع، وإلى إبلاغ الأمين العام بما تقوم به من أنشطة؛

٤- تطلب إلى الأمين العام أن يقدم إلى الجمعية العامة فى دورتها الرابعة والخمسين تقريراً مؤقتًا عن الأنشطة المضطلع بها فى هذا الصدد، وأن يقدم إليها تقريراً نهائيًا فى دورتها الخامسة والخمسين.

الجلسة العامة ٥٣
٤ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٩٨
٤ نوفمبر ١٩٩٨



١- معنى الحوار بين الحضارات

ستجتمع الجمعية العامة للأمم المتحدة فى جلسات عامة يومى ٣، ٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ للاحتفال بالذكرى السنوية لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات ٢٠٠١، والنظر فى إجراءات المتابعة.

ماذا يعنى الحوار بين الحضارات؟ يمكن للمرء أن يقول إن هناك فى العالم فئتين من الحضارات- فئة تظن أن التنوع خطر، والفئة الأخرى ترى أنه فرصة وعنصر أساسى من عناصر النمو، وإن سنة الحوار بين الحضارات تدفعنا إلى إعادة التفكير فى التنوع والسعى إلى إقامة نظام جديد للعلاقات قائم على الاندماج. لذلك فإن هدف السنة هو تعزيز إقامة حوار يكون واقيًا من الصراعات -كلما أمكن ذلك- وقائمًا بطبيعته على الشمول.

ولتحقيق ذلك، وجهت الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٩٨، دعوة إلى الحكومات ومنظومة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية وغير الحكومية ذات الصلة إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات.

وفى قرار اعتمد فى ١٣ تشرين الثانى/ نوفمبر ٢٠٠٠، قررت الجمعية العامة أن تخصص يومين من الجلسات العامة فى دورتها السادسة والخمسين، هما ٣، ٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ للاحتفال بسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات والنظر فى أى إجراءات للمتابعة. كما شجعت الجمعية العامة الدول الأعضاء والجهات التى لها مركز المراقب على أن يكون تمثيلها فى هذه الجلسات على أعلى مستوى سياسى ممكن.

٢- فكرة "الحوار بين الحضارات" متأصلة فى القيم الأساسية للأمم المتحدة.
رسالة من كوفى عنان، الأمين العام للأمم المتحدة

لقد أنشئت الأمم المتحدة ذاتها من منطلق الإيمان بأن الحوار يمكن أن ينتصر على التنافر، وأن التنوع هو فضيلة عالمية، وأن شعوب العالم أكثر اتحاداً بمصيرها المشترك من أن تكون مقسمة بهوياتها المتفرقة.

إن بإمكان الأمم المتحدة -فى أحسن حالاتها- أن تكون الموطن الحقيقى للحوار بين الحضارات: وهى المنتدى الذى يمكن أن يزدهر فيه هذا الحوار ويؤتى ثماره فى كل ميدان من ميادين سعى البشر. وما لم يجر هذا الحوار كل يوم بين جميع الأمم -داخل الحضارات والثقافات والجماعات وفيما بينها- فإن السلام لا يمكن أن يكون دائمًا أو الازدهار مؤكداً، وهذا هو الدرس المستفاد من نصف القرن الأول من عمر الأمم المتحدة، وهو درس نخاطر بتجاهله.

وما ينبغى أن يعلمنا هذا التاريخ أيضًا هو أنه، إلى جانب التنوع اللامتناهى للثقافات، توجد بالتأكيد حضارة عالمية واحدة قائمة على القيم المشتركة للتسامح والحرية. وهى حضارة يدل تعريفها على تسامحها مع الرأى الآخر، وترحيبها بالتنوع الثقافى، تقول رأيها فى الطريقة التى تحكم بها، وهى حضارة تقوم على الإيمان بأن تنوع

الثقافات البشرية أمر مرغوب فيه، ولا خوف منه، والحقيقة أن كثيراً من الحروب تنشأ من خوف الناس من الآخرين الذين يختلفون عنهم، ولا يمكن التغلب على هذه المخاوف إلا من خلال الحوار.

وهكذا فإن التنوع هو في أن واحد أساس للحوار بين الحضارات، كما أنه الحقيقة التي تجعل الحوار ضرورياً، وهذه هي الحضارة العالمية التي ندعى إلى الدفاع عنها وتشجيعها ونحن على أبواب قرن جديد.

ولابد لنا لتحقيق ذلك بنجاح، من أن نكون قادرين على الاهتمام بتشجيع الحوار دون إيجاد حدود جديدة، والنهوض بالتعاون دون إعاقة التكامل. ولماذا أقول هذا؟ لأن هناك خطراً بأن تجرى مناقشة مسألة الحوار بين الحضارات في حد ذاتها، بطريقة تعزز بالفعل وجود الحواجز في طريق الحوار، بدلاً من تذليلها.

وأود بصورة خاصة، أن أنبه كلا منا كي يتذكر أن هذه المصطلحات -الحضارات، الثقافات- ليست حقائق تاريخية ثابتة أو غير قابلة للتغيير، بل هي أشبه بكائنات حية في حالة تقلب مستمر -فهي دوما تتغير وتنمو وتتطور وتكيف نفسها مع الأزمنة الحديثة والحقائق الجديدة من خلال التفاعل فيما بينها. كما أنها لا تتفق بالضرورة مع أي معتقد ديني معين. فمن المبالغة الجسيمة في التبسيط أن نتكلم عن حضارة مسيحية أو إسلامية أو بوذية، لأن ذلك لن يؤدى إلا إلى إيجاد حدود لا يريدها أحد.

إن مثل هذه التعميمات المطلقة -إذا حدث أن صحت- لا تستطيع أن تصمد أمام اختبار الأزمنة الحديثة، حيث يؤدى التكامل والهجرة والعولمة إلى توثيق الاتصال بين مختلف الأعراق والثقافات والإثنيات أكثر من أى وقت مضى. ونستطيع أن نرى ذلك في أنحاء متعددة من العالم. وبالفعل. فإن القلة هي التي تستطيع اليوم أن تدعى انتماءها حصراً إلى حضارة واحدة، بل إننا نفهم أكثر من أى وقت مضى أننا نتاج لحضارات ودوافع عديدة، وأن مواطن قوتنا تكمن في الجمع بين ما هو مألوف وما هو غريب؛ وأن البحث عن حضارة مقصورة على جماعة معينة ومنطوية على الذات مصيره الفشل.

ولا يعنى هذا أننا لا نستطيع بحق أن نفخر بعقيدتنا أو تراثنا المتميز، إننا نستطيع أن نفعل ذلك ويجب علينا أن نفعله، لكن الفكرة القائلة إن ما لدينا يتعارض بالضرورة مع ما لدى لغيرنا هي فكرة زائفه وخطيرة في آن معا. وخلافا لما يراه البعض، نستطيع أن نحب أنفسنا دون أن نكره غيرنا.

فبأى معنى، إذن، يكون الحوار بين الحضارات مفهوماً مفيداً؟ إنه رد مناسب وضرورى على فكرة حتمية التصادم بين الحضارات، وهو بذلك يوفر سياقاً مفيداً لتقديم التعاون على الصراع.

ثانياً: إنه يساعدنا على الاستقاء من الجذور القديمة للثقافات والحضارات كي نجد ما يوحدنا عبر جميع الحدود، ويدلنا على أن الماضي يمكن أن يوفر لنا معالم الطريق إلى الوحدة بنفس السهولة التي يمهد لنا طريق العداوة.

ثالثاً: وأهم من هذا وذاك، يستطيع الحوار أن يساعدنا على تمييز دور الثقافة والحضارة في الصراعات المعاصرة، فنميز الدعاية والتاريخ الكاذب عن الأسباب الحقيقية للحرب، وينبغي لهذا بدوره أن ييسر لنا السبيل إلى السلام.

وقد حدث في الأونة الأخيرة أن أمراء الحرب والزعماء الذين يميلون إلى العدوان والعنف كثيراً ما كانوا يشجعون أتباعهم على التعاطف مع ضحايا القطاعات الماضية، والثأر من الجماعات الأخرى التي تتعاطف مع المعتدين المزعومين في تلك الصراعات السابقة أو على حماية أنفسهم منهم. وهم يفعلون ذلك غالباً بدعوى أن تلك الجماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة لا تقبل المصالحة.

ولم يقتصر ما كان لذلك من أثر على تحريف التاريخ واستعماله لأحط الأغراض فحسب، بل أدى كذلك إلى حجب المظالم الفعلية التي تكمن في جذور الصراعات والتي لابد من معالجتها إذا كان لابد من حلها.

وقد قدمت لنا دول البلقان خلال العقد الماضي أمثلة قاتمة وفاجعة لاستعمال التاريخ وإساءة استعماله في تعميق الانقسام والصراع، فما كان يمكن تسميته بالحوار بين الحضارات الذى جرى لعدة قرون هناك أصابه التدمير العنيف، وفجأة أصبح يُشار إلى مسلمي البوسنة بأنهم "أتراك" وأصبح اضطهادهم مبرراً بالأفعال المزعومة

لأسلافهم المزعومين قبل ٥٠٠ سنة، وفي هذه الحالة، كان بإمكان وجود تفهُّم أفضل للتاريخ والثقافة والديانة أن يساعد على الانتقال من الشيوعية إلى الديمقراطية، كما كان يمكن معالجة المسائل الجوهرية للحقوق والمسؤوليات في بيئة تعددية قائمة على الاحترام المتبادل.

وفي الصراع في الشرق الأوسط، تحولت قضايا الأرض والوطن والملكية التي هي عسيرة أصلاً إلى قضايا أكثر تعقيداً وعسراً من جراء الخلافات الدينية التي تتركز على أرض مقدسة لدى ديانات ثلاث. وما كان في الأساس صراعًا بين الدول أصبح مهدداً بأن يتحول إلى صراع ديني كذلك، وفي هذه الحالة يستطيع الحوار الصادق البناء أن يساعد على فصل ما يدعى بالمسائل الحضارية والدينية عن المسائل السياسية والإقليمية ويوفر طريقًا إلى الحل الذي يحترم في نهاية المطاف جميع الأديان بتفضيل السلام العادل على الحرب التي لا نهاية لها.

ففي كلتا هاتين الحالتين -البلقان والشرق الأوسط- مازال بإمكان الحوار الصادق، بين الثقافات والأديان، وبين الآراء بشأن الصواب والخطأ، والعدالة والضرورة، أن يساعد القادة على استجلاء طريقهم إلى السلام، ولا أريد أن أوحي بأنه لا توجد على المحك مسائل عويصة وحقيقية تتعلق بالحق في تقرير المصير، والأمن، والكرامة.

إن الكلمات المجردة لن تحل هذه المسائل، لكن حوار الأقوال والأفعال -أي الإجراءات المتخذة من الطرفين على أساس الاحترام والتقدير الصادق لآلام الطرف الآخر- هو الذي يستطيع أن يغير الحال، وأنا واثق من ذلك، وينبغي أن لا ننتظر حتى نصبح في حمأة الصراع قبل البدء بهذا النوع من الحوار. بل ينبغي أن نشرع به كلما وحيثما سنحت لنا الفرصة -وسيكون ذلك أيسر في الغالب بعيداً عن ساحة المعركة.

<u>مقتبسة بتصرف من الخطاب الذي ألقاه الأمين العام كوفي عنان في كلية الدبلوماسية والعلاقات الدولية في جامعة ستيون هول في ساوث أورانج، نيو جيرسي، يوم ٥ شباط/فبراير ٢٠٠١.</u>

٢- الحوار بين الحضارات ليس مجرد أمنيات

<u>خطاب من الممثل الشخصي للأمين العام لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، السيد غياندو مينكو بيكو.</u>

قد تبدو فكرة الحوار بين الحضارات، عند الكثير مجرد تمني، وكمثل أعلى لا يدرك، سيقول معظم الناس، كما قيل لي في عدة مناسبات، لا يمكن أن يتحقق الحوار لأنه لم يكن أبداً من قبل. وواقع الأمر أن هناك ثقافات مؤسسية تقوم بكاملها على تصور أننا غير قادرين على إنجاز ما لم يتحقق من قبل، ومع أن الثقافات ما برحت مترابطة دوما بطريقة أو بالأخرى، لا يزال الكثير من الأفراد والجماعات يوحون للشباب الخوف من "الآخرين" الذي يأتي من الماضي الملئ بالتحيز وسوء التفاهم والفشل.

ومع هذا، فإن اكتشاف شئ جديد، لا نعلم حتى بوجوده، هو ما يشكل تمامًا أساس عمل العلماء والباحثين، فعندما كنت يافعا، وكان من هم أعقل مني وأكبر سنا ينصحونني بعدم الخوض في مغامرات لم يخضها أحد من قبلي. لم أكن لأفهم ذلك، لأن تلك التحديات كانت تبدو لي أشد الأشياء جاذبية، وهكذا استفتيت قلبي بل أعتقد أنني أنجزت ما لم يتحقق من قبل. فإذا كان للعالم أن يواصل كشفه لخبايا المجهول فلم إذن أمنع أنا من ذلك؟ وهكذا، أعتقد أن أرواحًا كثيرة أنقذت وأن حياتي أصبحت ذات مغزى على الأقل.

في الكثير من الأحيان يزرع الكبار في الشباب شيئًا من الشك يخفيه الكبار تحت ستار التظاهر بالحنكة، فلربما ليس من الواقعية في شئ أن نتواصل مع الشباب بتلك الطريقة، ورب شئ سميناه تجربة كان مجرد مثال على فشلنا، لذا لست بقائل للجيل الجديد أن يكفوا عن خوض مغامرات جديدة، ولا بمثنيهم عن تحقيق ما لم يتحقق بعد، ولا بمحرضهم على التخلي عن تطلعاتهم وأحلامهم.

وحتى لو اتضح أن الحوار بين الحضارات أمر محال في جيلنا، ربما لن يكون الأمر كذلك بالنسبة للجيل المقبل أو الجيل الذي بعده، لذا يبدو لي أن رحلة الحوار تبدأ بمشاركة كل منا الآن.

وليس بوسع المرء بتاتا أن يسعى إلى تحقيق الطموحات والأهداف المتمثلة فى إجراء حوار بين الحضارات دون أن يؤمن بقوة الروح البشرية وقدرتها على تجاوز الحواجز، وتخطي الحدود والعقبات التى قد تكون عمرت لقرون من الزمن. الحوار قبل كل شئ استعداد يرى فى التنوع عنصراً للتحسن والتطور، متجاوزاً بالتالى النمط القديم الذى يرى فى التنوع تهديداً، بل ربما أسوأ من ذلك يعده مرادف "العدو".

لا شك أن للحوار بين الحضارات عدة معان، ولذلك قد يكون من الأجدى التركيز على معنى واحد إن شئنا عدم التيه في غموض حديث لا نهاية له ولا طائل منه، فإذا كان حوارنا يركز على تغيير الاستعداد الذى يرى فى التنوع تهديداً، قد يكون هدفه الجوهرى وضع نمط جديد من العلاقات الخارجية القائمة على هذا إحداث هذا التغيير.

ولعمرى هذا هو الهدف الطموح الذى رسمه لنفسه فريق الشخصيات البارزة الذى أنشأه الأمين العام.

وقد يشمل النمط الجديد العناصر التالية:

- إعادة النظر فى تقييم مفهوم "العدو" فهل لنا أن نتطلع إلى زعماء يقودون بدون أعداء؟
- إنشاء تجمعات تقوم على القضايا بدلاً من تحالفات أساسها آيديولوچى (فحتى الأخيار من الأصدقاء قد يتفقون على بعض القضايا ويختلفون فى أخرى).
- ينبغى أن يسلم هذا النمط بمفهوم يقضى بوجود ذوى مصلحة فى عالم مترابط بدلاً من وجود قوى عظمى أو قوى متوسطة (منذ قرن مضى كان بوسع القوى الكبرى أن تؤثر بسهولة فى البلدان الضعيفة، أما اليوم فحتى البلدان الصغيرة بوسعها أن تمس بالقوى العظمى كما رأينا ذلك فى القطاع المالى ناهيك عن الإرهاب).
- وختاماً ينبغى أن يكون نمطاً يقوم أساساً على اتخاذ قرارات جماعية ولكنه ينبنى أيضاً على تحمل المسؤولية بصورة فردية، فقد غابت مسؤولية الفرد عن الأطر المؤسسية والقانونية للنظام الدولى، وقد يقول البعض إذا لم نتحمل المسؤولية كأفراد سيكون الالتزام بالقرارات الجماعية ضعيفاً جداً فى الواقع.

ليس الحوار عبر الحواجز اكتشافاً جديداً، فزيادة على تبادل الكلمات والنوايا الحسنة، يبدو الحوار أكثر نجاحاً عندما يقوم الأفراد "ببناء شئ ما معاً" متخطين الحواجز، فبناء شئ ما معا هو فى نهاية المطاف الشكل الحقيقى للحوار، وعندما نبنى شيئاً مشتركاً فإننا نوظف مواهبنا المختلفة لتحقيق هدف مشترك. وإذا كانت مصلحتنا فى إنجاز مهمة مشتركة، فإن لنا فى بناء مستقبل مشترك مصلحة، أنا أتكلم عن تشييد صروح مادية أو المساهمة فى مشاريع مشتركة وفى بناء المؤسسات، والبناء يستغرق وقتاً ويستلزم قوة وعزماً وشجاعة وحكمة، وإذا كان الحديث عن أهمية تشييد الصروح المادية عبر الحواجز حديثاً طويلاً، فمن الواضح أن إعداد البرامج الدراسية وتوجيد الصفوف لمكافحة الأمراض والتصدى للكوارث الطبيعية المشتركة أمر على الجانب ذاته من الأهمية.

قد يؤدى البناء عبر الحواجز فى نهاية المطاف إلى قهر غطرسة القوة، التى ما لبثت تشكل السبب الأساسى للتدهور الحاصل فى المجتمعين المحلى والدولى، وبالإضافة إلى الاحترام والتسامح وقبول الآخر ثقافياً وفكرياً، فإن البناء عبر الحواجز يضفى على الحوار طابع الاستمرارية.

إن الحوار بين الحضارات كما يراه الأمين العام وأراه هو بالتالى حوار بين الذين يرون التنوع تهديداً والذين يرون فيه خطوة نحو التحسن والتطور، وإذا كان هناك من مهارة علينا جميعاً صقلها وتعلمها بشكل أفضل وأفضل فهى كيفية التعامل مع التنوع.

يشغل غياندو مينكو بيكو، وكيل الأمين العام للأمم المتحدة، منصب الممثل الشخصى للأمين العام لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات. وهو أيضاً الرئيس التنفيذى لشركة چى دى بى أسوشيتس فى مدينة نيويورك، ورئيس مشروع الاستراتيچيات غير الحكومية للسلام فى چنيف، بسويسرا.

وكان مشوار السيد بيكو في الأمم المتحدة متميزاً خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٢، حيث عمل مؤخراً كأمين عام مساعد للشؤون السياسية، ومن إنجازاته البارزة ما بذلته الأمم المتحدة من جهود أدت إلى إطلاق سراح الرهائن الغربيين في لبنان والمفاوضات التي أفضت إلى وقف إطلاق النار بين إيران والعراق، ومثل الأمين العام في المفاوضات التي جرت بشأن اتفاقات جنيف (١٩٩٨) المتعلقة بأفغانستان وفي التحكيم بشأن قضية سفينة رينبو ووريز (Rainbow Warrior)

وبعدما غادر السيد بيكو الأمم المتحدة، نال العديد من الجوائز والشهادات التقديرية، منها جائزة الرئيس الخاصة للخدمات المتميزة من الولايات المتحدة، ووسام الصليب الأعظم من درجة الاستحقاق من جمهورية ألمانيا الاتحادية، ووشاح الأرز الوطني من رئيس جمهورية لبنان، وغير ذلك، وقد صدرت روايته الشخصية لقضية الرهائن في لبنان في كتاب بعنوان "رجل بدون سلاح".

٤- فريق الشخصيات البارزة

يقوم فريق من الشخصيات البارزة يختاره الأمين العام بالعمل مع الممثل الخاص للأمين العام، السيد غياندو مينكو بيكو، من أجل اعداد كتاب عن الحوار بين الحضارات كمنهجية لتيسير نمط جديد للعلاقات الدولية، وسيقدم هذا الكتاب إلى الأمين العام في خريف عام ٢٠٠١.

وتقدم كلية الدبلوماسية والعلاقات الدولية في جامعة سيتون هول في نيوجيرسي، الولايات المتحدة الأمريكية، خدمات الأمانة لعمل الشخصيات البارزة.

(للاطلاع على موجز الكتب، أنظر الصفحة ....)

وفي ما يلي قائمة الشخصيات البارزة المشاركة في هذا المشروع:

- **الدكتور أحمد كمال أبو المجد**

أستاذ القانون العام بجامعة القاهرة، وقاضي المحكمة الإدارية للبنك الدولي.

- **الدكتورة لورديس أريسبه**

أستاذة الأنثروبولوجيا بجامعة المكسيك الوطنية المستقلة ومدير عام مساعد لشؤون الثقافة سابقاً في اليونسكو.

- **الدكتورة حنان عشراوي**

المتحدثة باسم جامعة الدول العربية، والأمين العام للمبادرة الفلسطينية لتعزيز الحوار العالمي والديمقراطية.

- **الدكتورة روث كاردوسو**

سيدة البرازيل الأولى، ورئيسة مؤسسة تضامن المجتمعات المحلية وعضو في مجلس مؤسسة الأمم المتحدة.

- **الأونرابل جاك دولور**

رئيس مجموعة الدراسات والأبحاث بمؤسسة قارتنا الأوروبية ورئيس سابق للجنة الأوروبية.

- **الدكتورة ليسلي غيلب**

رئيسة مجلس العلاقات الخارجية

- **نادين غوردمير**

مؤلفة وحائزة على جائزة نوبل للآداب

- **صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال**

مؤسس ومدير الوكالة الهاشمية للمساعدة والإغاثة، ومركز تطوير التعليم، ومعهد الدبلوماسية، ورئيس نادي روما.

- **الأستاذ سيرغي كابيتسا**

معهد كابيتسا للمشاكل الفيزيائية، الأكاديمية الروسية للعلوم، وأستاذ الفيزياء في معهد موسكو للفيزياء والتكنولوجيا.

- **الأستاذ هايلو كاواي**

أستاذ علم النفس السريري في جامعة كيوتو بانكيو

- **الأستاذ تومي كوه**

سفير متجول بوزارة خارجية سنغافورة، ومدير معهد الدراسات السياسية.

- **الأستاذ الدكتور هانس كونغ**

أستاذ علم اللاهوت الكوني، جامعة توبينغن، ورئيس مؤسسة الأخلاقيات العالمية (ويليثوس)

- **الدكتورة غراتشا ماشيل**

رئيسة مؤسسة تنمية الجماعات المحلية، وعضو مجلس مؤسسة الأمم المتحدة، ورئيسة دراسة الأمم المتحدة حول تأثير النزاعات المسلحة على الأطفال.

- **الأستاذ أمارتيا سين**

أستاذ الاقتصاد في كلية ترينيتي، كامبريدج. وحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد.

- **الدكتور سونغ جيان**

نائب رئيس المؤتمر الاستشاري السياسي الشعبي الصيني، ورئيس الأكاديمية الصينية للهندسة.

- **السيد ديك سبرينغ**

عضو في البرلمان الأيرلندي ونائب رئيس الوزراء سابقًا.

- **الأستاذ تو ويمينغ**

مدير معهد ينشينغ وأستاذ تاريخ الصين والفلسفة الصينية والدراسات الكونفوشية في جامعة هارفارد.

- **ريتشارد فون فيزاكير**

رئيس سابق لجمهورية ألمانيا الاتحادية

- الدكتور جواد ظريف

أستاذ القانون الدولي في جامعة طهران ونائب وزير الخارجية

٥- الحوار بين الحضارات

هذا موجز لكتاب فريق الشخصيات البارزة الذي عينه الأمين العام بمناسبة سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.

● **الوحدة والتنوع**

وحدتنا راسخة في مورّثاتنا، وتنوعنا حتمية طبيعية، ولا شك أن البشر أمة واحدة يجمعها رباط شامل عبر سلالة عريقة لكنها مع ذلك واحدة، ومن غريب الأمور، أن العلماء أيضاً اكتشفوا مؤخراً أن عدد المورثات البشرية قليل بشكل مدهش، وبالتالي رغم كون مظاهرنا الخارجية تجسيداً لاختلافنا، فدرجات الاختلاف بين البشر قليلة في الواقع.

● **سياق الحوار: لماذا الحوار ولم الآن؟**

قد يكون هذا العصر حقاً عصر العولمة لكنه أيضاً زمن العودة لاكتشاف هوية الفرد، وإذا كان اكتشاف الفردية يفضي إلى إدراك نزعة التفرد، فإن العولمة أيضاً توسع إدراكنا لأوجه اختلافنا، ونتيجة لذلك، يشكل هذان الاتجاهان المتناقضان، العومة والتنوع، وجهين لواقعنا الراهن.

في الماضي، كان تصور التنوع كتهديد ولايزال في بعض الحالات السبب الجوهري لاندلاع الحروب، فالتطهير العرقي والصراع المسلح أو ما يدعى بالمواجهات الدينية أمور تقوم كلها على تصور التنوع كتهديد، وبتذكر الأعمال الوحشية التي ارتكبت في العقد الماضي، يبدو من السهل بل من الجلي الجواب عن السؤال "لماذا نحتاج إلى الحوار" لكن يظل بقية السؤال "لم الآن؟".

قد تزيد عملية العولمة بدون حوار من احتمال التسلط، وقد تورث الدعوة إلى التنوع بدون حوار المزيد من الانتقائية، وبالتالي يبدو أن الحوار بين الذين يرون التنوع تهديداً والذين يرونه وسيلة للتحسن والتطور ضرورة حقيقية.

الهدف من الحوار كأداة للتعامل مع التنوع:
نحو نمط جديد من العلاقات العالمية

هل بوسعنا أن ننتقل من نمط الإقصاء، الذي يقوم على تصور التنوع كتهديد، إلى نمط الاندماج الذي ينبني على اعتبار التنوع عنصراً من عناصر التحسن والنمو؟

وقد يكون بعض بذور النمط الجديد متجلياً فعلاً في عالمنا اليوم، من هذه البذور ما يلي:

[١] المساواة «المشاركة التامة في صنع القرارات».
[٢] إعادة النظر في تقييم مفهوم العدو «تجاوز الحكم بسبب وجود عدو».
[٣] توزيع السلطة «لا احتكار للسلطة بعد الآن».
[٤] مسئولية الفرد في العلاقات الدولية.
[٥] الاهتمام والمشاركة «في مستقبل الكوكب».
[٦] تجمعات قائمة على المواضيع.

يبدو أن الحوار ضروري لتعزيز هذه العناصر الستة وبالتالي إيجاد نمط جديد من العلاقات العالمية.

نظرة مختلفة إلى الأمم المتحدة

قد يكون الحوار وسيلة للنظر إلى الأمم المتحدة من زاوية مختلفة، فقد تشكل بعالميتها وجمعها بين كل متنوع منتدى خصباً يكتمل فيه بنجاح عقد اجتماعي عالمي، وسيجمع هذاالعقد بين الذين يسعون إلى "المشاركة" في عملية صنع القرار والذين يحتاجون إلى إضفاء "الشرعية" على أعمالهم، وهكذا، يمكن أن تكون "المشاركة" و"الشرعية" في نهاية المطاف بمثابة العنصرين الرئيسيين في ذلك العقد الاجتماعي.

وختاماً، ولكي يكون الحوار ناجحاً ربما احتجنا إلى "أخلاقيات عالمية" جديدة

"لا غنى عن الحوار بين الذين ينظرون إلى التنوع على أنه تهديد والذين ينظرون إليه على أنه أداة نحو مستويات أفضل وأوسع آفاقا". ■■

الأمـــم المتحـــدة
الجمعية العامة

الدورة الرابعة والخمسون
البند ٢٤ من القائمة الأولية

الحـــوار بيـن الحضـــارات

رسالة مؤرخة ٢٥ أيار/ مايو ١٩٩٩ موجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية لدى الأمم المتحدة

أتشرف بأن أحيل طيه نص إعلان طهران بشأن الحوار بين الحضارات الصادر عن الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، التي عقدت في طهران في الفترة من ٣ إلى ٥ أيار/ مايو ١٩٩٩ (انظر المرفق).

وسأغدو ممتنا لو تكرمتم بتعميم هذا الإعلان بوصفه وثيقة من وثائق الجمعية العامة في إطار البند ٢٤ من القائمة الأولية.

"توقيع" هادي نجاد حسينيان
السفيـــر
الممثل الدائم

إعلان طهران بشأن الحوار بين الحضارات الصادر عن الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات التي عقدت في طهران في الفترة من ٣ إلى ٥ أيار/ مايو ١٩٩٩

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه

وبعد، فإن ممثلي رؤساء دول وحكومات الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، المشاركين في الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، المعقودة في طهران بالجمهورية الإسلامية الإيرانية في الفترة من ١٧ إلى ١٩ محرم ١٤٢٠هـ الموافق ٣ إلى ٥ أيار/ مايو ١٩٩٩م.

إذ يستذكرون القرارات والبيانات ذات العلاقة الصادرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي، وخاصة الفقرات ذات الصلة التي وردت في إعلان طهران الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثامن.

وإذ يستذكرون كذلك قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٥٣/ ٢٢ الخاص بإعلان عام ٢٠٠١ سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.

واسترشادا بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وقيمه النبيلة بشأن كرامة الإنسان[1]، والمساواة[2]، والتسامح[3]، والسلام[4]، والعدالة[5] بين البشر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[6].

وانطلاقا من مبادىء الإسلام الخاصة بتنوع البشر[7]، والاعتراف بتنوع مصادر المعرفة[8]، وتشجيع الحوار والتفاهم المتبادل[9]، والاحترام الصادق المتبادل في العلاقات الإنسانية[10]، وتشجيع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة[11]، والمرونة واللين في الخطاب[12].

وإذ يؤكدون مجددا التزام حكوماتهم بتعزيز الحوار والتفاهم بين الثقافات والحضارات المتعددة سعيا لتحقيق توافق عالمي في الآراء لإقامة نظام جديد في الألفية القادمة على أساس من الإيمان والقيم المعنوية والأخلاقية المشتركة بين الحضارات المعاصرة.

وإذ يعربون عن عميق تقديرهم للمبادرة التي أطلقها فخامة الرئيس سيد محمد خاتمي، رئيس مؤتمر القمة الإسلامي الثامن، حول إعلان سنة ٢٠٠١م لتكون سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات وحول عقد ندوة إسلامية للحوار بين الحضارات كخطوة أولى في تنسيق جهود منظمة المؤتمر الإسلامي للشروع في الحوار مع الحضارات المعاصرة.

وإذ يقدرون الجهود التي يبذلها الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا الشأن: وإذ استعرضوا بارتياح تقريره حول هذا الموضوع.

١- **يقررون** تبني المبادىء الإرشادية التالية للحوار بين الحضارات:

٢- **يطلبون** من الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي تقديم هذا الإعلان للمصادقة عليه من قبل رئيس مؤتمر القمة الإسلامي الثامن وإلى المؤتمر الإسلامي السادس والعشرين لوزراء الخارجية لاتخاذ الإجراء المناسب بشأنه:

[أ] مبادىء عامة للحوار بين الحضارات:

١- احترام الكرامة الإنسانية والمساواة بين جميع البشر وعدم التمييز بينهم أيا كان نوع هذا التمييز وكذلك بين الدول سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

٢- القبول الفعلي بالتنوع الثقافي بوصفه أحد الملامح الثابتة للمجتمع الإنساني ومصدرا غاليا لتقدم البشرية وازدهارها.

٣- الاحترام المتبادل والتسامح في مجال وجهات النظر والقيم الخاصة بمختلف الثقافات والحضارات وحقوق الأفراد المنتمين إلى جميع الحضارات في الحفاظ على تراثهم وقيمهم الثقافية، ورفض تدنيس القيم الأخلاقية والدينية والثقافية وانتهاك الحرمات والمقدسات.

[١] القرآن الكريم ١٧ : ٧٠
[٢] القرآن الكريم ٤٩ : ١٣
[٣] القرآن الكريم ٦٠ : ٨
[٤] القرآن الكريم ٢ : ٢٠٨، ٨ : ٦١
[٥] القرآن الكريم ٤ : ٥٨، ١٦ : ٩٠
[٦] القرآن الكريم ٣ : ١١٠
[٧] القرآن الكريم ٤٩ : ١٣
[٨] القرآن الكريم ٢ : ٢٦٩
[٩] القرآن الكريم ٣ : ٦٣
[١٠] القرآن الكريم ٦ : ١٠٨
[١١] القرآن الكريم ١٦ : ١٢٥
[١٢] القرآن الكريم ٢٠ : ٤٤

٤- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة فى كل زمان ومكان وضرورة الاعتماد على مجالات القوة والثراء والحكمة لكل حضارة فى إطار عملية قوامها الإثراء المتبادل.

٥- رفض محاولات الهيمنة والسيطرة الثقافية والحضارية والتصدى للمذاهب والممارسات الرامية لخلق الصراع والصدام بين الحضارات.

٦- السعى لإيجاد أرضية مشتركة بين مختلف الحضارات وداخلها حتى يمكن مواجهة التحديات العالمية المشتركة.

٧- القبول بالتعاون والسعى للتفاهم كآلية مناسبة لتعزيز القيم العالمية المشتركة ووضع حد للتهديدات العالمية.

٨- الالتزام بمشاركة جميع الشعوب والأمم دون أى تمييز فى عمليات صنع القرار وتوزيع المنافع على المستوى المحلى والعالمى.

٩- التمسك بمبادىء العدالة والإنصاف والسلام والتضامن وكذلك بالمبادىء الأساسية للقانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة.

[ب] مجالات الحوار بين الحضارات:

١- التجاوب مع تطلعات البشرية للتمسك بالإيمان والأخلاق.

٢- تعزيز التفاهم المتبادل والمعرفة بين مختلف الحضارات.

٣- التعاون وزيادة المعرفة حول مختلف مجالات الأنشطة والإنجازات البشرية فى الميادين العلمية والتكنولوجية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية.

٤- تعزيز مفهوم التسامح واحترام التنوعية.

٥- التعاون فى وضع حد للمخاطر التى تهدد السلم والأمن والازدهار: تدهور البيئة، الصراعات، الأسلحة، المخدرات، الإرهاب إلخ..

٦ - بناء الثقة على المستويين الإقليمى والعالمى.

٧ - تعزيز وحماية حقوق الإنسان والمسئولية الإنسانية بما فى ذلك الحفاظ على الهوية الثقافية والتعليم والتقاليد الخاصة بالأقليات والمهاجرين.

٨ - تشجيع وحماية حقوق المرأة وكرامتها والمحافظة على مؤسسة الأسرة وحماية الشرائح المحتاجة للرعاية فى المجتمع: الأطفال والشباب والمسنين.

[ج] المشتركون فى الحوار:

١- ينبغى أن يتاح لممثلى الحضارات الاشتراك فى عملية الحوار، والتفهم والإثراء المتبادلين.

٢- يعد الباحثون والمفكرون والمثقفون ورجال العلم والفن والثقافة والاقتصاد هم المحرك الرئيسى لإطلاق الحوار وتدعيمه.

٣- ينبغى أن تضطلع الحكومات وممثلوها بالدور الرئيسى فى تشجيع الحوار فيما بين الثقافات وتيسير سبل إجرائه.

٤- يستطيع ممثلو المجتمع المدنى أن يقوموا بدور فعال فى النهوض بثقافة الحوار فيما بين شتى المجتمعات وضرورة مشاركتهم فى مثل هذا الحوار.

٥- إن المنظمات الدولية- لاسيما منظومة الأمم المتحدة- هى الإطار المناسب لتشجيع إطلاق الحوار وتدعيمه.

٦- ينبغي على منظمة المؤتمر أن تضطلع بدور قيادى فى النهوض بثقافة الحوار داخل العالم الإسلامى وعلى الصعيد العالمي من خلال اتخاذ مبادرات مبتكرة فى هذا الشأن.

[د] دعم ثقافة الحوار بين الحضارات:

١- التزام حكومات الدول الأعضاء ومجتمعاتها المدنية، والمنظمات غير الحكومية داخل العالم الإسلامى وخارجه، والهيئات التربوية والثقافية، بالإضافة إلى أمانة منظمة المؤتمر الإسلامى وأجهزتها المنتمية والمتفرعة، بتشجيع الحوار وروح التسامح إطارا جديدا للعلاقات الدولية، يتعين تطبيقه داخل العالم الإسلامى وعلى الساحة الدولية عامة.

٢- عقد مؤتمرات وندوات مع الإشراف عليها بهدف تشجيع الحوار والتفاهم المتبادل وبث روح التسامح فيما بين الحضارات المعاصرة.

٣- إبراز مختلف المنجزات الثقافية بصورة فردية أو جماعية بما فى ذلك الموضوعات الوثائقية التى تصور رسالة الإسلام الحقيقية ومختلف المواقف التاريخية الخاصة بالتفاعل البناء بين الحضارات الأخرى، بما فى ذلك الكتب والمقالات والوثائقية والمواد المسموعة والمرئية.

٤- تشجيع المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية على تطوير البرامج الثقافية والتربوية المؤدية إلى التفاهم بين الحضارات.

٥- إدخال برامج تهدف إلى تعزيز روح التفاهم والتسامح فى مناهجها التعليمية بالنسبة لمختلف الثقافات والحضارات، وربما فى ذلك تدريس لغات عديدة.

٦- تعزيز دراسات المقارنة في مجال الثقافة مع التبادل الثقافى فى مؤسسات ومعاهد التعليم العالي.

٧- استخدام الثورة التكنولوجية من خلال الإعلام المرئى والمسموع وتكنولوجيا الإعلام التعددى من أجل نشر رسالة الحوار والتفهم فى جميع أنحاء المعمورة.

٨- تشجيع السياحة التاريخية والثقافية كوسيلة للحوار والتفاهم الحضارى؛

٩- القيام بدراسات حول السبل والأسباب الكفيلة بتطوير التبادل والتفاعل والتفهم فيما بين مختلف الثقافات.

[هـ] تطبيق الحوار بين الحضارات فى المجالات المتأزمة من العلاقات الدولية.

١- تحديد أصحاب الشأن على المسرح الدولى الذين سيتولون إعداد نظام عالمى يقوم على الاشتراك والحوار والتفهم والاحترام المتبادلين عوضا عن المفاهيم التى عفى عليها الزمن والتى قامت على النبذ والتنافس وسياسات القوة والجرى وراء المصلحة الأنانية ضيقة الأفق

٢- عدم اللجوء إلى الحرب واستخدام القوة أو التهديد باستخدامها فى العلاقات الدولية باستثناء حالات الدفاع المشروع؛

٣- الالتزام العالمى بالحلول السلمية للمنازعات وفقا لمبادىء العدالة والقانون الدولي.

٤- ضرورة احترام العدالة وسيادة القانون فى العلاقات الدولية ورفض سياسات التمييز والكيل بمكيالين؛

٥- الاعتراف بحق الشعوب الخاضعة للاحتلال أو السيطرة الأجنبية فى تقرير المصير؛

٦- الإنجاز العاجل للانسحاب الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية والسورية واللبنانية المحتلة ولا سيما القدس الشريف وتمكين الفلسطينيين من إقامة دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس الشريف وفقا لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى ذات الصلة والقانون الدولي، الأمر الذى يعيد القدس الشريف مرة أخرى مهدا للحوار ومثالا للتسامح والتفاهم والإشراك؛

٧- الالتزام بإيجاد عالم خال من جميع أسلحة الدمار الشامل عن طريق التعاون العالمي على القضاء على تلك الأسلحة ومنع انتشارها دون تمييز بين دولة وأخرى؛

٨- القضاء على الإرهاب الذي يهدد العالم بأسره في جميع أشكاله ومظاهره وكذلك الجريمة المنظمة والاتجار بالمخدرات من خلال التعاون على الصعيد العالمي بأسلوب جدي وشامل وخال من أي تمييز؛

٩- تطبيق مبادىء الإنصاف والشفافية والتمثيل الديمقراطي في مؤسسات عالمية شتى؛

[و] مساهمة الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي في البرنامج الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة لعام الحوار بين الحضارات.

١- تبادر منظمة المؤتمر الإسلامي بدعوة ممثلي حضارات أخرى للمشاركة في البحث عن القيم المعنوية والأخلاقية المشتركة من أجل إيجاد نظام عالمي جديد يقوم على الحوار والإشراك والإثراء المتبادل؛

٢- إعداد مشروع إعلان عالمي للحوار بين الحضارات يتضمن مثل تلك القيم المعنوية والأخلاقية المشتركة بما في ذلك تلك الواردة في هذا الإعلان، ويرفع المشروع، بعد التشاور مع مختلف الدول والمنظمات الدولية المعنية بالأمر إلى الدورة السادسة والخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة لاعتماده خلال الاحتفال بعام الأمم المتحدة للحوار (٢٠٠١م)؛

٣- يتوافق مع الإعلان برنامج عمل مدته عشر سنوات يجري تنفيذه على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية بغية تشجيع الحوار بين الحضارات وإيجاد مؤسساته من أجل إنشاء نظام عالمي جديد يقوم على هذا المقياس؛

٤- تتخذ الدول الأعضاء والأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي مبادرات تتناسب مع التوصيات الواردة في الجزء المذكور أعلاه ورفع تقرير بشأن هذه النشاطات التي تستهدف تعزيز الحوار إلى الأمين العام للأمم المتحدة وفقا للفترة (٣) من قرار الجمعية العامة رقم ٢٢/٥٣.

٥- إبلاغ هذه الوثيقة إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والإقليمية لتوزيعها على الدول الأعضاء فيها.

[ز] منهجية الحوار وآلياته وهياكله وتمويله:

١- تستوحي منظمة المؤتمر الإسلامي التعاليم الإسلامية الجوهرية، بما في ذلك المبادىء الواردة أعلاه، في سعيها للنهوض بثقافة الحوار مع ضم ممثلي حضارات معاصرة أخرى إلى الحوار.

٢- تشجيع الدول الأعضاء على تشكيل لجان وطنية دائمة من أجل النهوض بالحوار.

٣- يعين الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي نقطة اتصال في الأمانة العامة بهدف المتابعة الحثيثة للحوار مع الحضارات.

٤- تستفيد منظمة المؤتمر الإسلامي من موارد وإمكانيات الأجهزة الوطنية المعنية بهذه المسألة والموجودة في الدول الأعضاء وذلك من خلال المشاورات المنتظمة وتنسيق النشاطات.

٥- دعوة فريق رفيع المستوى من الخبراء الحكوميين من خلال التشاور بين رئيس القمة الثامنة والدول الأعضاء والأمين العام للمنظمة من أجل إعداد الوثائق المذكورة والتفاوض بشأنها بالتعاون الوثيق مع الممثلين الدائمين للدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي في مقر الأمم المتحدة بنيويورك.

٦- يجري عمل منظمة المؤتمر الإسلامي في مجال الحوار بين الحضارات بطريقة مفتوحة العضوية وفي إطار من الشفافية ■■

الآيات القرآنية التى تم الإشارة إليها فـــى إعــلان طهــران الصادر عن المؤتمر الاسلامى

■■ ١- كرامة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم: "ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"

"صدق الله العظيم" القرآن الكريم سورة الإسراء آية رقم «٧٠»

٢- المساواة

بسم الله الرحمن الرحيم: "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"

"صدق الله العظيم" سورة الحجرات آية رقم «١٣»

٣- التسامح

بسم الله الرحمن الرحيم: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"

"صدق الله العظيم" سورة الممتحنة آية رقم «٨»

٤- السلام

بسم الله الرحمن الرحيم: "يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان. إنه لكم عدو مبين"

"صدق الله العظيم" سورة البقرة آية رقم «٢٠٨»

بسم الله الرحمن الرحيم: "ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون"

"صدق الله العظيم" سورة الأنفال اية رقم «٨»

٥- العدالة بين البشر

بسم الله الرحمن الرحيم: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به. إن الله كان سميعاً بصيراً"

"صدق الله العظيم" سورة النساء آية رقم «٥٨»

بسم الله الرحمن الرحيم: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون"

"صدق الله العظيم" سورة النحل آية رقم «٩٠»

٦- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون"

"صدق الله العظيم" سورة آل عمران آية رقم «١١٠»

٧- تنوع البشر

بسم الله الرحمن الرحيم: "يأيها الناس إنا خلقتكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"

"صدق الله العظيم" سورة الحجرات آية رقم «١٣»

٨- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم: "يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب"

"صدق الله العظيم" سورة البقرة آية رقم «٢٦٩»

٩- الحوار والتفاهم المتبادل

بسم الله الرحمن الرحيم: "فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين"

"صدق الله العظيم" سورة آل عمران آية رقم «٦١»

١٠- العلاقات الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم: "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون"

"صدق الله العظيم" سورة الأنعام آية رقم «١٠٨»

١١- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

بسم الله الرحمن الرحيم: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"

"صدق الله العظيم" سورة النحل آية رقم «١٢٥»

١٢- المرونة واللين فى الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم: "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

"صدق الله العظيم" سورة طه آية رقم «٤٤» ■■

الحوار بين الحضارات

رسالة مؤرخة ٦ كانون الثانى/ يناير ١٩٩٩ وموجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية لدى الأمم المتحدة

■ ■ أتشرف بأن أوافيكم طى هذا بنص "إعلان أثينا" المعنون "تراث الحضارات القديمة": اثاره على العالم الحديث، وقد وقع الإعلان ممثلو جمهورية إيران الإسلامية ومصر وإيطاليا واليونان فى المركز الثقافى الأوروبى فى دلفى باليونان يوم ١١ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٩٨، وأود أن أضيف أننا نرى أن مناقشة بند "الحوار بين الحضارات" لا تقتصر على موقعى هذا الإعلان الأربعة، فالبند يشمل جميع الحضارات القديمة والحديثة.

وسأكون ممتنا لو تفضلتم بالعمل على تعميم نص هذه الرسالة ومرفقها بوصفهما من وثائق دورة الجمعية العامة الرابعة والخمسين في إطار البند المعنون "الحوار بين الحضارات"

التوقيع: **هادى نجاد حسينيان**
السفيـــر
الممثل الدائم



إعـــلان أثينــــا
تراث الحضارات القديمة: آثاره على العالم الحديث

بدعوة من وزارة خارجية الجمهورية اليونانية، التقى ممثلو جمهورية إيران الإسلامية وإيطاليا ومصر واليونان فى أثينا فى المركز الثقافى الأوروبى فى دلفى باليونان، يوم ١١ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٩٨، لمناقشة موضوع "تراث الحضارات القديمة: آثاره على العالم الحديث" مع بزوغ الألفية الجديدة، وهى فكرة اقترحتها لأول مرة حكومة جمهورية إيران الإسلامية لزيادة رقعة السلام والتفاهم بين جميع شعوب الأرض.

وبعد النظر فى مختلف القضايا المتعلقة مباشرة بالتفاعل بين الحضارات، اتفق فريق الخبراء على أهمية التفاهم وتبادل المعارف بالنسبة إلى قضية العدل والسلام فى النظام العالمى.

ويود المشاركون الإعراب عن تقديرهم للمبادرة المتخذة فيما يتصل بما تعانيه بلدان كثيرة اليوم من مشاكل النزاع العرقى وغير ذلك من جوانب التعصب السياسى والدينى والاجتماعى، ويود المشاركون تأكيد رفضهم للنظريات التى تحض على المواجهة والنزاع وعدم المساواة على أساس التفوق المزعوم لأى شعب، سواء فى الحاضر

أو في الماضي، فالحضارات تصنعها عدة شعوب تعمل معا لفترات طويلة من الزمن، وكلما تخلل البحث العلمي عملية تشكيل الحضارات الكبرى جميعها، اتضح النسيج المتشابك للتفاعلات التي أفرزتها، فإذا تجاوزنا الغزوات العسكرية ودعاوى التفوق، فإنه يمكن أن نرى شكلاً خفياً من التنوع والتسامح يرسي في النهاية أسس كل توالف جديد، وقد نمت حضارات مصر وإيران واليونان وإيطاليا القديمة فيما بين الألفيتين الثالثة والأولى قبل الميلاد، بعد أن أسهمت أعمال التشييد التي تحققت بجهد مشترك من شتى الشعوب، عن طريق التفاعل غالبًا، في تقدم الإنسان، ويؤكد المشاركون اقتناعهم واعترافهم بالتعددية في جميع الحضارات في إطار من الاحترام المتبادل والسلام.

ولهذه الأسباب لا بديل لحوار مستمر بين الحضارات يقوم على المساواة والاحترام المتبادل، وينبغي أن يكون هدفنا الارتقاء بخبرة الإنسان وعلمه على أساس احترام التفرد والتنوع. إن الحوار بين الحضارات يسهم في تقدم الإنسان، إن أمام البشرية شوطًا طويلاً لابد من أن تقطعه، ولا يمكننا أن نقصر في صون أي ملمح إنساني على الدوام.

وقد اتفق المشاركون في اجتماع أثينا على أنه يتعين، إزاء تشابك المشاكل التاريخية المطروحة، الترتيب لعقد وتنظيم عدد من الاجتماعات والمناسبات المختلفة في العامين المقبلين، ويؤيد المشاركون استراتيجية مد نطاق المناقشات من فريق الخبراء إلى الجمهور العريض، وذلك بعقد عدد من الحلقات الدراسية التي تضع مختلف الوقائع والآراء تحت منظور واحد، وينبغي في عام ١٩٩٩ تنظيم اجتماع تحضيري في نيسان/ أبريل وحلقة دراسية كبرى في تشرين الأول/ أكتوبر يحضرهما عدد من أكفأ الاختصاصيين لرسم السمات الخاصة لكل حضارة وعمليات تشكلها ومستوى المعارف فيها ومدى انتشارها، وينبغي العمل فور اختتام الاجتماعات على نشر وتعميم الورقات المقدمة، وستكون هذه النصوص أساسًا لتطوير التعاون في المستقبل، ويمكن التخطيط لعقد مؤتمر دولي كبير في عام ٢٠٠٠ تتركز فيه المناقشات بشكل أكثر تحديداً على الجانب الثاني من برنامجنا، وهو "الآثار على العالم الحديث".

ولما كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد كرست عام ٢٠٠١ للحوار بين الحضارات، فإن المشاركين في فريق أثينا يقترحون أن يكون برنامج المناسبات المتعلقة بتراث الحضارات القديمة موجهًا بقدر كبير صوب الخروج بنتائج ذات مغزى قبل الترتيب لمناسبات هذا العام، ولهذا الغرض اتفق ممثلو البلدان الأربعة على إحالة أي مناقشات أخرى إلى حكوماتهم.

إيران (جمهورية - الإسلامية)

«التوقيع» **مهدى خاندا غابادى**

سفير جمهورية إيران الإسلامية

لدى اليونان

مصــــر

«التوقيع» **محمد خليل**

سفير مصر لدى اليونان

«التوقيع» **السفير نبيل بدر**

مستشار وزير الخارجية

إيطـاليـا

«التوقيع» **البروفيسور موريزيو توسى**

المعهد الإيطالي لأفريقيا والشرق

روما

اليونـــان

«التوقيع» **البروفيسور فاسيليس كاراسمانيس**

مدير المركز الثقافي الأوروبي في دلفي

«التوقيع» **السفير أبو ستولوس أنينوس**

مدير الشؤون الثقافية بوزارة الخارجية

كتب للمؤلف

باللغة العربية:

[١] أريد مسكناً – مشكلة لها حل – دار روز اليوسف – القاهرة ١٩٧٨. (نفد)

[٢] نعم أقباط.. لكن مصريون – مكتبة مدبولى ١٩٨٠. (نفد)

[٣] ذكريات سبتمبرية – دار المستقبل العربى – ١٩٨٦. (نفد)

[٤] دراسات وأوراق عمل حول قضايا الإسكان فى مصر – صدر عن مجلس الشعب عام ١٩٨٥. (نفد)

[٥] الإسكان والمصيدة – دار المستقبل العربى – ١٩٨٨. (نفد)

[٦] مصر لكل المصريين – دار سعاد الصباح –الكويت والقاهرة– ١٩٩٢.

[٧] الأعمدة السبعة للشخصية المصرية – الطبعة الأولى – كتاب الهلال – عدد يناير ١٩٨٩، الطبعة الثانية – دار الهلال – ١٩٩١ الطبعة الثالثة – دار الهلال– ١٩٩٣ الطبعة الرابعة ١٩٩٧ – الطبعة الخامسة من دار نهضة مصر ١٩٩٨، وقد ترجم إلى الانجليزية عام ١٩٩٤، وإلى اللغة الكورية عام ٢٠٠٠.

[٨] حاجة الإنسان العربى للإسكان والكساء – صادر عن المعهد العربى للتخطيط بالكويت صدر عام ١٩٩١ فى إطار سلسلة دراسات ومحاضرات عن «الحاجات الأساسية فى الوطن العربى».

[٩] صراع الحضارات والبديل الإنسانى – كراسة إستراتيجية رقم ٣٠ – عدد يونيو عام ١٩٩٥ – صادر عن مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام العربية والإنجليزية.

[١٠] ما بعد عام ٢٠٠٠ كتاب دار الهلال– عدد ديسمبر ١٩٩٥ (نفذ)

[١١] الإسكان والسياسة – الهيئة العامة للكتاب – ١٩٩٦. (حصل على جائزة أحسن كتاب فى مجال الدراسات الاجتماعية فى معرض الكتاب الدولى عام ١٩٩٥م.)

[١٢] خصوصية مصر – مكتبة الأسرة – الهيئة العامة للكتاب – ضمن مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦، وحصل على جائزة أحسن كتاب فى الدراسات الإجتماعية لعام ١٩٩٦.

[١٣] ساسة ورهبان وراء القبضان - كتاب الأهالى رقم ٥٨ سبتمبر / ١٩٩٦.

[١٤] قبول الآخر - الطبعة الثانية - ضمن مجموعة الاعمال الفكرية لمكتبة الأسرة سبتمبر عام ١٩٩٩، وحصل على جائزة أحسن كتاب فى الدراسات الإجتماعية عام ١٩٩٨، الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٠.

[١٥] التلسيم الثقافى لترطيب الأقليات، دار الفكر- سوريا عام ٢٠٠١.

[١٦] المثقف العربى والآخر- مسلسل مجمعة إقرأ، رقم ٦٥٠ عن دار المعارف عام ٢٠٠٠.

باللغة الإنجليزية:

[17] The Seven Pdillars of the Egyptian Ikentity. The General Egyptian Book Organization GEBO- CAIRo- 1994

[18] Translated to KORIAN by posan university of foreign studies press - south koria- 2000.

[19] Towards A brighter Mellenium - The General Egyptian Book Organisaim GEBO- Cairo 1998.

[20] Acceptance of the other- Al-Ahram Center for Stratigic studies- 2000.

باللغة الفرنسية:

[21] Le Logement en Egypte - essai critique.
Center detudes et de Documenentation economque, Jurideque et Sociale "CEDEJ" Le Cairo - Egypte - 1992.

الفهرس

التنفيذ والطباعة: Stampa

11 ميدان سفنكس - المهندسين

تليفون: 3034408 - 3448824





قبول الآخر

جاءت الطبعات الثلاث السابقة من كتاب «قبول الآخر» بها بعض التعديلات القليلة ..

أما هذه الطبعة «الرابعة» فهى تتضمن العديد من الإضافات، فإلى جانب عدد مهم من وثائق ومستندات الأمم المتحدة، والتى من بينها «إعلان طهران» الذى كان البداية الحقيقية لاعتبار عام 2001 هو عام حوار الحضارات، يتضمن الكتاب - أيضاً - جزئين جديدين وجديرين بالتأمل، أحدهما بعنوان «الأديان والايديولوچيات»، والآخر بعنوان «سبتمبر الدامى.. وتعليق على ما حدث» وفيه يتناول الدكتور ميلاد حنا أسباب ونتا
التى أصابت العالم بأحداث سبتمبر الدامى.





حصل د. ميلاد حنا على جائزة سيمون بليفار الدولية من اليونسكو عام ١٩٩٨ مناصفة مع ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال، وذلك كأول مصرى عربى يحصل على هذه الجائزة.